# القمع في الإسلام

## حَقائِق مُغَيَّبة






# حَقائِق مُغيَّبة

مصطفى الزايد

اسم الكتاب: القمع في الإسلام
حقائق مغيبة

المؤلف: مصطفى الزايد

القطع: ١٧ × ٢٤

عدد الصفحات: ٢٦٦

السمة: نسخة إلكترونية

إصدار: المؤلف

١٤٤٢هـ - ٢٠٢٠م

# القمع في الإسلام

## حَقائِق مُغَيَّبة

مصطفى الزايد

فَقُلْ لِمَنْ يدّعي في العِلمِ فَلْسَفةً

عَرَفْتَ شَيْئاً وَغابَتْ عَنْكَ أشْياءُ

(أبو نواس)

# الإهداء

إلى العقول التي لم تتحجّر في الأطُر المرسومة لها

فانطلقت تبحث عن الحقيقة في جوٍّ ضبابيٍّ

على أرض مليئة بالحفر بعيون متطلعة إلى غد أجمل

ومستقبل نقي بلا تعصب لشخصية أو تيار

التاريخ ليس ملكاً لأحد، والفكر ليس حكراً على أحد، والرأي لا يعلو على الحقائق، والمبادئ والقِيَمُ تُقيَّم بممارستها لا بتنظيرها، لذا يجب أن نقول بصوت واحد:

أرني ولا تُسمعْني

# مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، ومنَّ عليه بالعقل وحرية التفكير والاختيار فقال: ﴿لا إكراه في الدين﴾[١]، فميزه بذلك على الملائكة الذين ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[٢]، كما ميزه على الجن بأن جعله خليفة له في الأرض يحكم فيها بحكمه ويستخدم عقله في التمييز والاستنباط وبناء قراراته على نتائج إعمال فكره وإجراء المحاكمات العقلية، وترك له حرية التقرير في إطار من الضوابط والأعراف المبنية على أسُس خُلُقية واجتماعية تضمن له حقوقه مع عدم الاعتداء على حقوق الآخرين. والصلاة والسلام على القائل: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٣].

---

[١] البقرة، ٢٥٦.

[٢] التحريم، ٦.

[٣] البخاري، الأدب المفرد، ٢٧٣.

وبعد، فإننا نشهد في هذا العصر ثورة فكرية مرافقة للثورة العلمية والتقنية المتسارعة، وكان من أهم مميزات هذه الثورة الفكرية عودتها إلى مراجعة الموروث الديني الناشئ بعد وفاة النبي ﷺ، من أقوال الصحابة رضي الله عنهم، والنتائج التي نجمت من اختلاف فهمهم للنصوص في حدود تأولهم لمعانيها القريبة أو دلالاتها البعيدة، ومن بَعدهم اختلاف مخرجات المدارس الفقهية الأربع في ما بينها، ثم الاختلافات في داخل المدارس ذاتها، إضافة إلى الخلط بين ما هو فقهي متمثل بالمذاهب الأربعة، وما هو فكري متمثل بالتيارات التي أبرزت أكثر شخصيتين لقيتا اهتمام شعراء وأدباء ونقاد المدرسة الحداثية، وهما «غيلان الدمشقي»[٤] و«الحلاج»[٥]، مع أن هناك كثيراً من الشخصيات البارزة في مجال التيارات الفكرية، سواء من المعتزلة أم الأشاعرة أم الدهريين أم القدرية أم الجبرية أم الصوفية أم الشيعة (غير الرافضة) أم النواصب، في إطار مصطلح «أهل السنة والجماعة». أما أهمية غيلان الدمشقي والحلاج فقد جاءت من التنكيل بهما وقتلهما بسبب الفكر الذي عُدَّ كفراً، ما جعل كلاً منهما رمزاً أسطورياً تكلم فيهما الأدباء والشعراء الحداثيون في كتاباتهم. وفي هذا الجو المتلبد بخليط من السحب السوداء والغيوم البيضاء بدأ يظهر في

[٤] غيلان بن مسلم الدمشقي، قبطي الأصل، عاش في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك الذي قتله بعد أن أظهر قدريته وناظره الإمام الأوزاعي.

[٥] الحسين بن منصور، شاعر صوفي عاش في العصر العباسي، كان معاصراً للجنيد ولم يأخذ عنه، اتهم بالقول بالاتحاد وحوكم فقتل.

الساحة الفكرية نقد فسّره بعضهم «عداوة»، في حين فسره آخرون بأنه «نقد بنّاء».

وفي هذا الاختلاط ركب بعضهم موجة التكفير متغافلاً عن وجوب النقد الذاتي وأنه ظاهرة صحية، كما عمد بعضهم إلى الاصطياد في الماء العكر، فبدأ في الطعن والتحريض بعيداً عن النقد البناء، وأصبح التنظير عمل من لا عمل له، وصارت الآراء تصدر إما عن تعصب للأشخاص أو المدارس المذهبية أو التيارات الفكرية، وإما عن الفهم الخاص للنصوص في حدود الثقافات الشخصية بعيداً عن اللغة العربية وأساليبها، فوقع كثير من شباب المسلمين في حيرة واضطراب، نتج منهما وَهْنٌ في الثقة بالدين كله لا بالموروث الديني فحسب، وضاقت مواقع التواصل الاجتماعي والقنوات الفضائية بدعوات تطالب بالمساواة بين الذكر والأنثى، وبإنهاء السلطة الأسرية على الفتاة، ورفع يد السلطة السياسية عن حماية السلطة الدينية، وبذل حرية الرأي وإنهاء القمع الفكري الذي يتمثل برؤية أحادية تمنع طفو سواها على السطح، ما يتعارض مع أحكام الإسلام وحكمته في القاعدة الأساسية: ﴿لا إكراه في الدين﴾[٦]. والحقيقة أن جزءاً كبيراً من المطالبات هي حقوق إنسانية طبيعية ودينية أصيلة للفرد، لكن سلطة العادات والتقاليد ألقت عليها صبغة دينية بحكم الزمن وتوارث الأجيال لها، فاختلفت بين المجتمعات الإسلامية نفسها.

---

[٦] البقرة، ٢٥٦.

ونحاول في هذا البحث وضع أيدينا على الجراح وإجراء نقد ذاتي حيادي نزيه لا يخجل من الاعتراف بالخطأ ولا يمالئه، يهدف إلى إثبات ما هو ثابت في الأصول المعتمدة الموثقة نصاً وممارسة، وإيضاح الجوانب التي حاول طمسها أحد الجانبين لإظهار الجانب الذي يخدم توجهه، سعياً إلى إيقاف النزف ومعالجة الجراح، لينهض الإنسان المسلم المعاصر نهوضاً يتناسب مع الواقع المعاصر في ظل التسابق التقني والحضاري العالمي، وتدارك ما فات واللحاق بالركب قبل فوات الأوان.

# تمهيد

إذا أردنا الحديث عن القمع وجب تقييد المصطلح بتعريف نلزم أنفسنا استخدامه في إطار هذا المضمون في شكل ثابت، بعيداً عمّا تشكّل في الأذهان من معان ودلالات لسنا ملزمين بها.

قمَع الشَّخْصَ: زجره وردَعَهُ وكفّه، أو قَهَره.[٧] وهنا نحن سنتعامل مع المصطلح بمعنى: **«مَنْعُ شخصٍ أو جماعةٍ من قول أو فعل وردعهم بقوة اليد أو السلطة، ومعاقبتهم عليه».**

وللقمع صور وأشكال، منها:

**قمع اجتماعي:** يكون في ظل سلطة رب الأسرة أو الأسرة كلها أو القبيلة أو العرف الاجتماعي السائد في البلد، ويغلب أن يكون ناشئاً من المصالح الفردية أو الجمعية، أو من العادات والتقاليد، لذلك يختلف مداه وحدوده بين أسرة وأخرى وبلد وآخر.

**قمع سياسي:** وهو متعلق بحرية الرأي، ويكون في ظل سلطة رئيس الدولة المستبد، أو الحزب الحاكم المستبد كذلك، فتصدر قرارات القيادة

---

[٧] لسان العرب، ابن منظور، مادة «قمع».

من رؤيتها الفرعونية ﴿لا أريكم إلا ما أرى﴾[٨]، فإذا اعترض على القرار شخص أو جماعة، أو نقدوه، سلط عليهم القتل أو التنكيل أو السجن أو الحرمان من الحقوق أو التهديد في أقل تقدير. وقد يكون رأي الحاكم هو الصواب، لكن يبقى أسلوب التعامل مع المعترض قمعاً حتى لو جانب رأيه الصواب، لأنه منع عنه حقاً من حقوقه وهو حرية التعبير التي تلزم مناظرته وإقامة الحجة عليه لرده عن باطله بالإقناع لا القمع.

**قمع فكري:** وهو الذي تمارسه السلطات الدينية أو الفكرية المستبدة حين تهيمن على السلطة السياسية، كما فعل المعتزلة[٩] أيام المأمون فقتلوا العلماء المختلفين معهم ونكلوا بآخرين بذراع السلطة الحاكمة وقوتها، وكالذي قامت به الكنيسة في أوربا من خلال محاكم التفتيش[١٠] التي قتلت ونكلت بالمسلمين واليهود بتهمة الكفر، ونكلت حتى بالمسيحيين البروتسانت بتهمة الهرطقة، ووقفت في وجه العلم المتعارض مع ما تراه الكنيسة، وقتلت علماء ونكلت بآخرين واضطرتهم إلى التراجع عن

---

[٨] غافر، ٢٩.

[٩] تيار فكري بدأ ظهوره في العصر الأموي، وهيمن على الساحة الفكرية في زمن الخلفاء العباسيين المأمون والمعتصم والواثق، وقتل عددا من العلماء ونكل بآخرين، محاولين فرض رؤيتهم المخالفة لمنهج النبي ﷺ على المجتمع الإسلامي بقوة السلطة، حتى نكبهم الخليفة المتوكل واعتذر إلى العلماء وأعاد إليهم اعتبارهم.

[١٠] ديوان أو محكمة، وهي سلطة كنسية كاثوليكية استثنائية وضعها البابا غريغوري التاسع، نشطت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، مهمتها اكتشاف وملاحقة مخالفي معتقد الكنيسة ومعاقبتهم، فنكلت بالمخالفين لمذهبها من النصارى، وكذلك بالمسلمين واليهود وارتكبت أفظع الجرائم في حقهم.

نظرياتهم، ومنهم «غاليلو»[١١] الذي لم ينجُ من الإعدام إلا بعد أن أقر بأن الأرض لا تدور!

وهذا النوع من القمع هو الذي يرتكز كتابنا على بحثه وتحليله واستنتاج عواقبه، من خلال عدد من الشخصيات، سيكون آخرهم غيلان الدمشقي، والحلاج لنقف على قمع السلطة الدينية الذي تعرضا له.

---

[١١] Galileo: عالم فلكي وفيلسوف وفيزيائي إيطالي.

# أثـر الانـفـتـاح في الـثـورات

في هذا العصر الذي تحول فيه العالم إلى قرية صغيرة اجتازت فيها الثورة التقنية الحدود الطبيعية والاصطناعية للدول، بل والحدود التربوية والتعليمية والدينية والفكرية والاجتماعية، فسقطت أمامها الأسوار الحصينة وانهارت القلاع الشامخة، فانتقلت الفِكَرُ والرؤى الإنسانية والنظريات الاجتماعية والكونية والفلسفية إلى معظم البيوت في هذه القرية، فكان لها الأثر العظيم في العقول والنفوس وإلهاب العواطف بالحماسة لإعادة النظر في الواقع والمسلّمات ومن ثَمّ حرية الاختيار، وكذلك الرغبة في التغيير إلى الأفضل بناءً على القناعات المستجدة أو السابقة المقموعة، فظهر عند الناس وعي جديد وطموح بعيد أدّيا إلى قيام ثورات في عدد من المستويات، منها الثورات السياسية التي طالبت الحكومات المستبدة بالنزول عن السلطة وترك اختيار الحاكم للشعب، ومنها الثورات الاجتماعية التي ظهرت في الأسر التي اعتاد نظامها على التسلط المبني على أساس صيانة الأسرة وأفرادها، بدوافع دينية أو أخلاقية أو عادات قبلية أو أعراف اجتماعية، ومعظم ذلك ينحصر في رؤية رب الأسرة، سواء أكان أباً أم أمّاً أم أخاً أكبر، ومستواه العلمي أو التعليمي وعمق ثقافته ومدى مرونته أو تصلبه في التعامل مع أفراد الأسرة والناس، ومستوى هيمنة العرف على تفكيره وقراراته، فنشأت حوارات ومناقشات لقضايا كانت تعد من المسلّمات والثوابت التي يحرم مجرد التفكير فيها

فضلاً على طرحها، فنتج من ذلك تثبيت لقناعات سابقة والتسليم بها، إلى جانب ظاهرة «التعنيف» التي كان منها ما هو حقيقي، فتعرض بعض أفراد الأسر، وخصوصاً الإناث، وربما أسر بأكملها، إلى ظلم وقهر ومصادرة حقوق، ما أدى إلى هرب بعض أفراد الأسر، أو التجائهم إلى الجهات المختصة لحل مشكلاتهم وحمايتهم. إضافة إلى كثرة حالات الطلاق في شكل غير مسبوق، وصعود ظاهرة المسترجلات (البويات)[١٢].

## ارتفاعُ نسبة الطلاق وحربُ الأجيال

قالوا: «الزواج نصيب، والطلاق قرار»، أي أن الله قسم لكل من الشريكين زوجاً لم تكن الأمور بيّنة بينهما، لأن المعاملة هي التي تكشف معدن كل منهما. والأسس التي يقوم عليها الزواج الناجح نجملها في عشر نقاط: هي: العدل، والاحترام، وحسن المعاملة، والحلم، والثقة، والإيثار، والمواساة، والإعذار، والتسامح، ومعرفة كل من الزوجين واجباته فلا يخل بها، وحقوقه فلا يلزم الآخر أكثر منها. وهي حقوق لكل منهما وليست تكرماً منه على شريكه ، فإذا تحققت جاءت المودة والرحمة التي ذكرها الله سبحانه في قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا

[١٢] إناث يعشن حياة الرجال في الملبس وحلاقة الشعر وحتى الرغبات المخالفة للفطرة وطبيعتهن الجسدية.

إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١٣]، ومع ذلك ما من زوجين إلا حدثت بينهما مشكلات، قد تبدأ من خلافات بسيطة، فإما أن يستوعباها ويصلحا ذات بينهما، وإما أن تكبر شيئاً فشيئاً وتتشكل تراكمات تضخمها وساوس النفس وتدخلات الآخرين، فيصبح المجال مفتوحاً أمام الزوجين ليقدر كل منهما مكانة شريكه لديه، ومستوى الحياة معه وإمكان استمرارها أو اتخاذ قرار الطلاق أو الخلع. والطلاق هو آخر العلاج للمشكلات حين تسد كل الطرق إلى بقاء هذا الكيان الاجتماعي قائماً ليستمر ويؤدي دوره في سلسلة نظام المجتمعات والبناء الإنساني، وقد كانت حالات الطلاق في المجتمعات المسلمة في العقود الماضية أقل من أن يتناولها باحث في دراسة، ولكن أن تصبح ظاهرة تطرح أرقاماً مرعبة فهذا يدعو إلى التساؤل؛ لأنه لا بد أن يكون وراء الأكمة ما وراءها!

وهنا بدأت الدراسات تصدر إحصاءات حالات الطلاق وتدرس أسبابها وتطرح طرق علاجها. وحين نتناول المجتمع السعودي نموذجاً فذلك لأنه أكثر تماساً مع الشريعة الإسلامية وتطبيقاً لها في العلاقات الاجتماعية، ومع ذلك كانت الإحصاءات فيه صادمة، فقد نشرت صحيفة «الوطن»[١٤] في عددها يوم الأحد ٢٨ نيسان (أبريل) ٢٠١٩ مقالة أوردت فيها تحذيراً أطلقه مركز التنمية الأسرية بالأحساء من أن نسبة حالات الطلاق أصبحت

---

١٣ الروم، ٢١.

١٤ https://www.alwatan.com.sa/article/1007519

بازدياد يهدد كيان الأسرة وينذر بتفككها، وأن حالات الطلاق خلال عام ١٤٣٩ هـ الموافق ٢٠١٨ - ٢٠١٩م بلغت ٥٨٠٤٩ حالة، على مستوى المملكة العربية السعودية، وهو رقم مرعب حقيقة في هذا المجتمع الملتزم والمحافظ، فقد بلغ رقماً يعد قياسياً في الارتفاع بشكل غير مسبوق، وصلت فيه النسبة إلى زيادة بلغت ٤٠ في المئة على نسبة الطلاق في الأعوام العشرين السابقة، ولكن الملاحظة المهمة هي أن نسبة المطلقين في السنة الأولى من الزواج تشكل ٦٠ في المئة من حالات الطلاق في العام المذكور، أي أن أكثر من ٣٠ ألف حالة طلاق تمت في السنة الأولى من الزواج! ما يدل على أن جيل الثورة التقنية هو الضحية الكبرى في هذه المشكلة وهو سبب تضخمها. وذكرت المقالة عدداً من الأسباب المؤدية إلى الطلاق، منها ما هو شرعي، ومنها ما هو مالي، ومنها ما هو اجتماعي، ولكن المجتمع في مواقع التواصل أظهر أشياء أخرى، أهمها ما يرتبط بدور الإعلام، حيث تقدم المسلسلات والأفلام الحياة الزوجية في صورة نموذجية حالمة غارقة في ترفها المالي والحسي والعاطفي، لكن الزوجة تتلقى صدمة حين تدخل خضم حياتها الجديدة، وخصوصاً في الظروف الاقتصادية المتردية لزوج بدأ تكوين نفسه تواً وهو في أولى درجات السلم الوظيفي. وفي المقابل يبدأ الزوج حياته الزوجية بصدمة مماثلة، حين يجد أحلامه الوردية تنهار حين يرى زوجته تتعامل معه بندّية بعيدة كل البعد عما غرسته الصورة الإعلامية في عقله، وقد تربى كل من

الشريكين حياة مشابهة، فالزوجة كانت مدللة في أسرتها، طلباتها أوامر وحاجاتها مقضية، والزوج بالمثل في كنف أبيه، إضافة إلى الخروج الطويل من البيت لقضاء الوقت مع أصدقائه، تاركاً زوجته وحيدة في البيت، مع رغبة شديدة لديها في الخروج والاجتماع بصديقاتها، في حين يطلب منها القيام بأعباء البيت ليرجع فيجد كل شيء معداً ومرتباً.

الزوجة في عصر الثورة التقنية ليست كجيل أمها، فقد وُضع العالم بين يديها، فأصبحت تطّلع على ما يحرك في نفسها رغبات قد تعجز إمكانات زوجها عن تحقيق جزء منها، فضلاً على تحقيقها كلها، من ملابس ومصاغ وسفر وتسوق ورحلات استجمام ورصيد مالي تحت يدها. إضافة إلى مجموعات مواقع التواصل، التي تسهم في تضخيم المشكلات، فالزوجة حين تحدث بينها وبين زوجها مشكلة يضيق بها صدرها فتتحول إلى «الفضفضة» لصديقاتها عبر مواقع التواصل، فتنبري هذه لتؤجج النار، وتلك للنفخ فيها، فيزيد ضيق الزوجة وتتضخم مشكلتها في صدرها وتتحول حياتها إلى ألم وشقاء، فيأتي الزوج ليجدها بغير الوجه الذي تركها عليه، وتبدأ ثمار ما غرسته وسقته الصديقات بالتساقط لتملأ حياتهما سوءاً وتزيدها ضيقاً، ثم تأتي كلمة «طلقني» مثل طلقة مدفع تزلزل أركان البيت، ويبقى الدور للزوج الذي إما أن يكمل انهيار البيت، وإما أن يفر من أمامها ليحافظ على أسرته. يضاف إلى ذلك ذئاب بشرية تتخذ في مواقع التواصل أسماء مثل «مصلح اجتماعي» و«مستشار نفسي»

و«خبير أسري» وما إلى ذلك من تسميات لا أحقية لهم بها، ومنهم من يتخذ اسما مؤنثاً «خبيرة، مستشارة...»، فإذا دخلت الزوجة الحوار معه لطرح مشكلتها بدأ يخبّبها على زوجها لغايات في نفسه، وهو - وإن لم يحقق ما يصبو إليه - يكون قد دقّ إسفيناً في حياتها الزوجية وزرع الكره والحقد بينها وبين زوجها.

ولعل أكبر متسبب في حالات الطلاق ما تطرحه في مواقع التواصل مريضات نفسياً، أو زوجات مهجورات أو مطلقات، أو فتيات فاتهن قطار الزواج، أو فتيات يحملن عُقداً اجتماعية أو نفسية من سوء معاملة أو ظلم أو قسوة ذكورية عانين منها، فكونت مخزون حقدٍ عظيم على الرجال عموماً، فاتخذن الرجل - أي رجل - عدواً يسعين إلى الانتقام منه بتكدير عيشه وإفساد حياته وهدم أسرته، وأخريات فقدن سويتهن مع الأخريات، فأخذن يحرضنهن لكي يصلن إلى التساوي معهن، إضافة إلى من أطلق عليهن المجتمع مسمى «النسويات»، وبعضهن مخدوعات بالأفكار البراقة التي تطرح في عالمهن، وبعضهن «داعيات مبرمجات» ضمن خطة مرسومة تهدف إلى تفسخ المجتمع وانهياره بسقوط أهم أركان البيت والأسرة وهي المرأة (الزوجة) التي تؤمن الاستقرار للزوج كي يشارك في بناء وطنه وإحياء أمته لتلحق بركب الأمم وتخلع تبعيتها لغيرها، و(الأم) التي تربي وتنشّئ الأجيال التي تقوم بها الأمم، ومثل هذه التوجهات لا تأتي من فراغ وإنما تكون وراءها مخططات دولية لها أهدافها السياسية

ومشاريعها في المنطقة، فتطرح هذه الفئات في صفحاتها في مواقع التواصل أوبئة تتلقاها الزوجة، مثل: «كرامتك فوق الحياة الزوجية»، «تحررك من أسر العادات والقيم الاجتماعية هو الذي يجعل زوجك يحترمك»، «ارفعي صوتك عليه كما يرفع صوته»، «هدديه بترك البيت»، «الوي ذراعه بطلبات لا يقدر على تحقيقها»، «ثوري على واقعك»، «لا تسمحي له بالتدخل في حريتك الشخصية»، «عباءتك أو نقابك أو طول ثيابك أنت من يقررها، زوجك شريك مثله مثلك وليس سيدك وأنت جاريته»، ومن مثل هذا الكلام الذي يوغر الصدور ويشحن النفوس ويملأ القلوب بالحقد على الزوج ويؤدي إلى التعامل معه بندّية لا مكان فيها لتفاهم على حقوق وحدود، ولا بقاء معها للمودة والرحمة، وبالتالي تتشعب المشكلات ويحدث الطلاق لتنهار البيوت ويتشتت الأبناء، ويضيع عدد كبير من أفراد الجيل المأمول بين أمه وأبيه والقضايا القائمة بينهما على الحقوق والحضانة، فينشأ محروماً أو حاقداً أو مريضاً نفسياً، وهذا شكل من أشكال الحروب، إلى جانب الحرب النفسية والحرب البيولوجية والحرب الاقتصادية والحرب الفكرية، يمكن أن نسميها «حرب الأجيال»، إذ تهدف إلى جعل الخصم ينتج جيلاً مهزوماً نفسياً منهاراً عاطفياً، مشتت الانتماء، أناني النزعة، ولو أن الوالدين يعيان حجم الضرر الذي يتسبب فيه طلاقهما لأولادهما وللمجتمع وللأمة لَصَبَرا وتحمّلا بعضهما مهما بلغت المشكلات بينهما، وتخليا عن أنانيتهما وضحّيا

برغائبهما من أجل هذا الجيل الذي يصنع المستقبل لأمة يتكالب عليها الأعداء من كل طرف وينتظرون انهيارها ليقفزوا عليها محققين أهدافهم التوسعية والاقتصادية، سواء في انتهاب ثروات البلاد، أم في اتخاذها سوقاً لتصريف منتجاتها، أم استخدام أبنائها ليكونوا الأيدي العاملة الرخيصة المضطرة لأجل لقمة العيش، ولا ننسَ الأهداف الأخرى، سواء الدينية التي تمثل امتداد الحروب الصليبية، أم الساعية إلى إحياء إمبراطوريات قديمة، كما نرى في التمدد الإيراني في المنطقة العربية.

لكن الملاحظ أن نسبة تأثير هذه الفئة النسائية بالمتعلمات المثقفات ضئيلة جداً، لوجود العلم وسعة الفكر التي تحمي العقل من الانقياد والخضوع للسيطرة النفسية وتمنعه من الانخداع بزخرف القول، فالعلم حصن لصاحبه يرسخ في ذهنه الوعي والحكمة ما لم يكن صاحب هوى، وكذلك نجد تأثيرهن في الأميّات أو أشباه الأميات ضئيل، وذلك لوجود الفطرة السليمة والبصيرة الوهبية، أما تأثيرهن الأعظم فنجده في أنصاف المثقفات وإن كن متعلمات، فالشهادة العلمية لا تعني الثقافة ولا سعة الفكر. والوعي إما أن يكون فطرة وإما أن يكون بالتحصيل الثقافي.

ويمكننا أن نصنف الطلاق في باب «القمع الاجتماعي» سواء أكان طلاقاً من الزوج باختياره أو استجابة لطلب زوجته، أم كان خلعاً برغبة الزوجة وإصرارها.

# هرب الفتيات من أسرهن

ظاهرة غير مألوفة في المجتمعات الإسلامية، ربما كانت محصورة في حالات فردية نتيجة ظروف أقسى من تحمل الإنسان، فيفر الرجل أو المرأة من هذه الظروف لعله يجد ظروفاً أكثر ملاءمة لإنسانيته، تلك القضية التي طرحها الكاتب سمير عبد العظيم في قصة «أفواه وأرانب»[١٥] التي مُثِّلت عام ١٩٧٧ في فيلم سينمائي. لكن أن يتحول الأمر إلى ظاهرة تستشري في المجتمع وتكون بينهن فتيات مترفات من أسر ثرية، لمجرد الاحتجاج على أهلها لمنعها من أمر ما أو لخوض مغامرة، وأخريات ليس لديهن ضغوط اجتماعية أو نفسية، وإنما يردن أن يعشن حياة «الهيبي»[١٦] في حرية مطلقة بلا قيود أسرية أو دينية، وأخريات يأخذهن الغيظ من كلمة وجهتها الأم أو منعها الأب من خروج، فتحول ذلك إلى عاصفة «قهر» تعانيه، وتبث حزنها إلى صديقات برامج التواصل، فيضخمن لها المسألة، ويثرن فيها روح النقمة ويحرضنها على الصمود في وجه الأسرة، فيزدن الطين بلة وتتكاثف المواقف، حتى تتحول إلى مأساة نفسية تعيشها الفتاة وتنتج قرار «الخلاص»، بأسلوب غبي لا يقدر العواقب، فإذا أرادت

---

[١٥] تناولت قصة الفتاة اليتيمة نعمت التي تربت في كنف زوج أختها الفقير، الذي حاول تزويجها لعجوز غني أغراه بالمال، فلما رفضت عقد له عليها بدون علمها ورشا الشهود، فاضطرت إلى الهرب والبحث عن حياة جديدة.

[١٦] ظاهرة اجتماعية كانت بالأصل حركة شبابية نشأت في أمريكا بدأت بالدعوة إلى عالم تسوده الحرية المطلقة والمساواة والحب والسلام، والتجرد من الارتباطات الأسرية والتجول والتنقل والاندفاع في طريق المخدرات والجنس وموسيقى الروك متنفساً للتمرد على القيم وتجربة أشياء جديدة.

الرجوع أبى أهلها تقبلها، ما يضطرها إلى الاستمرار في الهرب مرغمة هذه المرة، وهنا تتعرض لعروض تقودها إلى الانحراف من أجل لقمة العيش!

وقد نشرت صحيفة «المدينة»[١٧] في عددها الصادر في الثاني من كانون الثاني (يناير) مقالة عن هرب الفتيات من أسرهن، ومعظمهن مراهقات، تضمنت نتائج دراسة أجراها عدد من الأكاديميين بجامعة أم القرى، أوضحت أن الظاهرة بلغت حداً لا يمكن معه السكوت عنها، ويجب إيجاد حلول لها. وعزت الدراسة ارتفاع أعداد الفتيات الهاربات من أسرهن إلى عوالم أخرى مجهولة ربما تقود إلى الجريمة، إلى انتشار وسائل الاتصال الحديثة، وأن العنف لم يعد السبب الأول لهرب الفتيات كما كان في السابق، مبينة أن الأسباب في معظمها تعود إلى الاستخدام السيئ لوسائل التواصل، والتأثر بصديقات السوء، والفهم الخاطئ لمفهوم حرية الفتيات في المجتمعات الأخرى، وتقليد الفتيات ثقافة المجتمعات الأخرى، وضعف الوازع الديني لديهن، وتطلُّع الفتيات إلى حياة أخرى تختلف عن حياتها الواقعية، وعدم إحساس الفتاة بالأمان العاطفي، والميل إلى المغامرة لعيش تجربة جديدة، متأثراتٍ بالأفلام الأجنبية، وضعف المتابعة الأسرية ورقابتها، وفقر الأسرة والحالة المالية المتردية، والغنى المفرط الذي يؤدي إلى مزيد من التحرر، وتناول بعض أفراد الأسرة المخدرات، والطلاق أو

---

١٧ https://www.al-madina.com/article/423745

الانفصال بين الوالدين. وأضافت خبيرة تربوية أن من أسباب هرب الفتيات التهور باعتبار ذلك حرية شخصية، واعتبار ذلك نوعاً من التمرد لإثبات الشخصية وعصيان الوالدين. وكذلك إسقاط دور الأم التي انشغلت بالعمل الوظيفي، وهي المربية التي ترعى الفتاة الباحثة عن الأمان العاطفي والحب الذي شغل البال وحرك المشاعر المدفونة، من خلال انتشار قصص الحب في المسلسلات، وكذلك تأثير برامج التواصل الاجتماعي في عقول أبنائنا وفتحها أبواب العلاقات بين الناس ذكوراً وإناثاً. في حين أكدت أخرى أن السبب هو الإعلام الذي ضخّم قضية التعنيف، لمؤازرة «النسويات» في دعوى «إسقاط الولاية»، مع أن العنف الأسري ظاهرة منتشرة في المجتمعات التي يعيش أفرادها حرية مفتوحة وليس فيها ولاية على المرأة، فأمريكا - مثلاً - تنفق سنوياً خمسين مليون دولار لمعالجة آثار العنف والاضطهاد.

ومن الغريب أن تكون الظاهرة في هذا الحجم في بلد مثل السعودية التي تعد البلد الأول بالعالم في المحافظة على التربية الدينية والحجاب وعدم الاختلاط. لكن يبدو أن فتنة الثورة التقنية دخلت كل بيت!

وفي المقابل ظهرت ادعاءات تعنيف لا أصل لها، أو مبالغ فيها، ناجمة من أهواء فردية أو تحريض خارجي لأهداف شخصية، وهنا أيضاً برز الاصطياد في الماء العكر، وهو الفرصة التي ينتظرها كل انتهازي ليحقق مصالحه القائمة على أهوائه الشخصية أو المدفوع إليها لأهداف فكرية

واجتماعية، وربما سياسة قد تكون وراءها غايات أبعد من ذلك وجهات أكبر من مسألة «تغريدة» أو «منشور» في مواقع التواصل الاجتماعي.

## ظاهرة المسترجلات (بويات)

جاءت الكلمة من «Boy » بمعنى «صبي»، أي أن الفتاة تعيش حياة ذكورية، ويرجع ذلك في الأصل إلى أسباب نفسية واجتماعية، كأن تكون الفتاة ابنة وحيدة بين مجموعة ذكور، تشاركهم ألعابهم الذكورية وأحاديثهم والتعامل بطريقتهم، فتنشأ وكأنها صبي في تفكيرها وميولها، أو أن يكون في الأسرة تمييز واضح وكبير بين الأبناء والبنات، فتسعى الفتاة إلى أخذ جانب مشابه في الحقوق وإلى إثبات شخصيتها في هذه البيئة الممايزة، وفي علم النفس قاعدة معروفة بتقليد الأقوى، فالضعيف يقلد الأقوى منه، والمرؤوس يقلد رئيسه، والمظلوم قد يقلد الظالم، فتنصرف الفتاة إلى تقليد إخوتها في الحركات ونبرة الصوت وطريقة الكلام، وأحياناً حتى في الملابس، وربما في قص الشعر، فتنشأ نشأة ذكورية مندفعة بإصرارها النفسي على إدراك التفوق الذكوري حتى تصبح كل ميولها ذكورية، فتراها لا تلعب بالدمى كالفتيات، وإنما تلعب بألعاب الذكور كالسيارة أو السيف أو المسدس، وهنا يأتي دور الأسرة، وخصوصاً الأم، في إعادة الأمور إلى مسارها الطبيعي وتربية الفتاة تربية أنثوية وإعدادها لتكون سيدة بيت وأماً تدير أسرة وتربي جيلاً، كما أن غياب هذا الدور بانشغال الأم بوظيفة خارج المنزل، أو بعلاقاتها الاجتماعية التي تغطي وقتها، سواء أكانت

زيارات أم حضور فعاليات ومؤتمرات، يؤدي إلى تمادي هذه الظاهرة حتى تصل إلى انحراف في الميول الفطرية.

وأكثر ما تكون هذه الظاهرة في المجتمعات التي تكون الأم فيها مشغولة عن واجبها الأسري، إلى جانب العوامل الأخرى آنفة الذكر، إضافة إلى ناحية مهمة جداً، وهو الملامح، فبعض الفتيات اللائي يفتقدن ملامح الأنوثة من جمال ونعومة ورقة، وتغلب عليها الملامح الذكورية، حتى يحسبها من يراها ذكراً، إذا وجدن بيئة مساعدة تنمو عندهن ظاهرة الاسترجال أكثر من غيرهن من الفتيات اللائي يستوين معهن في الظروف التربوية والنفسية، فينصرفن إلى ألعاب القوة وأداء الحركات الرجولية، بدلاً من اتجاههن إلى وسائل الزينة ككل الفتيات. وقبل أن تطفو هذه الظاهرة على السطح كانت موجودة في بعض المجتمعات المترفة في حالات نادرة، لكن بعد الثورة المعلوماتية أصبحت ظاهرة حقيقية، مكنت بعضهن من الشهرة والانتشار من خلال مواقع التواصل، وفي ظل تشجيع بعضهن بعضاً، ومتابعة الأفلام الأجنبية التي تتحدث عن المسترجلات وإقامتهن علاقات شاذة بمسمى «مثليّات»، تشجعن ليكشفن عن أن ميولهن ذكورية، فهن ذكور في أجساد إناث!

## ظاهرة النسويات

واكب ظاهرة المسترجلات أو «البويات» ظاهرة مماثلة في المجتمع الذكوري، فظهر صبيان مخنثون يدّعون أنهم إناث في أجساد ذكور، لكنها

كانت أقل بكثير من ظاهرة المسترجلات، ولم تكن لتطفو على السطح في مجتمع يعتز فيه الرجل برجولته، وإذا عيب يقال له «امرأة»، لو لم يسهم طرح الإعلام قضية «تغيير الجنس من ذكر إلى أنثى»، وإظهار القنوات عدداً ممن أجروا تلك الجراحات ممن ينتمون إلى مجتمعات منفتحة إلى أبعد الحدود، كما نرى في لبنان مثلاً، إضافة إلى اعتبار علم النفس هاتين الظاهرتين (المرأة المذكرة والغلام المؤنث) طبيعيتين وليستا شاذتين، واتخاذ بعض الدول الغربية قرارات بأن الشذوذ وتغيير الجنس حق من حقوق الفرد، فقنّنت الشذوذ وأباحت الزواج بين أفراد الجنس الواحد، ما جعل المجتمع المسلم يتخذ موقف المواجهة، على مبدأ «لكل فعل رد فعل مساوٍ له في القوة ومعاكس له في الاتجاه»، فبات يُنظَر إلى الحقوقيات على أنهن مسترجلات، وإلى الفتيات المعنَّفات على أنهن مفتريات على أسرهن أو أولياء أمورهن، وأنهن إنما يسعين إلى التخلص من رقابة الأسرة وسلطتها ليسرن على أهوائهن بلا حسيب ولا رقيب! وأسهم في رفع مستوى هذه الموجة اختلاط الحابل بالنابل، وانتهاز النساء اللائي تمردن على أهلهن أو مجتمعاتهن، ومعظمهن درسن في دول الغرب العلمانية التي لا يحكم المجتمعَ فيها دينٌ ولا عادات ولا قيم اجتماعية أو أخلاقية، وإنما وحدَهُ القانون الذي يحكم الجميع بسياسة واحدة ويَعُدّ الفرد حراً في كل ما يخص شخصيته من ميول أو حتى انحرافات، باستثناء ما تصنّفه قوانينهم جريمة، كالقتل أو السرقة أو العنف أو الاغتصاب أو

الإرهاب، وفي ظل هذه القوانين تستطيع الفتاة أن تشكو إلى السلطة أباها الذي يمنعها من السفر مع صديقها، أو الخلوة به في بيته أو بيت أسرتها، فيلزم القانون الأب السماح لها بذلك، وإذا أبى أو تكرر رفضه تؤخذ الفتاة منه لتربى في غير أسرتها تربية منفتحة لا حدود ولا حواجز فيها؛ نساء من طينة «سيزا نبراوي»[١٨]، حملن لواء الدعوة لإسقاط ولاية الرجل على المرأة ومنحها حرية السفر بلا محرم، وعدم إجبارها على الاحتشام في الملبس والتصرفات، وأخذن يشنّعن على المجتمع ويَسِمْنَه بالظالم ويتهمنه بمصادرة حقوق المرأة باسم الدين والعادات، بل ومنهن من شنت حربها على الدين مباشرة بلا تورية ولا تخفٍّ وراء المصطلحات المعتادة لدى أمثالها من الذكور والإناث، وقد نجحن إلى حد ما، فاستطعن استخلاص قرار السماح للمرأة بقيادة السيارة في السعودية، وعددنه انتصاراً، مع أنه حق تمارسه المرأة في المجتمعات الإسلامية الأخرى، ولم يكن منعه في السعودية من تحريم شرعي، وإنما من جانب اجتماعي

---

[١٨] زينب محمد مراد، انفصل والدها عن والدتها وهي رضيعة، فكفلتها بنت خالة أمه عديلة هانم نبراوي وأسمتها «سيزا» وأعطتها لقب أسرتها، فتحولت إلى «سيزا نبراوي» وعاشت في الإسكندرية. ثم سافرت مع أسرتها الجديدة إلى باريس عام ١٩٠٥ وتلقت تعليمها في مدرسة ليسيه دو فرساى حتى عام ١٩٣١ حيث انتحرت أمها البديلة بسبب مشكلات مع زوجها، فأعيدت سيزا إلى مصر لتكتشف أن عديلة ليست أمها الحقيقية وكان ذلك قاسيا على نفسها وخصوصا بعد الحياة المحافظة التي فرضها عليها أبوها وأمرها بالحجاب؛ فأغلقت على نفسها باب غرفتها أياماً عدة رافضة الخروج من البيت، إلى أن جاءت هدى شعراوي، التي كانت صديقة حميمة لأمها البديلة، وأقنعتها بالخروج والمشاركة في المؤتمرات النسائية الدولية والداخلية، وكانتا أول من نزع الحجاب في مصر بعد عودتهما من الغرب إثر حضور مؤتمر الاتحاد النسائي الدولي الذي عقد في روما ١٩٢٣م، في واقعة خلع النساء حجابهن في محطة القطار في ١٩٢٣، وأكملت في الاتحاد النسائي بعد وفاة مؤسسته هدى شعراوي.

أمني لضمان سلامتها، وذلك لكثرة الغرباء المقيمين في السعودية (الأجانب)، ما يجعل خروج المرأة بسيارتها عرضة لأخطار كثيرة، إلى جانب ظهور جيل جديد في المجتمع خرق بعض أفراده نمط التربية الدينية في المجتمع وقيمه الاجتماعية التي تحث على غض البصر وفسح الطريق للمرأة والابتعاد عن مواطن الشبهات، فصار همه ملاحقة الفتيات أينما أتيحت له الفرصة. وبعد صدور قرار السماح بقيادة المرأة السيارة تحولن إلى عدد من المطالبات، وبدأن شن حملات تَسِمُ المجتمع بالذكورية، وتحرض النساء على الثورة عليه وعلى قيمه، وتطالب بحقوق للمرأة كالتي عرفنها أثناء إقامتهن في المجتمعات الغربية للدراسة أو مرافقات لأزواجهن الذين يدرسون هناك، لكن المطالبات لم تكن شاملة؛ إذ اتخذن خطة ذكية منظمة في خطوات تدريجية لطرح المطالبات، لأنهن لو طرحن كل ما في أنفسهن من مطالب لنفاهن المجتمع ولم يحصلن على شيء، فاعتمدن أسلوب جر المجتمع إلى التنازل التدريجي، لكن بخطوات متسارعة، فكان رد فعل المجتمع أنه تعامل بمنظور واحد مع تلك الفئة المسيّرة بأهواء غريبة وتوجهات مريبة، فخلط المجتمع بهن فئة الحقوقيات صاحبات المطالب الحق الساعيات إلى إنقاذ من يعانين من الظلم الاجتماعي أو القهر أو العضل أو التعليق، ويدافعن عن حقوق المظلومات اللائي حُرِمْنَ مما شرعه لهن الله، وهذه النظرة المغلوطة نشأت من التعميم، إذ «الفضيلة وسط بين رذيلتي الإفراط والتفريط»! ولا ريب أن

هناك حالات استبداد أسري يمارس على الإناث، يشمل الضغط النفسي والتعذيب الجسدي والعضل أو الإجبار على الزواج بمن لا يرغبن فيهم، وهذا لم يأت من الدين وإنما من السلطة ذات المنشأ الاجتماعي لا الديني، بحكم الإنفاق والحماية وإطار العادة والعرف، ثم يأتي حكم القوامة الذي أقره الدين، لكنها قوامة لم تُرعَ حقَّ رعايتها، فاستبدوا وظلموا وقهروا بغير حق، ومنعوهن حقوقهن المشروعة دينياً وإنسانياً، لذا كان لزاماً على السلطة القضائية أن تنصفهن وتأخذ لهن حقوقهن وتعاقب الظالم، لأن الإسلام بريء من مثل هذه الممارسات القمعية، بل ويمنعها ويعاقب عليها، ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾[١٩]، فثمة توازن يجب أن يقوم وعدل يجب أن يقام، إضافة إلى وجوب تبيين معنى القوامة في الإسلام، فهي تشمل الخدمة والرعاية والحماية لا التسلط. وفي المقابل ظهرت حالات ندم من مدّعيات التعنيف اللائي اعترفن بخطئهن بعد أن ضيعن أنفسهن، ليكتشفن أنهن كن ضحايا تحريض من رجال أو نساء غرّروا بهن ودفعوهن إلى الفرار من أسرهن لاستخدامهن في أمور شريرة أو سيئة، فورطوهن ثم تخلوا عنهن ليتلقاهن آخرون فيدخلونهن في طرق الخطأ والانحراف، وكأنهم كانوا شبكة، وكل منهم يؤدي دوره. لكن المصيبة الكبرى أن منهن من تبرأ أهلُها منها وأبوا قبولها بعد الهرب الشنيع، وهذه مشكلة يجب أن تحل إما من الأسرة بقبولهن وتدارك ما يمكن تداركه قبل

---

[١٩] البقرة، ٢٢٨.

الضياع النهائي، وإما من السلطات بفتح دور للعائدات المرفوضات من أسرهن، مثل دور الأيتام ودور العجزة. إضافة إلى شن حملات توعية بخطورة مثل هذه التصرفات غير المسؤولة.

## الـثـورة علـى الـقِـيَـم الاجتماعية

تجنبنا الحديث عن الثورات السياسية لأنها لا تعنينا في بحثنا هذا، لأن بحثنا خاص بالقمع في الإسلام، أي القمع الذي مارسته السلطة الدينية الإسلامية على أصحاب الفكر أو المعارضة الدينية، وبحكم أن السلطات السياسية التي مارست القمع على الشعوب الثائرة لم تكن مرجعيتها دينية فإنها لا تدخل في بحثنا. أما القيم الاجتماعية فإن جزءاً كبيراً منها يرتبط بالدين أو يلبّس به، فكان لا بد من المرور بها، فقد طفا على السطح طرح عدد من القضايا المرتبطة بالأسرة أو الأحوال الشخصية، والتي تخضع لنظام ديني منذ فجر الإسلام إلى يومنا هذا، وهذا الطرح جاء في هيئة هجوم شرس على عدد من المشكلات في عدد من الدول المسلمة، بعضها ظهر على مستوى شخصي في كتاب، وبعضها في محفل حكومي، وبعضها في مواقع التواصل، وكان لكل منها مؤيدوه ومعارضوه.

## الدعوة إلى المساواة في الميراث

لعل أهم قضية طرحت لمناقشتها على مستوى الدول هي قضية الميراث ووجوب التسوية فيه بين الذكر والأنثى بدلاً من الحكم القرآني: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾[٢٠]، وقد لقيت الدعوة تشجيعاً من العنصر النسائي والمنفتحين على المجتمعات الغربية، في حين اعترض الفقهاء والعلماء، وبينوا أن هذا الحكم ليس دائماً، فهو وجهٌ من وجوه كثيرة لتقسيم الميراث، وفي بعضها يكون للأنثى مثل حظ الذكرين، وأحياناً أكثر من ذلك، أما هذه القسمة فهي في مسألة واحدة فقط هي وجود أولاد ذكور وإناث بدون وجود أصحاب فرائض خارج الأسرة، والإسلام الذي وضع نظاماً لحياة الأسرة جعل فقراته يكمل بعضها بعضاً، فما ينقصه الأخ يسده الزوج، وما يخل به الزوج يقوّمه الابن، فأوجب على الرجل أن يدفع مهراً للزوجة قبل تأسيس بيت الزوجية، ثم أوجب عليه النفقة على الزوجة والأولاد، وإذا كان له أبوان عاجزان، وإذا كانت له أخوات لم يتزوجن ولا معيل لهن، فعليه نفقة كل هؤلاء. أما المرأة فلم يوجب عليها النفقة لا قبل الزواج ولا بعده، ولم يُحل لزوجها أن يأخذ من مالها ذرة بدون رضاها ولو ملكت مال قارون وكان زوجها صعلوكاً! وبما أنها ليس عليها تبعات مالية فقد أعطاها مثل نصف نصيب أخيها الذي سيتزوج وعليه أن يدفع مهراً، أما هي فستتزوج وتأخذ مهراً، فإذا سُوِّي بينهما فأعطي أخوها ألفاً وأعطيت

---

[٢٠] النساء، ١١.

هي ألفاً، ثم تزوج أخوها فدفع الألف مهراً، وتزوجت هي فأخذت من زوجها ألفاً مهراً، صارت تملك ألفين ولا تجب عليها النفقة على أسرتها الجديدة، في حين بقي أخوها بلا مال وتجب عليه النفقة على أسرته الجديدة، وهذا قمة الظلم! أما حين تأخذ هي ألفاً ويأخذ أخوها ألفين، ويتزوج أخوها فيدفع مهراً ألفاً، وتتزوج هي فتأخذ مهراً ألفاً، فيصير لديها ألفان ولا تجب عليها نفقة، ولدى أخيها ألف وتجب عليه نفقة، فحالها أفضل من حاله! فإن كان كل منهما متزوجاً وله أسرة فالأمر يحسب بالطريقة ذاتها من جهة الإنفاق، فأخوها يجب عليه الإنفاق على زوجته وأولاده، أما هي فلا نفقة عليها، وفي المقابل فإن زوجها يأخذ من ميراث أهله ضعف ما تأخذ أخته، فتتعادل الكفتان، بل وترجح للمرأة؛ لأنها في كل الأحوال لا تجب عليها نفقة، وحتى في حال أنها لم تتزوج فإنه يجب على أخيها الإنفاق عليها، في حين لا يجب عليها الإنفاق على أحد.

ولم تلق هذه الدعوة قمعاً من أي نوع، وإنما كانت ردود الفعل حوارية مجردة.

## قضية تزويج القاصر

مسألة أثارت شبهات كثيرة، واعتمد فيها مثيروها على ما فهموه من أقوال علماء وفقهاء متأخرين، أو كما أرادوا أن يفهموه ليستنبطوا منه دلالات يقيمونها حجة على الحكم الفقهي. ولا يستطيع أحد أن ينكر وجود حالات قد تسمى جريمة بحق الفتاة حين تُزوج وهي غير قادرة على تحمل تبعات

الزواج صغيرها وكبيرها، لكن هذه الحالات لم تُبْنَ على رأي الشرع وإنما على رأي ولي أمر الفتاة الذي أسرع بتزويجها لأسباب دنيوية وليست دينية، فقد وضع الفقهاء ضوابط لهذا الزواج، أهمها أن تكون الفتاة «جسيمة» (أي جسمها ضخم)، أو قالوا «بدينة» (أي بدنها ضخم)، بحيث تتحمل الأمر. ففسر المحتجّون قولهم «جسيمة، بدينة» بأن تكون «سمينة»، وهذا غير منطقي، فالجسامة والبدانة ليست السُّمن، وإن درج في عصرنا الحالي استخدام كلمة «البدانة» بدلاً من «السّمنة» التي أصبح الناس يتحرجون منها، وجرى استبدالها بمصطلحين قديمين، كما يجري في العادة استبدال الألفاظ الممجوجة والمقرفة بغيرها في كل عصر، فإن للمصطلحين معنىً آخر في عصر أصحاب تلك الكتب تختلف عن المدلول المعاصر.

أما من جهة العمر، فقد كانت بنية الناس وأعمارهم أكثر بسطة منها في عصرنا، فآدم عليه السلام كان طوله ستين ذراعاً، وعليه لا بد أن حواء لم تكن مثلنا وإنما قريبة منه في طوله، وكذلك أبناؤه أجدادنا الذين بدأ يظهر فيهم التقاصر تدريجياً حتى وصلنا إلى هذه البنية في عصرنا هذا، فلا تقاس ابنة عشر سنوات في ذلك العصر بمن في السن نفسها في هذا العصر، ونحن قد أدركنا ابنة الستة عشر عاماً مكتملة البنية والأنوثة فتزوج، أما الآن فهي لم تكد تهجر طفولتها لا في حجم بدنها ولا في فكرها ولا في عاداتها ولا في قدراتها، لذلك فإن الضابط في مثل هذه الأحوال

يقاس بالنظر وتقدير القاضي مدى صلاحية الفتاة للزواج من عدمه بناء على هيكلها لا على عمرها، وهذا مذهب أبي حنيفة رحمه الله في مثل هذه الأحوال، يضاف إلى ذلك الاستعداد التكويني الخاص بالفتاة نفسها، فالحيض لا يرتبط بسن معينة، كما أن أعمار الفتيات تتفاوت في البلوغ!

ومع ذلك فإن نصوص الشرع واضحة لا لبس فيها، فقد قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا تُنْكَحُ الْأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ، وَلَا تُنْكَحُ الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ إِذْنُهَا؟ قَالَ: أَنْ تَسْكُتَ﴾[٢١].

وفي حديث آخر قال ﷺ أيضاً: ﴿الثَّيِّبُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا، وَالْبِكْرُ تُسْتَأْمَرُ، وَإِذْنُهَا سُكُوتُهَا. رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَفي حديث آخر قال ﷺ: لَيْسَ لِلْوَلِيِّ مَعَ الثَّيِّبِ أَمْرٌ، وَالْيَتِيمَةُ تُسْتَأْمَرُ﴾[٢٢].

وعليه، فحتى وإن اكتملت بنيتها الجسدية، فإن إجبارها على الزواج ممن لا ترضاه، بدوافع دنيوية واضحة أو خفية، أو بدوافع دينية مزعومة، يعد مصادرة لرأيها وغصباً محرماً وأسلوباً قمعياً مرفوضاً في الشرع، والإسلام بريء منه.

ولكن الغريب في الأمر أن الذين يرون في تزويج القاصر برضاها مطعناً، لا يرون في الزنا بها برضاها مطعناً، في المجتمعات الغربية، فالحلال عندهم جريمة، والحرام حرية شخصية!

---

[٢١] متفق عليه.
[٢٢] رواه أبو داوود والنَّسائي وصححه بن حِبان.

# الدعوة إلى نزع الحجاب

قضية لم يأت طرحها من المسلمين، وإنما طرحها أشخاص يعيشون في مجتمعات مسلمة لكنهم يمثلون اتجاهات فكرية متباينة مع الإسلام في كثير من القضايا والمواقف، وكانت هناك ردود فعل أيضاً، منها ما هو مؤيد ومنها ما هو حيادي، فكان في ذلك عدد من الأقوال:

**قول الحياديين:** إن الحجاب ليس شرطاً للانتماء إلى الإسلام، فقد تكون هناك فاجرات محجبات، وهناك صالحات سافرات**!** لذلك يجب أن يترك الاختيار للفتاة، فهي تقرر أن تتحجب أو لا تتحجب، ولا يجبرها أهلها على أي من الأمرين.

**قول المعادين للحجاب:** الحجاب من مظاهر التخلف، لذلك يجب منع ارتدائه مطلقاً. ولا يخفى الوجه القمعي لهذا الطرح الذي يشف عن توجه عدواني يتعارض مع الحقوق الشخصية للأفراد، وينفي حرية المرأة التي يزعم أصحابه أنهم يطالبون بها.

**قول الله سبحانه وتعالى:** ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾[٢٣].

---

[٢٣] النور، ٣١.

والثورة على الحجاب ليست وليدة هذا العصر، وإنما بدأت منذ الاحتلال الأوربي للوطن العربي، ففي حين شنت السلطة «الأتاتوركية» القمعية حملة على الحجاب في تركيا، ومثلها على زِيّ الرجال الإسلامي، فمنعت النساء من الحجاب، والرجال من لبس الجبة والعمامة وإطلاق اللحية، وأجبرت المجتمع على ارتداء الزي الأوربي، ظهرت النساء الأوربيات المرافقات لحملات الاحتلال سافرات الوجوه والشعر، لكن المجتمعات المسلمة في تلك الفترة كانت متمسكة بشعائر دينها وعاداتها، إلا أن الأمر بات ممهداً لقبوله في نفوس الفتيات، وخصوصاً في بيوت الأسر ذات المناصب. والمعروف أنه حتى فترة الأربعينيات كانت نساء دمشق، بما فيهن المسيحيات، محجبات. أما في مصر فقد بدأت هذه الخطوة بمبادرة من هدى شعراوي[٢٤]، التي عانت من التمييز العنصري في أسرتها

[٢٤] نور الهدى محمد سلطان الشعراوي، من أبرز الناشطات المصريات اللاتي شكلن تاريخ الحركة النسوية في مصر في نهايات القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين. كان أبوها رئيس مجلس النواب المصري الأول في عهد الخديوي توفيق، تلقت خلال نشأتها دروسًا منزلية على يد معلمين، كما كانت تحضر دروس اللغات العربية والتركية والفرنسية، والخط، والبيانو، وحفظت القرآن في سن التاسعة. لكن جنسها ظل يشكل عائقاً أمام استكمال دراستها، وعند بلوغها تعرضت للتفرقة الجنسية والقيود بدءاً من إبعادها عن أصدقاء الطفولة من الذكور، مرورا بتفضيل أخيها الصغير عليها، وصولاً تزويجها في سن الثانية عشرة دون علمها، من ابن عمتها الوصي عليها علي شعراوي، الذي يكبرها بما يقارب الأربعين عامًا. كل ذلك أوجد في نفسها حنقاً على المجتمع وعاداته وعلى ميله الذكوري وتسلطه، ولا سيما أنها عاشت حياة مترفة ثم تحررت في توسيع دائرة معارفها خلال سبع سنين هي الفترة التي تلت طلاقها من علي بعد سنتين من الزواج، التقت هدى بثلاث نساء كان لهن تأثير كبير في حياتها: عديلة نبراوي التي تقيم معظم سنواتها في باريس، ف كانت تصاحبها في النزهات، وعطية سقاف وهي امرأة تركية من أقرباء والدتها من بعيد، والفرنسية أوجيني لو برانن التي عين زوجها لاحقاً رئيساً للوزراء. وقد أصبحت لو بران صديقة هدى ومرشدتها وأماً بديلة لها وقوة نسوية في حياتها، وكانت كل تحركات هدى وإنجازاتها بدفع وتوجيه وتشجيع هذه المرأة الفرنسية.

بتفضيل شقيقها الأصغر عليها، ثم بتقييد حريتها في كثير من أمور حياتها مما لم يكن عاماً في المجتمع المصري أو الإسلامي، لكنها كانت عادات وتقاليد ونمطاً خاصاً بأسرتها، وكان أكثر ما حز في نفسها وغرس في نفسها الحقد على العادات والتقاليد هو تزويجها وهي صغيرة برجل يكبرها بأربعين عاماً، لكن وللأسف فإن كثيراً من الناقمين على الأخطاء الاجتماعية يربطونها أولاً بالدين، والدين بريء منها، فلا تكتفي ثوراتهم بالقضاء على مظاهر الاستبداد والظلم والتخلف، وإنما تنطلق لتحارب الموروث الديني والاجتماعي بأكمله، فتعامل الجيد معاملة السيء، بعيداً عن تحكيم النزاهة والعدل، فيصبح الكره عاماً لكل ما هو موروث، وهذا ما حدث مع هدى شعراوي وكثيرات غيرها، ولا نغفل تأثير الفرنسية أوجيني لوبرانن في هدى، بعد أن توثقت العلاقة بينهما حتى صارت الأم البديلة لها، فأصبح همها تخليص المجتمع من كل هذه القيم والهيئات الموروثة، ليحل محلها النمط الغربي الذي رأته الحل المناسب لمشكلتها ومشكلات مثيلاتها. والخطأ الذي ترتكبه هي ومثيلاتها في المصادمة مع الدين تشاركهن المجتمعات في إثمه، فالظلم يورث النقمة، والتضييق يؤدي إلى الانفجار، والعلاج الأسلم هو لزوم الدين لا العادات والتقاليد التي تحدّ من الحريات وتحجب الحقوق وتمارس الظلم باسم الدّينِ، والدّينُ منها براء، وإنما هي مجرد عادات موروثة، أما لو اكتفى المجتمع بتطبيق الشريعة بكل ما للأفراد من حقوق، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً، فإن الخلل

لن يحصل، لكن حين تظهر النزعة الذكورية التي تفرض على الإناث رؤاها الشخصية النابعة من أهواء أو ربما أمراض نفسية، فعند ذلك يحصل الانقلاب في الموازين وتتسلل الخطيئة سراً أو تقوم الثورة علناً. وحين تقوم الثورة المبنية على جهل في الدين فإنها لا تكتفي بهدم جدر الظلم، وإنما تجتاح كل شيء، فتهدم حتى الجدر التي تحميها وتحمي كرامتها وإنسانيتها، فتعالج الإفراط بالتفريط والتفريط بالإفراط، وكلاهما ظلم وجور وفساد، والفضيلة وسط بينهما. وهكذا كانت تعتمل في نفس هدى وأمثالها جروح التأمت على فساد، ضمدتها الأيام ولم يعالجها المجتمع، فكنّ ينتظرن الفرصة المناسبة التي لن تأتي من المجتمع الذي عانين فيه الظلم، وإنما من مجتمعات أخرى، فكنَّ فرصة مناسبة لأعداء مجتمعهن أو أمّتهن، الذين يسارعون إلى تبني دعواتهن وزيادة الشحن في نفوسهن ودعمهن إعلامياً واجتماعياً، وربما سياسياً ومالياً. أسهم تعرف هدى شعراوي على النماذج المتصدرة في المجتمع الأرستقراطي الذي يحمل دماء شرقية وأفكاراً ونفوساً وأهواء وعادات غربية، من أمثال «عديلة هانم نبراوي» وغيرها، في أن تكبر الثورة في نفسها على شكل الملابس لا على المضامين الاجتماعية الظالمة والمستبدة، حيث قادت مظاهرة نسائية لاستقبال سعد زغلول بعد عودته من المنفى على ظهر باخرة، في عام ١٩٢١، وسارت المظاهرة إلى الميناء لاستقباله بصفته زعيماً سياسياً من زعماء الثورة على الإنكليز، وأثناء الاستقبال، كما نقل

الكاتب الصحافي حلمي النمنم، الذي شغل منصب وزير الثقافة في مصر (٢٠١٥ - ٢٠١٨)، في مقالة نشرتها صحيفة «اليوم السابع»[٢٥] الخميس ١٣ كانون الأول (ديسمبر) ٢٠١٨: تقول هدى شعراوي في مذكراتها: «ورفعنا النقاب أنا وسيزا نبراوي، وقرأنا الفاتحة، ثم خطونا على سلم الباخرة مكشوفتي الوجه، وتلفتنا لنرى تأثير الوجه الذي يبدو ظاهراً المرة الأولى بين الجموع، فلم نجد له تأثيراً أبداً، لأن كل الناس كانوا متوجهين نحو سعد متشوقين إلى طلعته». مع التأكيد بأنني لم أجد هذا النص في طبعة مؤسسة هنداوي لمذكراتها عام ٢٠١٣م.

ولم ترجع هدى ومن تبعها في فعلتها تلك إلى الحجاب بعد ذلك. وقالت في مذكراتها إنها صنعت «حجاباً شرعياً» - بحسب فهمها للشرع - يكشف عن الوجه! فتذكُر عن لقائها سعد زغلول على متن الباخرة: «بعد ذلك دار الحديث في موضوعات أخرى، وقد بدأ يهنئني على توفيقي في الوصول إلى رفع الحجاب وكيفية عمل الحجاب الشرعي الذي أرتديه، وقال: إنه قد سُر عندما رأى صورتي بهذا الزي الجديد في منفاه، ثم طلب من السيدة حرمه أن تقلدني، فوعدت بذلك.... صعدت إلى ظهر الباخرة للنزول، وإذ بصفية هانم (زوجة سعد زغلول) تقابلني ببرقعها وملاءتها. فقلت لها: أين وعدك لسعد باشا بارتداء «الإزار الشرعي»؟[٢٦] فقالت: أنا ليس لي زوج واحد... واصف باشا غالي استحسن ألا أغيّر زيي حتى لا أحدث تأثيراً

---

[٢٥] http://www.youm7.com/4065858

[٢٦] تعني به الحجاب الذي اخترعته.

سيئاً في المستقبلين... فعجبت من ذلك، وصافحتها، ونزلت إلى اللنش الذي كان في انتظاري».

ومن قولها: «وتلفتنا لنرى تأثير الوجه الذي يبدو ظاهراً المرة الأولى بين الجموع، فلم نجد له تأثيراً أبداً» يتضح أن تصرفهما هي وسيزا لم يكن انفعالياً بالمناسبة، وإنما كان معداً له، والدليل أنهما تلفّتتا لتريا أثر تصرفهما في الجموع، ولم تكونا مشغولتين بالتوجه إلى زغلول مثل بقية الجموع الذين «كانوا متوجهين نحو سعد متشوقين إلى طلعته»! ومن هنا بدأ خلع الحجاب يتغلغل في المجتمع المصري. وجاء في موسوعة «ويكيبيديا» أن حادثة نزع الحجاب كانت بعد عودة هدى وسيزا من الغرب إثر حضور مؤتمر الاتحاد النسائي الدولي، الذي عقد في روما ١٩٢٣م، وذلك في واقعة خلع النساء حجابهن في محطة القطار في ١٩٢٣ (ويبدو أنها حادثة أخرى)، ما يؤكد أن دعوتهما كان وراءها توجيه خارجي ضمن خطة مرسومة، إذ تداعت نساء كثيرات إلى تقليدهن في هذه الخطوة في تلك الحادثة وبعدها، وذلك بما يسمى في علم النفس بعدوى القطيع أو «سلوك القطيع»[٢٧]، فمثلاً نساء المجتمعات المسيحية في بلاد المسلمين لم يبق عندهن أثر للحجاب، بل وأكثر ما يكون التبرج وإظهار جزء من الجسم عندهن، فانتقلت العدوى إلى بنات المسلمين ونسائهم في تقليد أعمى أسهمت فيه ظاهرة سلوك القطيع بشكل كبير.

---

[٢٧] مصطلح يطلق على سلوك أشخاص في الجماعة حين يتصرفون بسلوك الجماعة التي ينتمون إليها دون تفكير أو تخطيط.

أما «سيزا»[٢٨] التي تربت في المجتمع الفرنسي فقد رفضت الحجاب وأغلقت على نفسها باب غرفتها أياماً عدة إلى أن جاءت هدى شعراوي، التي كانت صديقة حميمة لأمها البديلة - وهذا يعطينا دلالة أخرى على أن خلع الحجاب لم يكن عملاً ارتجالياً - وأقنعتها بالخروج! ومن ربط إقناع هدى شعراوي لها بالخروج بالحجاب، وقد رفضته من قبل، ثم نزعهما له في المظاهرة نفهم بأن اقتناعها كان ضمن خطة اتفقت معها هدى على تنفيذها بألا يتوقف نزع الحجاب عليهما وإنما ليكون فعلاً جمعياً يكون تأثيره في المجتمع أكبر، وبذلك فإن ثورة هدى شعراوي وسيزا نبراوي على الحجاب كانت بذورها غربية أوربية محضة. بعد ذلك أسهمت السينما في نشر ظاهرة السفور حتى صار أمراً معتاداً في المجتمع المسلم المحافظ.

## الدعوة إلى إسقاط الولاية

وهي زوبعة ثارت فترة زمنية ليست بقصيرة، وكان وراءها دعاة معروفون بتوجههم المعارض لكثير من أحكام الإسلام ومظاهره أو معادون له في إطار عدد من المسميات البديلة لتخفف حدة مسمى «ملحد»، وأكثر دعاتها نساء، تعرض بعضهن لظلم أوليائهن واستبدادهم، وبعضهن آزرنهن في هذه الحملة عن هوى، وبعضهن توابع للدعاة آنفي الذكر، وقد

---

[٢٨] سبق برقم ١٨.

ركزت الدعوة على المطالبة بالمساواة مع المرأة في الدول العلمانية، فلا وليّ عليها ولا سلطة غير سلطة نفسها! ولكن هذه الدعوة جوبهت بقوة من المجتمع، وتصدى لها كثير من النساء والأمهات اللائي قدمن حججهن بضرورة وجود السلطة في الأسرة وإلا تحولت حياة الأبناء والبنات إلى تفلت يقود إلى ضياع، والمرأة - وإن لم تكن ضعيفة - فإنها تُستضعف إذا كانت منفردة بلا ولي يقوم على حمايتها ورعاية مصالحها، حتى لو كان ضعيفاً أو غلاماً حدثاً، فهو، على حد تعبير إحداهن: «مثل السلاح الخالي من الرصاص يرهب من يراه على البعد»!

## قضية سفر المرأة بدون محرم

وهي قضية تحسب ثمرة من ثمرات القضية السابقة التي يجري التمهيد لها من خلالها، ولا ريب أن هذا الطرح يتعارض مع الحكم الشرعي، الذي ألزم المرأة، إذا سافرت لأداء طاعة عظيمة كالحج، أن يكون لها محرم، فكيف إذا سافرت إلى أوربا وأمريكا؟! وهنا تحضر حادثة طريفة، تناقلتها كتب الأدب، بأن أبا الأسود الدؤلي حج ومعه امرأته، وكانت جميلة، فعرض لها الشاعر عمر بن أبي ربيعة في الطواف، فأتت أبا الأسود فأخبرته، فأتاه أبو الأسود فعاتبه، فاستحيا عمر وقال: ما فعلت شيئاً! فلما عاد إلى المسجد عاد عمر فكلمها، فأخبرت أبا الأسود، فأتاه في المسجد وهو جالس مع قوم، فقال له:

وإني ليثنيني عن الجهل والخنا وعن شتم أقوامٍ خلائقُ أربعُ
حياءٌ وإسلام وبقيا وأنني كريم ومثلي قد يضر وينفعُ
فشتّانَ ما بيني وبينك إنني على كلّ حالٍ أستقيم وتظلَعُ

فقال له عمر: لست أعود يا عمّ. ثم عاد فكلمها، فأتت أبا الأسود فأخبرته، فخرجت ومعها أبو الأسود مشتملاً على السيف، فلما رآهما عمر خاف فأعرض عنها، فتمثل أبو الأسود بقول القائل:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي صولة المستأسد الحامي

وهذا في حرم الله، فما بالك في بلاد لا حرم ولا حرمة فيها؟

# قضية الاختلاط بين الجنسين

ظاهرة موجودة في معظم المجتمعات المسلمة التي خضعت للاحتلال الأوربي أو التي تسلطت عليها حملات تغريب من خلال الوسط الجامعي ثم الوظيفي، ثم انتقلت إلى كثير من البيوت. ومع صحة كثير مما تطرحه المسلسلات والأفلام عن الحياة الاجتماعية في تلك البلاد، ففي المقابل ثمة مجتمعات ماتزال محافظة في ذلك الوسط المتغرب، وتحرص على عدم الاختلاط، وإنما يكثر الاختلاط في بلادها في المجتمعات التي لا تنتمي إلى الإسلام، كالأقباط والأرمن والمسيحيين عموماً، أو التي لا يعني لها الإسلام أكثر من مسمى، كالنصيرية، أو المجتمعات المنفتحة في ظل حكومات علمانية ولم يعد للدين أثر في نظامها الحياتي. وفي بعضها بقي

الأمر مفتوحاً في إطار حدود معينة من آداب وأخلاق وحذر ضمن الأقارب، في حين ينحصر عند آخرين في المحارم فقط.
لكن الانفتاح الأكبر يجري في مواقع التواصل، والألعاب الإلكترونية المشتركة عبر الشابكة، فذلك لا حدود له ولا ضوابط إلا ضابط التربية القويمة والوازع الديني، وهما قليلان في هذه المعمعة، كما بدأت تظهر في المجتمعات المحافظة حالات فردية تتعامل بانفتاح مع معارفها، وهي بوادر اختلاط جزئي يجري التأسيس له بلا مطالبات علنية. ولا ننكر أن كثيراً من الجرائم الأخلاقية التي أدت إلى جرائم أكبر وخربت بيوتاً ودمرت أسراً كان أهم أسبابها الاختلاط.

# القمع قبل الإسلام

# للقمع وجهان ونوعان

بداية علينا أن نشير إلى أن للقمع وجهين؛ وجهاً من منظور القامع الذي يقيّم[٢٩] تصرفه في إطار وعيه والمصلحة التي يحققها، وهل هو عدل أم ظلم؟ وإن كان ظلماً فإنه يحاول إيجاد مبررات تريح ضميره، فإن لم يحاول تبريره وأقر بينه وبين نفسه بأنه ظلم فإنه يتحول إلى طغيان. والوجه الثاني من منظور المقموع، هل يستحق ذلك أم لا؟ فإن كان لا يستحقه فإنه يتحول إلى ثورة، وإن كان يستحقه وأقر في نفسه أنه يستحقه لكنه يرفضه فإنه يتحول إلى بغي، ومثال ذلك أمية بن خلف الذي كان يعذب بلال بن رباح رضي الله عنه لأنه أسلم، فأمية في قرارة نفسه يعلم أن قمعه هذا ظلم، لأن بلالاً لم يأبق ولم يقصر في أداء العمل الموكل إليه، لكنه اتبع رأياً مخالفاً له، مع أنه لا يضر به، وهو حق إنساني له. لكن أمية استمر في قمعه وتعذيبه، فتحول قمعه إلى «طغيان»، وبلال كان يعلم أنه لا يستحق هذا القمع، فتحول عنده إلى «ثورة»، فلما كان يوم معركة بدر عمد بلال إلى أمية فقاتله وقتله. كما نميز بين نوعين من القمع:

**القمع المحمود:** يهدف إلى المصلحة العامة وحماية الأفراد والمجتمعات من الظلم والجريمة، ويمنع استفحالهما فيها، ويحفظ حقوق الفرد والجماعة وحرماتهم من الضياع والانتهاك على أيدي أفراد بغاة أو

---

[٢٩] خطأ شائع، والصواب «يقوّم»، أثبتناه كي لا يصرف القارئ إلى معنى الاستقامة.

جماعات طغاة، كقطاع الطرق وفارضي الإتاوات، أو الذين يسلبون المستضعفين أموالهم وربما أهلهم، بتسلط لا مبرر له إلا قوة أمام ضعف، وقدرة أمام عجز، ولا أحد يأخذ على أيديهم أو يحمي المظلومين من سطوتهم وتسلطهم، ويمثل قمع أمثال هؤلاء الجانب المضيء من القمع، ويُعدُّ واجباً اجتماعياً يلزم الدولة تنفيذه في المجتمعات المدنية، ومجلس القبيلة في المجتمعات القبلية، كما نرى اليوم تنفيذ القوانين التي تمنع الظلم أو العدوان أو السرقة أو القتل أو التحرش أو الأذى أو غيرها من الجرائم، وتلزم المرتكب عقوبات أو غرامات تتولى السلطة التنفيذية من شرطة وغيرها تنفيذها. ومنفِّذ هذا النوع من القمع عادل، وإن رآه المقموع أو جماعته ظالماً.

**القمع المذموم:** وهو الذي يعد جريمة في ذاته، حيث يكون الظلم هو المقرر والظالم هو المنفّذ، لمصادرة حرية الرأي وتكميم الأفواه عن قول كلمة الحق، أو المطالبة بالحقوق الإنسانية التي أقرها الشرع وأقرتها معظم القوانين الوضعية، أو تقوم به الجهة المسيطرة تجاه من يخالفها في الرأي أو الاعتقاد، كما عرفنا في محاكم التفتيش في أوربا، وفي زمن المعتزلة في العصر العباسي.

# المجتمع القبلي

كانت القبائل العربية منتشرة في صحراء الجزيرة العربية، تترحل متتبعة منازل الماء ومنابت العشب، وكانت بينها حروب وأحلاف، فكان يغير بعضها على بعض فيقتل وينهب ويسبي.

وكان بعض هذه القبائل أقام مدنا وتحول من حياة الرعي إلى حياة المدنية والتجارة والزراعة، وأقاموا في بيوت مبنية على حدود الدولتين العظيمتين في وقتهما؛ الروم والفرس، فكانوا تبعاً لهاتين الدولتين، واتخذوا ملوكاً لهم كالغساسنة على حدود الروم، والمناذرة على حدود الفرس، وكان هؤلاء الملوك بمثابة ولاة لقيصر وكسرى يحمون حدود دولتيهما وتحارب قبائلهما مع جيوشهما، وكانت التبعية مطلقة لدى الطرفين، حتى إن كسرى استدعى النعمان ابن المنذر ملك الحيرة وألقاه تحت أرجل الفيلة فقتلته، ولأجله قامت معركة ذي قار، التي اجتمعت لها معظم قبائل الجزيرة العربية وهزموا الفرس شر هزيمة.

وفي معركة مؤتة بين المسلمين والروم كان في جيش الروم مئة ألف فارس من الغساسنة والقبائل الموالية لهم، يقاتلون أبناء عمومتهم العرب بقيادة الروم!

أما اليمن، فبعد سقوط حكم التبابعة ومن بعدهم الحبشة، في مملكة حمير، آل حكمها إلى الفرس بعد الغزو الساساني لليمن، وذلك بعد هلاك أبرهة

الحبشي بأربع سنوات. وبذلك تكون الممالك العربية خاضعة لإحدى الدولتين. يستثنى بعض الممالك الصغيرة داخل الجزيرة العربية، كقبيلة كندة التي ملّكت عليها حجر بن آكل المرار والد الشاعر امرئ القيس، وقبيلتي بكر وتغلب اللتين ملكتا عليهما كليباً التغلبي، لكن عمر المملكة لم يطل بسبب قتل جساس بن مرة زوج أخته كليباً، فاستعرت بين القبيلتين الحرب المسماة «حرب البسوس»، والتي امتدت أربعين عاماً.

أما القبائل في الصحراء فلم تكن تخضع لحكم أي من الدولتين، لكنها حافظت على علاقاتها مع ملكي الغساسنة والمناذرة العربيين، وكان الشعراء يفدون عليهما ويمثلون سفارات قبائلهم لديهما، كالنابغة في بلاط النعمان، وحسان بن ثابت رضي الله عنه في بلاط الغساسنة. أما النعمان فكانت قبائل العرب المجاورة للحيرة تفد عليه في أيام القحط فيعطيهم العطايا ويكرمهم، لذلك غاروا له وأبوا تسليم بناته لكسرى، وكانوا هم المحرك الأول لمعركة ذي قار ضد الفرس. كما كانت بين الغساسنة والمناذرة حروب، أشهرها يوم حليمة، الذي انتصر فيه الغساسنة، فبات لزاماً على من يوالي الغساسنة ألا يتقرب من المناذرة، والعكس بالعكس.

وحين وفد النابغة الذبياني على ملك الغساسنة ليشفع في أسرى قومه لديهم مدحه بقصيدة قال فيها:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهنَّ فلولٌ من قراع الكتائبِ

تُخيّرنَ من أيام يوم حليمة   إلى اليوم قد جُرِّبنَ كل التجارب

فأثار مدحهم بذكر انتصارهم في هذه المعركة حفيظة النعمان بن المنذر الذي توعده، فنظم النابغة عدداً من القصائد سميت «الاعتذاريات»، وجه بها إلى النعمان يعتذر منه ويستعطفه ليعفو عنه، وهو إلى ذلك لم يطعن في الغساسنة في اعتذارياته، وإنما استحضر حكمته وكياسته في الاعتذار كقوله للنعمان:

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً   وليس وراء الله للمرء مذهَبُ
لئن كنت قد بُلِّغت عني خيانة   لمبلغك الواشي أغشُّ وأكذب
ولكنني كنت امرءاً لي جانبٌ   من الأرض فيه مُستزادٌ ومذهَبُ
ملوك وإخوان إذا ما أتيتُهم   أحَكّم في أموالهم وأقرَّب
كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم   فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا

# قمع الصعاليك

برزت ظاهرة «الصعاليك» في المجتمع العربي الصحراوي بمثابة رد فعل على الظلم الاجتماعي وانتشار ظاهرة الفقر إلى درجة الجوع في بعض الأسر، ما أوصل بعضهم إلى وأد بناتهم! فالصعلوك في اللغة هو الفقير فقراً مدقعاً.

ووأد البنات كان معروفاً عند الصينيين والهنود من قبل الميلاد، أما في الجاهلية فإنه يرجع إلى أمرين: **الأول** تمارسه القبيلة الضعيفة خوفاً على بناتها من السبي وعاره في مجتمع تغير قبائله على بعضها وتنهب مالها ونساءها، وقيل إن أول من فعلها من العرب هو قيس بن عاصم المنقري وكان من وجوه قومه. وذلك أن النعمان بن المنذر غزا بني تميم فسبا ذراريهم. فلما تصالحوا سألوه تحرير أسراهم، فخيَّرَ السبايا، فمنهن من اختارت أهلها فردَّها إليهم، إلا امرأة قيس بن عاصم[٣٠]، وقيل ابنته، فاختارت الذي أسرها، فأقسم أنه لا تولد له ابنة إلا قتلها، فصارت سنة.
**والأمر الآخر** هو الفقر، إذ لا يجد الأب ما يطعم به ابنته، وكان منهم من يئد البنين أيضاً، وفي ذلك قول الله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾[٣١]، وقوله عز وجل: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية

---

[٣٠] من سادات تميم، شاعرٌ وفارسٌ شجاعٌ، اشتهر بالحلم، أدرك الجاهلية والإسلام فساد فيهما، قدم على رسول الله ﷺ في وفد بني تميم فأكرمه وقال: «هذا سيد أهل الوبر». عُمّر بعد النبي زماناً وروى عنه عددا من الأحاديث.
[٣١] الأنعام، ١٥١.

إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾[٣٢]، وأبناء تعني البنين والبنات. وبين الآيتين فرق طريف؛ ففي الآية الأولى قال «من إملاق» فدل على أن الفقر واقع، فتعهد برزق الأهل أولا ثم رزق الأولاد «نحن نرزقكم وإياهم»، أما في الآية الثانية فقال: «خشية إملاق» فالإملاق غير موجود لكنهم يحذرونه مستقبلاً، فتعهد سبحانه برزق الأولاد قبل الأهل: «نحن نرزقهم وإياكم». وظهر في المجتمع الجاهلي خيّرون كانوا يشترون حياة الفتيات من أهليهن المملقين بناقة أو ناقتين لضمان معاشهن من رفدها ونسلها، واشتهر منهم زيد بن عمرو بن نفيل[٣٣]، الذي كان يحيي الموؤودة، فيقول لمن أراد قتل ابنته: «لا تقتلها، ادفعها إلي أكفلها، فإذا ترعرعت فإن شئت فخذها وإن شئت فادفعها»! ومنهم صعصعة بن ناجية[٣٤]، الملقّب «محيي الموؤودات» إذ أحيا ٣٠٠ فتاة اشترى حيواتهن من أهلهن، وصعصعة هو جد الفرزدق الشاعر الذي قال مفتخراً:

وَجَدِّى الَّذِى مَنَعَ الْوَائِدَاتِ     وَأَحْـيـا الْـوَئِـيد فَـلَـمْ يُـوأَدِ

وفي ذلك المجتمع كان بروز ظاهرة الصعلكة، وهم من فرسان العرب وعدائيهم، الذين عانوا من الظلم الاجتماعي، وانتهضوا لأخذ لقمتهم بحد السيف، فكان الفرد منهم يغير على القوم فيسلب ما يقدر عليه من أنعامهم، حتى قال قائلهم:

---

[٣٢] الإسراء، ٣١.

[٣٣] العدوي القرشي، والد الصحابي أسامة بن زيد، وابن عم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، نبذ عبادة الأصنام في الجاهلية، ووحد الله.

[٣٤] من أشراف تميم ووجوه مجاشع، أدرك الإسلام فأسلم، ووفد على النبي ﷺ فأكرمه.

وإني لأستحيي من الله أن أُرى أجرّر حبلاً ليس فيه بعيرُ
وأن أسألَ المرءَ اللئيم بعيرَه وبعرانٌ ربي في الفلاة كثيرُ

ومنهم من ينتمي إلى أسر ثرية، كعروة بن الورد، الذي قيل عن سبب تصعلكه أنه مر برجل يريد أن يئد ابنته، فاشترى منه حياتها بناقتين، وذهب يطلبهما من أبيه، فرفض أبوه إعطاءه الناقتين لهذا الغرض، فأغار على قبيلة سلبها الناقتين وأعطاهما للفقير، ثم انتشرت ظاهرة الصعلكة وتشكلت منها مجموعات تغير على القبائل وتأخذ لأنفسها وتعطي للمملقين ما يقتاتون به أو يستعينون به على معاشهم. ولعروة أشعار يحرض فيها الصعاليك على الثورة، كقوله:

لحى اللَّهُ صُعلوكاً، إذا جَنّ ليلُهُ مصافي المشاشِ، آلفاً كلَّ مجزرِ
يَعُدّ الغِنى من نفسه، كلّ ليلة أصابَ قِراها من صَديقٍ ميسَّر
ولكن صعلوكاً صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور
مطلاً على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر
فذلك إن يلقَ المنية يلقها كريماً وإن يستغنِ يوماً فأجدر

لكن سادة القبائل لم يقبلوا بهذا الواقع المفروض عليهم، لأن الصعاليك لم يتوقفوا عند النهب وإنما أصبحوا يقتلون الرعاة والحرس على المال، ومنهم من سبى النساء، فأصبحوا ظاهرة تهدد أمن المجتمع وتقلق راحته، فترصدوهم ونصبوا لهم الكمائن حتى استأصلوا شأفتهم، وكان ذلك من القمع المحمود، لكنهم للأسف لم يعالجوا السبب الأساسي لهذه الظاهرة

وهو الفقر أمام بخل الأغنياء، فلا زكاة ولا صدقة، إلا في حالات نادرة كما مر بنا عن زيد بن عمرو بن نفيل وصعصعة بن ناجية.

## المجتمع المكّي

كان المجتمع المكي وسطاً بين القبلية والمدنية، فلم يكن لقبيلة قريش ملك أو أمير كالغساسنة أو المناذرة أو اليمن أو بعض قبائل العرب كتغلب وكندة، وإنما كان لهم «دار ندوة» أسسها قصي بن كلاب أول سيد من سادات قريش تعهد إدارة تلك القبيلة ومدينتها، وقد جاءت أهمية قريش في القبائل العربية، سواء العرب العاربة (القحطانية) أم العرب المستعربة (التي يرجع نسبها إلى نبي الله إسماعيل عليه السلام)، من حمايتها للبيت الحرام وقيامها على خدمة الحجيج وسقايتهم وحفظ أمنهم. وكان سيد مكة يجتمع في دار الندوة مع ممثلي أفخاذ القبيلة، الذين تسلّم كل منهم واجباً شرفياً من واجبات الحماية أو خدمة الحجاج، وكان هؤلاء سادة قريش الذين يجتمع بهم سيد مكة ويرجع إلى مشورتهم في اتخاذ القرارات السياسية والاجتماعية، ولم تكن مكة ولا أهلها يخضعون لأي من ملكي الغساسنة والمناذرة، أو لأي من دولتي الروم والفرس. كما كان المجتمع المكي ومعظم قبائل العرب تدين بالحنيفية[٣٥]، حتى أدخل عمرو بن

[٣٥] ديانة نبي الله إبراهيم عليه السلام، أخذ اسمها من قوله: «إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (الأنعام: ٧٩).

لحي[٣٦] الأصنام إلى مكة، فغير دين أهلها إلى الوثنية، وبذلك تغير دين قبائل العرب التي كانت تحج إلى البيت العتيق منذ عهد إبراهيم عليه السلام.

## هيمنة الاستبداد ودخول الأصنام مكة

كان عمرو بن لحي قدم بلاد الشام فرآهم يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟ فأعطوه صنماً، وحين أدخله معه مكة ودعا الناس إلى عبادته لم يلق مواجهة من أهلها لأنه كان سيد مكة حينها، وهنا تبدو لنا النظرة الفرعونية المتسلطة ﴿لا أريكم إلا ما أرى﴾، أمام جبن الشعوب في مواجهة «السيد»، وذلك قبل ثورة قصي بن كلاب على كنانة وخزاعة، حيث أخرج القبيلتين من مكة وجعلها وقفاً لقريش، ولا ريب أن نفراً من أهل مكة لم يتقبلوا فِعل عمرو بن لحي بسهولة، وكانوا معارضين ضمنياً للفكرة، فالمسألة تغيير عقيدة ومنهج، فلم يكن بالأمر السهل عليهم، لكنهم لم يتحركوا ولم يعارضوا تبديل دينهم الذي كانوا عليه حتى تلك اللحظة (الحنيفية)، فلم يلقَ عمرو قمعاً ولا مصادرة رأي، فهو السلطة نفسها، بل إنه هو الذي صادر رأي المجتمع

---

[٣٦] سيد مكة، وهو أبو خزاعة، الذي أصبح أبناؤه القبيلة المعروفة، ويخطئ من ينسب عَمراً إلى خزاعة، وإنما هو أبو القبيلة كلها ومؤسس حكمها في مكة، الذي استمر ثلاثمئة عام.

وقمعُه يلوح للعيون الخائفة، فلم يعرّض أهلُ مكة أنفسهم لقمعه. وليس بمستغرب أنه بعد استعادة قصي بن كلاب[٣٧] وقبيلة قريش السيطرة على حكم مكة أنهم لم يكسروا الأصنام أو يمنعوا عبادتها، وإنما استمروا عليها وعلى تقديسها، إذ مرت ثلاثة قرون بين قصي بن كلاب وعمرو بن لحي، الذي بدل دين أمة بأكملها، فتأصلت عبادة الأصنام في النفوس وتلقتها الأجيال وتوارثتها، وأصبحت الحنيفية في الأحاديث التي تروى كما تروى قصة فداء إسماعيل عليه السلام وبناء البيت، وإن تمسك بها قلة فهم طفرات في مجتمعاتهم، وآخر من ذُكر منهم زهير بن أبي سلمى المزني[٣٨]، وقيل عنترة العبسي[٣٩]، وفي مكة زيد بن عمرو بن نفيل، فصار لكل قبيلة من قبائل العرب صنمها الخاص، وبات ذلك معتاداً ومن المسلّمات، مع أن الدين الذي جاء به عمرو بن لحي لم يُلغِ عبادة الله أو الإيمان به عز وجل، وإنما أدخل الأصنام في الحنيفية إشراكاً به سبحانه، وفي ذلك قالت قريش: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[٤٠].

---

[٣٧] قصي لقبه، واسمه زيد، بعد وفاة أبيه تزوجت أمه ربيعة بن حرام القضاعي وانتقلت معه إلى الشام، وبعد أن شب قدم مكة وحاز على سدانة الكعبة. ثم حشد قريشا وقضاعة على حرب خزاعة، فلما كثر القتل بينهم حكموا عمر بن عوف فحكم بإسقاط الدماء ونقل ولاية البيت إلى قصي، فاجتمعت له سدانة الكعبة والرفادة والسقاية. فأعاد بناء الكعبة وبنى دار الندوة.

[٣٨] شاعر جاهلي، حكيم، له معلقة مشهورة تضمنت أبياتا يتداولها الناس بمثابة الحكم والأمثال، كما تضمنت نظرات فلسفية تنبع من إيمانه وديانته الحنيفية على ملة نبي الله إبراهيم عليه السلام. وله ديوان شعر محفوظ.

[٣٩] عنترة بن شداد العبسي، فارس وشاعر مولد، أمه حبشية اسمها زبيبة، ظهرت بطولاته في حرب داحس والغبراء التي قامت بين قبيلته عبس وقبيلة ذبيان واستمرت أربعين عاما، له معلقة وصف فيها بعض المعارك، وله ديوان شعر.

[٤٠] الزمر، ٣.

ففي هذا المقام برز القمع المذموم الذي تملكه السلطة السيادية، وإن لم تمارسه، فقد كان حاضراً في الأذهان يعرف من يفكر بالاعتراض عليه أنه سيكشر عن أنيابه عند أول بادرة، كما افتُقد القمع المحمود الذي كان يفترض أن يمارسه المجتمع المكي ضد سيدها الذي غيّر دينها، وبتغييره تغير دين معظم قبائل العرب وتحولوا إلى عبادة الحجر والخشب، فهيمن الاستبداد وظهر على الصمت ليخلفه التسليم بمقتضياته أجيالاً.

## قمع النصارى بنجران (أصحاب الأخدود)

دخلت النصرانية نجران على يد راهب من بقايا أهل دين عيسى بن مريم عليهما السلام، يقال له «فيميون»، وكان رجلاً صالحاً مجتهداً زاهداً في الدنيا، مجاب الدعوة، وكان سائحاً ينزل بين القرى، فكلما اشتهر في قرية خرج منها إلى قرية لا يُعرف بها، حتى بلغ بعض أرض العرب ومعه رجل اسمه صالح، اتبعه على دينه، فعدا عليهما سيارة من العرب فاختطفوهما وباعوهما بنجران، فابتاع فيميون رجل من أشرافهم، وابتاع صالحاً آخر، وكانا في قرية من قرى نجران، وكان أهل القرية وثنيين يعبدون نخلة طويلة، جعلوا لها عيداً في كل سنة. فكان الراهب فيميون إذا قام من الليل يتهجد في غرفته أضاء له البيتُ نوراً من غير مصباح حتى يطلع الصبح، فرأى ذلك سيده، فأعجبه ما يرى منه، فسأله عن دينه، فأخبره به، وقال له: إنما أنتم في باطل، إن هذه النخلة لا تضر ولا تنفع، ولو دعوتُ عليها إلهي الذي أعبده لأهلكها، وهو الله وحده لا شريك له.

فقال له سيده: فافعل، فإنك إن فعلت دخلنا في دينك وتركنا ما نحن عليه. فقام الراهب فتطهر وصلى ركعتين، ثم دعا الله، فأرسل عليها ريحاً فجعفتها من أصلها فألقتها. فاتبعه عند ذلك أهل القرية على دينه، فحملهم على الشريعة من دين عيسى بن مريم عليهما السلام. وكان حول نجران قرى، ونجران المدينة العظمى التي إليها جماع أهل تلك البلاد، وكان في إحدى تلك القرى ساحر يعمل عند الملك، فابتنى الراهب خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي بها الساحر[٤١].

أما بقية القصة فوردت في حديث للنبي ﷺ بدون ذكر أسماء، فقال: ﴿كانَ مَلِكٌ فِيمَن كانَ قَبْلَكُمْ، وَكانَ له سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قالَ لِلْمَلِكِ: إنِّي قدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكانَ في طَرِيقِهِ، إذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فأعْجَبَهُ فَكانَ إذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذلكَ إلى الرَّاهِبِ، فَقالَ: إذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وإذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبيْنَما هو كَذلكَ إذْ أَتَى علَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقالَ: اليومَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فأخَذَ حَجَرًا، فَقالَ: اللَّهُمَّ إنْ كانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إلَيْكَ مِن أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هذِه الدَّابَّةَ، حتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فأتَى الرَّاهِبَ فأخْبَرَهُ، فَقالَ له الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ اليومَ أَفْضَلُ مِنِّي، قدْ بَلَغَ مِن أَمْرِكَ ما أَرَى، وإنَّكَ

---

[٤١] سيرة ابن هشام، ص٣٢، بتصرف.

سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فلا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكانَ الغُلَامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِن سَائِرِ الأدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كانَ قدْ عَمِيَ، فأتَاهُ بهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقالَ: ما هَاهُنَا لكَ أَجْمَعُ، إنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقالَ: إنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا إنَّما يَشْفِي اللَّهُ، فإنْ أَنْتَ آمَنْتَ باللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ باللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ، فأتَى المَلِكَ فَجَلَسَ إلَيْهِ كما كانَ يَجْلِسُ، فَقالَ له المَلِكُ: مَن رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قالَ: رَبِّي، قالَ: وَلَكَ رَبٌّ غيرِي؟ قالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فأخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حتَّى دَلَّ علَى الغُلَامِ، فَجِيءَ بالغُلَامِ، فَقالَ له المَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قدْ بَلَغَ مِن سِحْرِكَ ما تُبْرِئُ الأكْمَهَ وَالأبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقالَ: إنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا، إنَّما يَشْفِي اللَّهُ، فأخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حتَّى دَلَّ علَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بالرَّاهِبِ، فقِيلَ له: ارْجِعْ عن دِينِكَ، فأبَى، فَدَعَا بالمِئْشَارِ، فَوَضَعَ المِئْشَارَ في مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بجَلِيسِ المَلِكِ فقِيلَ له: ارْجِعْ عن دِينِكَ، فأبَى فَوَضَعَ المِئْشَارَ في مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ به حتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بالغُلَامِ فقِيلَ له ارْجِعْ عن دِينِكَ، فأبَى فَدَفَعَهُ إلى نَفَرٍ مِن أَصْحَابِهِ، فَقالَ: اذْهَبُوا به إلى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا به الجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فإنْ رَجَعَ عن دِينِهِ، وإلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا به فَصَعِدُوا به الجَبَلَ، فَقالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بما شِئْتَ، فَرَجَفَ بهِمِ الجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إلى المَلِكِ، فَقالَ له المَلِكُ: ما فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ، فَدَفَعَهُ إلى نَفَرٍ مِن أَصْحَابِهِ، فَقالَ: اذْهَبُوا به فَاحْمِلُوهُ في قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا به البَحْرَ، فإنْ رَجَعَ عن دِينِهِ وإلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا به، فَقالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بما

شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بهِمِ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إلى المَلِكِ، فَقالَ له المَلِكُ: ما فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ، فَقالَ لِلْمَلِكِ: إنَّكَ لَسْتَ بقَاتِلِي حتَّى تَفْعَلَ ما آمُرُكَ به، قالَ: وَما هُوَ؟ قالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي علَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِن كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ في كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: باسْمِ اللهِ رَبِّ الغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فإنَّكَ إذَا فَعَلْتَ ذلكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمع النَّاسَ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ علَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِن كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ في كَبْدِ القَوْسِ، ثُمَّ قالَ: باسْمِ اللهِ، رَبِّ الغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ في صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ في صُدْغِهِ في مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقالَ النَّاسُ: آمَنَّا برَبِّ الغُلَامِ، آمَنَّا برَبِّ الغُلَامِ، آمَنَّا برَبِّ الغُلَامِ، فَأُتِيَ المَلِكُ فقِيلَ له: أَرَأَيْتَ ما كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بكَ حَذَرُكَ، قدْ آمَنَ النَّاسُ، فأمَرَ بالأُخْدُودِ في أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقالَ: مَن لَمْ يَرْجِعْ عن دِينِهِ فأحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قيلَ له: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمعهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقالَ لَهَا الغُلَامُ: يا أُمَّهْ، اصْبِرِي فإنَّكِ علَى الحَقِّ.[٤٢]

وفي هؤلاء نزل قول الله تعالى في سورة البروج: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ

---

[٤٢] صحيح مسلم، رقم ٣٠٠٥.

فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[٤٣].

# حلف الفضول (القمع المحمود)

جاء رجل من زبيد في تجارة إلى مكة، فاشتراها منه العاص بن وائل، وكان سيداً من سادات قريش، فحبس حقه عنه، فقام الزبيدي يستنهض الأحلاف عليه، وهم مخزوم وسهم وعبد الدار وجمح وعدي، فأبوا إعانته على العاص ونهروه، فصعد جبل أبي قبيس بمكة عند طلوع الشمس وقبيلة قريش في ندوتهم فنادى بأعلى صوته:

يا لَلرّجالِ لمظلومٍ بضاعَتَهُ ببطنِ مكّةَ نائي الدّارِ والنَّفَرِ
وَمُحرِمٍ أشعثٍ لم يقضِ عُمرَتَهُ يا لَلرّجالِ وبَينَ الحُجْرِ والحَجَرِ
إنّ الحرامَ لِمَن تمَّتْ كَرامتُه ولا حرامَ لثوبِ الفاجرِ الغُدَرِ

فنهض الزبير بن عبد المطلب، فقال: «ما لهذا منزل»! ودعا إلى الحلف، فاجتمع بنو هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان التيمي القرشي، وكان سيد قريش، فصنع لهم طعاماً، وتحالفوا فتعاقدوا وتعاهدوا بالله «ليكونُنَّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ما بل بحر صوفة وما رسا حراء وثبير مكانهما، وعلى التأسي في المعاش». ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه.

---

[٤٣] البروج، الآيات ٤ إلى ١٠.

فسمت قريش ذلك الحلف «حلف الفضول» وقالوا: «لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر»! وقيل لأن عدداً من المتعاقدين كانت أسماؤهم «الفضل»، والقول الأول هو الصواب، وقد قال الزبير بن عبد المطلب:

حَلفتُ لَنَعْقِدنْ حِلفاً عليهم وإنْ كنّا جميعاً أهلَ دارِ
نُسَمّيهِ الفُضولَ إذا عَقَدْنا يُعَزُّ بهِ الغَريبُ لَدى الجِوارِ
يُعِزُّ به الغريبَ لدى الجِوارِ أباةُ الضَّيْمِ نَمْنَعُ كلَّ عارِ

وقال أيضاً:

إن الفُضولَ تحالَفوا وَتَعاقَدوا ألّا يُقيمَ ببطنِ مكّةَ ظالمُ
أمْرٌ عليهِ تَعاهدوا وتَواثقوا فالجارُ والمُعْتَرُّ فيهم سالمُ

وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة ٥٩٠ ميلادية، وكان النبي ﷺ شاباً وقتها يبلغ من العمر نحواً من عشرين عاماً، فشهد الحلف ودخل فيه مع أعمامه بني عبد المطلب[٤٤]. وقال بعد أن بعثه الله نبياً: ﴿لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان، ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت﴾[٤٥].

ولو لم يقم هذا الحلف لِقمع العاص بن وائل ورد ظلمه وتهديده بإخراجه من مكة بالقوة إن لم يؤد حق الغريب المظلوم لكان بداية لسلسلة مظالم لا

---

٤٤ البداية والنهاية، لابن كثير، ج٢.

٤٥ سيرة ابن هشام، وعزاه موقع «الدرر السنية» برواية مقاربة إلى كتاب البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، لابن الملقن، حديث، تخريج أحاديث مصنف معين، ح ٨ – ٩.

تنتهي، فجاء هذا الحلف لقمع الظالم ونصرة المظلوم، وهو قمع محمود بلا ريب، ولم يعترض أحد من قريش على ذلك الحلف أو مضمونه.

وقد بقي النبي محمد ﷺ ملزماً نفسه تبعات هذا الحلف حتى بعد بعثته ومعاداة قريش له ولدعوته واستضعافهم له، فقد قدم رجل من «إراش» بإبل له إلى مكة، فابتاعها منه أبو جهل بن هشام، فمطله بأثمانها، فأقبل الأراشي حتى وقف على نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في ناحية المسجد، فقال: يا معشر قريش! مَنْ رجل يعديني على أبي الحكم بن هشام، فإني غريب وابن سبيل، وقد غلبني على حقي فأشار أهل المجلس إلى رسول الله ﷺ وقالوا: أترى ذلك - يهزؤون به لما يعلمون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة - اذهب إليه فهو يعديك عليه.

فأقبل الأراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له، فقام معه.

فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم: اتبعه فانظر ما يصنع؟

فخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه فضرب عليه بابه، فخرج إليه وما في وجهه قطرة دم، وقد امتقع لونه. فقال له النبي ﷺ: «أعط هذا الرجل حقه». فقال أبو جهل: لا تبرح حتى أعطيه الذي له. فدخل وخرج إليه بحقه فدفعه إليه، ثم انصرف رسول الله ﷺ وقال للأراشي: الحق لشأنك.

فأقبل الأراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال: جزاه الله خيراً، فقد أخذت الذي لي. وجاء الرجل الذي بعثوا وراءه فقالوا: ويحك ماذا رأيت؟

قال: عجباً من العجب، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج وما معه روحه فقال: أعط هذا الرجل حقه. فقال: نعم! لا تبرح حتى أخرج إليه حقه، فدخل فأخرج إليه حقه فأعطاه إياه.

ثم لم يلبث أن جاء أبو جهل فقالوا له: ويلك ما لك؟ فوالله ما رأينا مثل ما صنعت؟

فقال: وَيْحَكم! والله ما هو إلا أن ضرب عليّ بابي وسمعت صوته فمُلِئت رعباً، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لَفَحْلا ًمن الإبل ما رأيت مثل هامته، ولا قصرته ولا أنيابه لِفحلٍ قطُّ، فوالله لو أبيت لأكلني![٤٦]

# قمع الذين اعتزلوا عبادة الأصنام

كان زيد بن عمرو بن نفيل (الذي ذكرناه ممن كانوا يحيون الموؤودات)، وورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث، وعبيد الله بن جحش، حضروا قريشاً عند وثنٍ لهم كانوا يذبحون عنده في عيد من أعيادهم، فلما اجتمعوا خلا أولئك النفر بعضهم إلى بعض وقالوا: تَصادقوا ولْيَكْتُم بعضُكم على بعض، فقال لهم ورقة: تعلمون والله ما قومكم على دين، ولقد أخطؤوا المحجة وتركوا دين إبراهيم، ما حجر تطيفون به، لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر؟ يا قوم، التمسوا لأنفسكم الدين. فخرجوا عند ذلك يضربون

---

٤٦ سيرة ابن هشام، ج١، ص٣٨٩.

في الأرض، يسألون عن «الحنيفية» دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند أهل كتاب من اليهود والنصارى، والملل كلها.

ونقف عند قولهم: «تَصادقوا ولْيَكْتُم بعضُكم على بعض» لنعلم أن هناك قمعاً اجتماعياً ينتظرهم إذا جاهروا برأيهم، لذا اشترطوا على بعضهم التصادق للثقة، والكتمان للأمن.

فأما ورقة بن نوفل فتنصّر واستحكم في النصرانية، وابتغى الكتب من أهلها، حتى علم علماً كثيراً من أهل الكتاب. إلا أن ورقة اكتفى بتدينه فلم يعترض على عبادة قريش للأوثان، ولم يعب عليهم شركهم وضلالهم، وكذلك لم يدعُ أحدا ليدخل في دينه الذي دخله، فعاش في حياد تام مع أهل مكة، لم يزعجهم ولم يزعجوه، وكانوا يرجعون إلى حكمته أو علمه في بعض الأمور فيسألونه ويستشيرونه. لذا لم يعان من القمع كغيره، وبقي كذلك حتى مات في أوائل بعثة النبي ﷺ، وقد آمن به وقال له: «والذي نفسُ ورقةَ بيدِه إنّهُ ليأتيك النّامُوسُ الّذِي نَزَّلَ اللّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعاً، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيّاً إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ». فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «أَو َمُخْرِجِيَّ هُمْ»؟ قَالَ: «نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلّا عُودِيَ، وإنكَ لَنَبِيُّ هذه الأمّة، ولتؤذَينَّ، ولتُكَذَّبَنَّ، ولتُقاتَلَنَّ، ولَتُنْصَرَنَّ، ولَئِنْ أنا أدركتُ ذلك لأنصُرَنَّكَ نَصراً يعلمُهُ اللهُ»[٤٧].

---

٤٧ السيرة النبوية، لابن إسحق، ج١، ص٣٩.

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى بعث الله نبيه محمداً ﷺ بالإسلام، فكان هو وأخوه عبد الله من أوائل المسلمين، وذلك قبل دخول النبي وأصحابه دار الأرقم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، وقيل إنه ارتد إلى النصرانية وأكب على الخمر ومات قبل عودة المسلمين من الحبشة، وقيل إنه لم يرتد ومات مسلماً، وخلفه النبي ﷺ على زوجته أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، رضي الله عنها، بعد عودتها من الحبشة. وإن صدقت رواية رِدّتهِ فمن الواضح أنه لم يواجه قمعاً من المسلمين الذين هاجروا معه إلى الحبشة، ولم يصدر في حقه قرار مقاطعة أو منابذة.

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فأراد الخروج، ولكن امرأته صفية بنت الحضرمي كلما أبصرته استعد للخروج أخبرت عمه الخطاب بن نفيل (والد الخليفة عمر رضي الله عنه)، فكان يمنعه ويضربه، فاعتزل الأوثان، وفارق الأديان، من اليهود والنصارى والملل كلها، إلا الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام، يوحد الله ويخلع من دونه، ولا يأكل ذبائح قومه، فكان يقول لقريش: «الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء ماء، وأنبت لها من الأرض، فلمَ تذبحونها على غير اسم الله»؟ إنكاراً لذلك واستعظاماً له. وكان إذا دخل الكعبة قال: «لبيك حقاً حقاً تعبداً ورقاً، عذت بما عاذ به إبراهيم وهو قائم إذ قال: إلهي! أنفي لك عان راغم، مهما تجشمني فإني جاشم، البر أبغي لا أنحال، ليس مهجر كمن قال». وكان يراقب الشمس، فإذا زالت استقبل الكعبة فصلى ركعة سجدتين، ثم يقول: هذه قبلة إبراهيم

وإسماعيل، لا أعبد حجراً، ولا أصلي له، ولا آكل ما ذبح له، ولا أستقسم الأزلام، وإنما أصلي إلى هذا البيت حتى أموت، وكان يحج فيقف بعرفة، وكان يلبي فيقول: «لبيك لا شريك لك ولا ند لك». ثم يدفع من عرفة ماشياً وهو يقول: لبيك متعبداً مرقوقاً. وكان يجلس مسنداً ظهره إلى الكعبة ويقول: «يا معشر قريش! والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري»، ثم يقول: «اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم، ثم يسجد على راحلته.

فلقي من الخطاب أذى كثيراً، حتى خرج إلى أعلى مكة، فوكل به الخطاب شباناً من قريش، وسفهاء من سفهائهم، فقال: لا تتركوه يدخل، فكان لا يدخل مكة إلا سراً منهم، فإذا علموا به أخرجوه وآذوه، كراهية أن يفسد عليهم دينهم، أو يتابعه أحد إلى ما هو عليه، حتى استطاع الخروج إلى الشام، فأتى راهباً ببيعة من أرض البلقاء، أخبروه أنه ينتهي إليه علم النصرانية، فسأله عن الحنيفية، فقال: إنك لتسأل عن دين ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، لقد درس من علمه وذهب من كان يعرفه، ولكن قد أظلك زمان نبي يخرج من بلدك، يبعث بدين الحنيفية. فلما قال له ذلك رجع يريد مكة، فغارت عليه لخيم فقتلوه، وكانت وفاته قبل أن ينزل الوحي على رسول الله ﷺ بخمس سنين. فقال ورقة بن نوفل يرثيه:

رَشَدتَ وأنْعمتَ، ابنَ عَمْرٍو، وإنما     تَجَنَّبتَ تَنّوراً من النّارِ حامِيا

بِدينِكَ رَبّاً ليسَ رَبٌّ كَمِثلِهِ     وتَرْكِكَ أوثانَ الطّواغي كما هِيا

وقَد تُدرِكُ الإنسانَ رحمةُ رَبِّهِ   ولو كانَ تحتَ الأرضِ سِتِّينَ واديا[٤٨]

وذُكِرَ شأنُه لِلنّبيِّ ﷺ فقال: ﴿يُحْشَرُ ذاك أمّةً وحدَهُ، بيني وبين عيسى بن مريم﴾[٤٩]. فكان المسلمون بعد ذلك لا يذكره ذاكر منهم إلا ترحم عليه واستغفر له.

وعند هذه القصة لنا أكثر من وقفة نستعرض فيها صوراً من مصادرة الرأي وأشكالاً من القمع في الجاهلية ضمن هذا المجتمع القبلي الصغير المتمثل بقبيلة قريش في مكة المكرمة.

كانت زوجته تمارس العمل الاستخباراتي ضده، فتنقل أخباره إلى المسؤول عنه أمام القبيلة «كلما أبصرته استعد للخروج أخبرت عمه الخطاب بن نفيل، فكان يمنعه ويضربه»، ولم يكن هدفها من ذلك إلا قمعه وإيقافه عن التقدم في فكرته، وليس أصعب على الداعية أو الثائر أو صاحب الفكرة من عداء أهل بيته له أو لفكرته، وخصوصاً الزوجة، التي يأمل بأن تكون له عوناً وردءاً، لا عميلة للضالين وعبئاً إضافياً عليه، كما فعلت امرأة زيد، ومن قبلها امرأتا نوح ولوط عليهما السلام**!**

وحين برز الرأي الصحيح المعارض للخطأ العام في أقواله وسلوكه: «الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء ماء، وأنبت لها من الأرض، فلمَ تذبحونها على غير اسم الله؟ ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري**!**

---

٤٨ البداية والنهاية، ج٢. وقد ذكر البخاري كثيرا مما ورد عنه في البداية والنهاية.

٤٩ السنن الكبرى، للنسائي، برقم ٨١٣١. والمعجم الكبير للطبراني، ج٤، ص٤٨٣.

لبيك لا شريك لك ولا ند لك» في حين كانت قريش تقول في تلبيتها: «لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك»، نهض عمه الخطاب لمصادرة هذا الرأي، ولا نشك في أن الخطاب كان يلقى من قريش تحريضاً عليه لقمعه ومنعه من المجاهرة بآرائه وبمعتقده ودحض شبهاتهم، كما حاولوا - في ما بعد - تحريض أبي طالب على النبي ﷺ، ولكن الخطاب لم يكن حصيفاً كأبي طالب، فاندفع يواجه الرأي المخالف بالقمع، وذلك الذي نلمسه في بقية القصة: «فكان يمنعه ويضربه»، «فلقي من الخطاب أذىً كثيراً». ولكن الأذى لم ينته ها هنا، وإنما بقيت هناك متابعة استخباراتية لمنعه من إيصال فكره إلى الناس ودحض شبهات قومه بحجته، «فوكل به الخطاب شباناً من قريش، وسفهاء من سفهائهم، فقال: لا تتركوه يدخل»! فكان لا يدخل مكة إلا سراً منهم، فإذا علموا به مارسوا القمع في وأد الفكرة المضيئة ومنع إشراقها في المجتمع «أخرجوه وآذوه»! كل ذلك سببه واحد هو «كراهية أن يفسد عليهم دينهم، أو يتابعه أحد إلى ما هو عليه». أما لماذا لم يتعرض إلى ما تعرض له النبي ﷺ وأصحابه من الأذى بعد البعثة، فذلك لأن الخطاب ومن يستخدمهم من السفهاء كفوا قريشاً أمره، ولو رفض الخطاب قمعه كما رفض أبو طالب قمع النبي ﷺ لاجتمعت عليه قريش وقمعته، وربما قتلته كما قتلت غيره في بداية الإسلام، وكما حاولت قتل النبي ﷺ! وهنا نجد تعاملاً سلبياً مع الفكرة، فظاهرة زيد لم تكن كظاهرة الصعاليك، فهو لم يهدد أمن أحد ولم

يسلبهم شيئاً ولم يحرض أحداً عليهم، فلم يسلَم كما سلِم ورقة بن نوفل «الصامت»، فلقي الأذى والضرب والنفي من أجل فكرته الصائبة في مواجهة ضلال اعتمد على العصبية في حماية ما توارثه المجتمع من أفكار لا تستند إلى عقل ولا إلى دين بدون حوار ولا تفكير ولا منطق، لأنهم لو حاجّوه لَحَجَّهُم، ولو حاوروه لطمس بحجته ضلالهم، فلم يكن أمامهم إلا القمع!

## القمع القيصري

وأما عثمان بن الحويرث فتنصّر، ثم صار إلى قيصر وحسنت منزلته عنده، فلما رأى أبهة الملك طمع في أن يصبح ملكاً على قريش، فذكر لقيصر مكة ورغّبه فيها، وقال: تكون زيادة في ملكك كما لكسرى صنعاء. فملّكه عليهم، وكتب إليهم بذلك، فلما قدم عليهم قال: يا قوم، إن قيصر مَنْ قد علمتم! وقد ملّكني عليكم، وإنما أنا ابن عمكم وأحدكم، وأخاف إن أبيتم ذلك أن يمتنع منكم الشام ومتجركم فيها، فخافوا قيصر، وأخذ بقلوبهم ما ذكر من متجرهم، فأجمعوا أن يعقدوا على رأسه التاج مساءً، وفارقوه على ذلك. فلما طافوا عشية بعث الله عليه ابن عمه أبان، ومعه الأسود بن المطلب بن أسد، فصاح على أحفل ما كانت قريش في الطواف: يا لَعبادِ الله، ملك بتهامة؟! وقال الأسود: إن قريشاً لقاح لا تُملك!

فانحاشوا انحياش حمر الوحش، ثم قالوا: صدق والله، ما كان بتهامة ملك قط. فانتقضت قريش عما كانت قالت له. فلحق بقيصر فأعلمه، فكتب إلى

عمرو بن جفنة أن لعثمان بن الحويرث أن يحبس من أراد حبسه من تجار قريش[٥٠]، وأن يسير معه بجيش إلى مكة فيملكه على أهلها[٥١]، فقدم على ابن جفنة، فوجد بالشام أبا أحيحة سعيد بن العاص وابن أخيه أبا ذئب، فحبسهما، فمات أبو ذئب في الحبس[٥٢]، وحين عزم ابن جفنة على إرسال الجيش كتبت إليه الأعراب تنهاه عن ذلك، لما رأوا من عظمة مكة وكيف فعل الله بأصحاب الفيل، فكسا عثمان بن الحويرث قميصاً مسموماً، فمات من سمه، وكانت وفاته قبل المبعث بثلاث سنين أو نحوها[٥٣].

ونلحظ في هذه الحادثة الاستبداد الذي تعامل به قيصر مع قوم ليسوا في سلطانه ولا تربطه بهم رابطة نسب أو دين أو حتى جغرافيا، فنصب عليهم ملكاً اختاره منهم دون مراجعة لهم، وكذلك يتضح الأسلوب القمعي الذي سلكه قيصر الروم حين رأى رفض قريش تمليك عثمان عليهم، فأمر بتوجيه جيش لقمعهم وإجبارهم على تقبل الملك الذي اختاره في شكل من أشكال الاحتلال التوسعي. كما نلاحظ أيضاً أن الجيش الذي أمر بتسييره كان من عرب الشام وليس ممن عنده من جند الروم، على مبدأ «فخار يكسر بعضه»! فلم يُضحِّ بجندي واحد في سبيل هذا التوسع في البلاد العربية، وإنما سخر العرب لتحقيق هدفه هو الذي لا مصلحة لهم فيه،

---

٥٠ تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر، ج٢١، ص٣٠١.
٥١ البداية والنهاية، لابن كثير، ج٢.
٥٢ تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر، ج٢١، ص٣٠٢.
٥٣ البداية والنهاية، لابن كثير، ج٢.

فأراد ضرب العرب بالعرب ليقطف هو الثمرة. وهذه السياسة قديمة عند الروم وليست وليدة العصر، حين توجهوا إلى ضرب المسلمين بالمسلمين لإسقاط الخلافة، ثم ضرب العرب بالعرب لإضعاف القوي واستنزاف أموال الغني.

## الموقف من دعوة الإسلام

حين بُعث محمد ﷺ نبياً في مكة لم يكن يجهل موقف قومه من دعوته مسبقاً، فقد أخبره بذلك ورقة بن نوفل حين أخبره بالوحي الذي نزل عليه، فقال له: «لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعاً، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيّاً إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ»![٥٤] لذلك عمد ﷺ إلى الدعوة سراً، فدعا صديقه أبا بكر رضي الله عنه فآمن، ودعا ابن عمه علياً، رضي الله عنه، فآمن، واستمرت الدعوة سرية يمارسها النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، حتى نزل على النبي ﷺ قول الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ﴾[٥٥] وقوله: ﴿يا أيُّها المُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾[٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِيْنَ﴾[٥٧] فصعد ﷺ الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر! يا بني عدي! حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فقال ﷺ: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدِّقِيَّ؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً.

---

[٥٤] صحيح البخاري، برقم ٦٩٨٢.
[٥٥] الحجر، ٩٤.
[٥٦] المدثر، ١-٢.
[٥٧] الشعراء، ٢١٤.

قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال عمه أبو لهب: تباً لك! ألهذا جمعتنا؟

وهنا انتهى الحوار، فانصرف الناس، فعم الرجل هو الذي أجاب، أجاب بالسخرية وقلة الاكتراث، فكيف بالبقية؟! واستمرت الدعوة سراً، ومن يسلم كان يكتم على نفسه، حتى اجتمعت قريش وراجعوا أمرهم، فقرروا أن يفعلوا كما فعلوا من قبل مع الخطاب بتسليطه على زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه، فيسلطوا أبا طالب على ابن أخيه.

## مطالبة الأهل بالقمع

اجتمع وجوه قريش إلى أبي طالب عم النبي ﷺ، فعرضوا عليه أن يقمع ابن أخيه ليترك دعوته، فلما أبى انتقلوا إلى أسلوب قمعي مغلف بالإنصاف، مما يمكن تسميته المضحك المبكي، فقالوا لأبي طالب أسلم لنا محمداً نقتله واختر من شئت من أبنائنا عوضاً منه تتخذه ولداً! حوار في منتهى السفاهة، ومن العجب أنهم لم يستحيوا من طرحه وهم الذين يعدون حكماء قريش! فقال لهم أبو طالب: والله ما أنصفتموني يا قوم! أأعطيكم ابني لتقتلوه وتعطونني ابنكم لأغذوه؟! لا والله هذا لا يكون أبداً.

فلما أبى وأكد لهم أن ابن أخيه ماض في دعوته وأنه سيحميه، انتقلوا إلى التهديد بالقمع وترحيل بني هاشم من مكة إذا وقفوا إلى جانب ابنهم محمد ﷺ ولم يسلموه لعابدي الأصنام ليقتلوه أو يكمموا فاه، فجمع أبو طالب بني هاشم عند البيت الحرام بسلاحهم، احتجاجاً على وعيد قريش وإشارة إلى

استعدادهم للقتال ذوداً عنه ﷺ، فأجابهم بالقصيدة اللامية التي تعد من روائع الشعر، ومنها:

ولما رأيت القوم لا ود عندهم وقد قطعوا كل العرى والوسائلِ
وقد صارحونا بالعداوة والأذى وقد طاوعوا أمر العدو المزايلِ
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً عقوبة شر عاجل غير آجلِ
وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأراملِ
يلوذ به الهُلّاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضلِ
وأحضرت عند البيت رهطي وإخوتي وأمسكت من أثوابه بالوصائلِ
قياماً معاً مستقبلين رتاجه لدى حيث يقضي نسكه كل نافلِ
أعوذ برب الناس من كل طاعن علينا بسوء أو ملحٍّ بباطلِ
كذبتم وبيت الله نترك مكة ونظعن إلا أمركم في بلابلِ
كذبتم وبيت الله نبرى محمداً ولما نطاعن دونه ونناضلِ
ونسلمه حتى نُصرَّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائلِ
وينهض قوم بالحديد إليكمُ نهوض الروايا تحت ذات الصلاصلِ
وحتى يرى ذا الضغن يركب ردعه من الطعن فعل الأنكب المتحاملِ
وإني لعمر الله إن جد ما أرى لَتلتبسنْ أسيافنا بالأماثلِ

وهنا انتهى حوار قريش مع أبي طالب، وحين رأوا أنهم لن يستطيعوا استخدام القمع، لأن عشيرته تبسط حمايتها عليه، وفي الوقت نفسه لا يستطيعون السكوت عنه ودعوته مستمرة بالنمو، وأبناؤهم الشبان يدخلون

في دينه تباعاً، بل تجاوز الأمر حتى دخل مواليهم من الغرباء كآل ياسر وصهيب، وعبيدهم كبلال بن رباح، رضي الله عنهم أجمعين، فبدا لهم أن الأمر وراءه مطلب دنيوي تعز فيه بنو هاشم على بقية بطون قريش، فاقترحوا اللجوء إلى الحوار للحفاظ على كيان القبيلة وكي لا تكون عليهم سبة بين العرب، فلا بد من محاورة النبي ﷺ مباشرة.

## مفاوضة النبي ﷺ

يئست قريش من تسليط القمع الأسري على النبي ﷺ فلجؤوا إلى مفاوضته، لعلهم يستميلونه ويغرونه فيترك الدعوة إلى الله، فانتدبوا رجلاً واعياً ذا عقل وحكمة لمحاورته نيابة عنهم، فجاء عتبة بن ربيعة حتى جلس إليه، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطةِ في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفّهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. فقال ﷺ: قل يا أبا الوليد، أسمع. قال: يا بن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك

طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

فلما فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال: أفعل. فقرأ عليه النبي ﷺ سورة «فُصِّلَتْ»، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما في استرخاء مستمتعاً بما يسمع معجباً به، ثم قال ﷺ: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به! فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكُه ملكُكُم، وعزُّه عزُّكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[٥٨]. وكان رأيه منطقياً ينم عن حكمة وبعد نظر، لكنهم أبوا إلا مصادرة الرأي وقالوا: «لا ندعه». ولعتبة موقف آخر مشابه يوم معركة بدر، فحين جاءهم خبر نجاة قافلة أبي سفيان قال لهم عتبة: يا قوم،

---

[٥٨] الرحيق المختوم، الدعوة جهاراً.

اعصبوها برأسي وقولوا جَبُن عتبة، ولنرجع إلى مكة وندعهم[٥٩]، فأبوا عليه ذلك.

# بـوادر الـقـمـع

## الأذى والتعذيب:

بعد أن يئست قريش من انصياع بني هاشم لمطالبهم انصرفوا إلى إيذاء النبي ﷺ والمستضعفين من أصحابه، فكان أمية بن خلف يمدد بلالاً شبه عارٍ على الرمل في الرمضاء ويضع عليه صخرة ثقيلة ويجلده، وبلال يقول: «أَحَدٌ أَحَد»، وأخذ أبو جهل يعذب آل ياسر رضي الله عنهم، ثم طعن سمية أمام زوجها ياسر وابنها عمار، ثم أجهز على ياسر، وابنه عمار ينظر ويسمع! وأخذ كل من المشركين يعذب أتباعه ومواليه وعبيده، ولم يسلم رسول الله ﷺ من الأذى، فكان عمه أبو لهب وزوجته أم قبيح يواصلان أذاه، في حين يترصده أبو جهل حين يصلي ليلقي عليه الأوساخ، ومرة خنقه بثوبه حتى كاد يقتله، إلى أن جاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه فدفعه عنه، واستمر ذلك حتى أسلم حمزة وضرب أبا جهل فشجه، فأوقفه عند حده. واشترى أبو بكر الصديق بلالاً رضي الله عنهما فأعتقه، فخلصه مما يلاقي، كما اشترى عدداً من العبيد والإماء المسلمين والمسلمات المملوكين لتخليصهم من القمع الواقع عليهم، وأعتقهم جميعاً،

---

[٥٩] سير أعلام النبلاء - للذهبي، ج١، ص٣٥٨.

ومنهم: عامر بن فهيرة، وأم عبيس، والنهدية وابنتها، وجارية بني مؤمل، وزنيرة، التي أصيب بصرها حين أعتقها، فقالت قريش: «ما أذهب بصرَها إلا اللات والعزى»، فقالت: «كذبوا، وبيت الله ما تضر اللات والعزى وما تنفعان»، فرد الله إليها بصرها[٦٠].

## التكذيب وتشويه السمعة:

كان النبي ﷺ يلقى الغرباء القادمين إلى مكة معتمرين أو تجاراً فيدعوهم إلى الإسلام، كما كان يلقى وفود الحجاج من القبائل فيدعوهم، وكان سادة قريش يقفون على مداخل مكة يشترطون على من يدخلها ألا يستمع له ﷺ، فيصفونه لهم بالشاعر وبالمجنون وبالساحر، في مصادرة للرأي وفرض رؤيتهم على الوافدين، ومنهم الطفيل بن عمرو الدوسي، الذي اشترطوا عليه أن يسد أذنيه بالقطن لئلا يصل كلام محمد ﷺ إليه، لكنه بعد الموافقة ودخوله مكة قال في نفسه: لماذا أعير عقلي غيري؟ فسمع من النبي ﷺ فأسلم، ثم أسلمت على يده قبيلة «دوس» في ما بعد، وتبعتها قبيلتا «أسلم» و«غفار»[٦١]. وبينما كان النبي ﷺ يعرض نفسه على وفود الحجيج في عرفة وفي سوق عكاظ ويدعوهم إلى الإسلام حتى يكادوا يتبعونه، يخرج أبو لهب أمامهم ليقول لهم: «أنا عبد العزى بن عبد المطلب، وهذا محمد

---

[٦٠] الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، ج٧، ص٦٦٤.
[٦١] السيرة النبوية، لابن هشام، ج١، ص٣٨٢.

ابن أخي، وهو كذاب فلا تصدقوه! فيتراجعون قائلين: «أهل الرجل أعلم به».

## القمع الجماعي:

لم يتراجع أصحاب محمد ﷺ عن دينهم، وثبتوا على إيمانهم على رغم كل أشكال التعذيب والتنكيل، ومنهم من مات وهو يقول «لا إله إلا الله»، كياسر وزوجته سمية، رضي الله عنهما، ومع ذلك فأتباع الإسلام يزيدون، فرأى المشركون أنه لا بد من قمع جماعي يشمل كل بني هاشم، ليضطروهم إلى تسليم محمد ﷺ لهم، فاتفقوا على حصارهم في شعب أبي طالب، ومقاطعتهم والتضييق الاقتصادي عليهم، وكتبوا في ذلك صحيفة عقدوا فيها اتفاقهم بأن يحاصروا بني هاشم فلا يبيعونهم شيئاً ولا يشترون منهم ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم، وعلقوا الصحيفة في الكعبة المشرفة! واستمروا في هذه المقاطعة ثلاث سنين، اضطر خلالها بنو هاشم والمسلمون معهم إلى أكل ورق الشجر والعشب، حتى نقض الصحيفة أبو البختري والمطعم بن عدي وآخرون، لما رأوا فيها من ظلم وقطيعة رحم.

# القمع عند ثقيف

لم يتوقف القمع عند حدود قبيلة قريش، فقد كان سمة لقيادات المجتمع في تلك الفترة، فبعد أن ضاق النبي ﷺ ذرعاً بأذى قومه ومنابذتهم له ولأصحابه، وانغلاق عقولهم عن الإيمان، ذهب إلى الطائف يدعو قبيلة

ثقيف إلى الإسلام وترك عبادة الأحجار، لكنهم لم يكونوا نعم المضيف ولا المجير، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار، فردوه رداً قبيحاً، وأغروا سفهاءهم به فرجموه بالحجارة حتى خرج من الطائف. فلما عاد إلى مكة وجد عتاة مجرميها على مدخلها ينتظرونه ليمنعوه دخولها، لأنه – في اعتقادهم – ذهب يستنصر ثقيفاً عليهم. فأرسل ﷺ رجلاً من خزاعة إلى المطعم بن عدي يستجير به، فأجاره وجاء بأهله وعليهم لباس الحرب، وأدخل النبي ﷺ مكة في حمايته.

## القمع الكُبّار (القتل)

وبما أن آخر العلاج البتر، وقد باءت بالفشل كل محاولات المشركين مصادرة الرأي وتكميم فم النبي ﷺ أو ثنيه عن الجهر برأيه ودعوته، سواء بالإغراء أو التهديد أم بالحصار والتضييق، وقد مات أبو طالب الرجل الذي كان يحمي النبي ﷺ، وماتت المرأة العظيمة التي كانت له سنداً وردءاً السيدة خديجة رضي الله عنها، استقر رأي سادة مكة على اتخاذ أعظم خطوة قمعية لوأد هذه الدعوة وإسكات الرأي المخالف إلى الأبد، وذلك بقتل الداعية نفسه ﷺ، ولكي يضمنوا عدم مطالبة بني هاشم بثأره رأوا أن يفرقوا دمه بين القبائل، فيأخذوا أربعين شاباً، كل شاب من قبيلة، ليشتركوا في هذه الجريمة البشعة، ولن يستطيع بنو هاشم مقاتلة كل القبائل، وبذلك يضطرون إلى القبول بالدية. لكن النبي ﷺ هاجر ففاتهم.

## محاولة القتل خلال رحلة الهجرة

بعد أن خاب المشركون وفشلت خطتهم لقتله ﷺ لم ييأسوا ولم يتراجعوا، فعلى رغم أن هدفهم الأول كان إخراجه ﷺ من مكة لإبعاد دعوته عن المجتمع المكي، وقد خرج الآن من مكة وذهب في حال سبيله وتحققت رغبتهم تلك، فإن نزعة القمع الثائرة في نفوسهم لم تتوقف، فبذلوا جائزة لمن يأتيهم به ﷺ حياً أو ميتاً، تمثلت بمئة ناقة، وهي ثروة في ذلك الوقت، فخرج الفرسان يتجولون في حدود مكة طمعاً بالجائزة، إلا أن النبي ﷺ نجا ووصل إلى المدينة المنورة بسلام.

## محاولة القتل بعد الهجرة

لم تتوقف رغبة مشركي قريش في قمع هذه الدعوة العظيمة حتى بعد هجرة النبي ﷺ واستقراره في المدينة المنورة وإقامته مجتمعاً مسلماً فيها يشكل نواة لدولة عظيمة مقبلة، وازداد حقدهم وإصرارهم على القمع بعد معركة بدر وقتل نخبة المجتمع المكي فيها، فتآمر صفوان بن أمية مع ابن عمه عمير بن وهب، على أن يذهب عمير إلى المدينة المنورة بحجة استنقاذ ابنه الذي أسر في معركة بدر، ومعه سيف مسموم يقتل به النبي ﷺ. ومقابل ذلك يسدد صفوان ديونه ويتحمل النفقة على عياله إذا قُتل.

لكن عميراً حين وصل إلى المدينة فاجأه النبي ﷺ بذكر ما جرى بينه وبين صفوان، والموضع الذي كانا فيه، والاتفاق الذي عقداه، والسيف المسموم،

وكان ذلك بوحي من الله سبحانه، وهنا أسلم عمير وحبط مشروع المشركين القمعي.[٦٢]

# القمع الكسروي

بعد أن عقد النبي ﷺ صلح الحديبية مع مشركي مكة تفرغ لإبلاغ رسالة ربه، وذلك بدعوة الشعوب الأخرى غير العربية إلى دين الله، فوجه رسائل إلى الملوك يدعوهم ويبين لهم أن عليهم إثم شعوبهم إذا لم يبلغوهم هذه الدعوة. فأرسل إلى قيصر عظيم الروم، وإلى كسرى عظيم الفرس، وإلى المقوقس عظيم القبط. فلما وصلت الرسالة إلى كسرى أخذها ومزقها ورمى بها وقال: «عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي» إشارة إلى ما كتبه النبي ﷺ في قوله: «من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس»، ولم يكتف بذلك، وإنما قال لحامل الرسالة عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه: «لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتك». وأرسل إلى باذان عامله على اليمن في صنعاء، التي كانت تحت حكم الفرس، قال له فيها: «ابعث برجلين جلدين إلى الحجاز فليأتياني بهذا الرجل». وعاد عبد الله بن حذافة ليخبر النبي ﷺ بفعل كسرى، فقال ﷺ: «مزق الله ملكه».

فلما قدم الرجلان اللذان أرسلهما باذان إلى المدينة المنورة ودخلا على النبي ﷺ قالا له: يا محمد إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى كتب إلى الملك

[٦٢] سير أعلام النبلاء، للذهبي، ص ٤٥٦.

باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وبعثنا إليك لتنطلق. فأمرهما النبي ﷺ أن يلبثا إلى الغد فيلاقياه. وفي تلك الليلة قام شيرويه بن كسرى بثورة على أبيه فقتله وأخذ الملك لنفسه، فأوحى الله سبحانه إلى نبيه ﷺ بخبر هذه الثورة وهلاك كسرى، فلما جاء الرجلان في الصباح قال لهما: «اذهبا إلى ربكما - يعني الملك باذان - فأخبراه أن ربي قد قتل ربه الليلة، وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهي إلى منتهى الخف والحافر، وقولا له إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك وملّكتك على قومك»، فخرجا، فقدما على باذان فأخبراه، فقال: ننتظر، فإن صدق اتبعناه. فلما جاء الخبر من المدائن بتصديق ما قاله النبي ﷺ أسلم باذان ومن معه، فأسلم أهل اليمن[٦٣].

ومبدأ القمع الذي انتهجه كسرى في هذه الحادثة لا يخفى ولا يحتاج إلى شرح أو توضيح.

وفي ختام هذا المبحث نخلص إلى أن القمع كان قبل الإسلام ظاهرة تلازم معظم المتمكنين منها، سواء أكانوا ملوكاً ككسرى، أو مجتمعاً قبلياً كأهل مكة وأهل الطائف، ومصادرة الرأي سمة عامة للمجتمع يأبى قبول الرأي المخالف، بل ويكمم الأفواه ويعذب ويحاصر ويؤذي ويقتل أصحابه.

---

[٦٣] البداية والنهاية، لابن كثير، ج٤.

# مصادرة الرأي في الإسلام

# الاستقلال السلطوي

كان الإسلام في العهد المكي مقموعاً يتسلط عليه الصغير والكبير، لذلك كان همه حماية نفسه ونبيه ﷺ وأتباعه رضي الله عنهم من القمع، ولم تتح له الفرصة ليتضح توجّهه أهو قمعي ومصادر للآراء أم لا؟ فقد كانت السلطة في مكة أقوى منه ومن أهله، لكن بعد الهجرة واستقلال الإسلام وقيام دولته نشأت في ظلها سلطة مستقلة، على رأسها نبي يتلقى الوحي من السماء، ويبن لهم ما اختلفوا فيه. ولأنه كان أقوى من الجماعتين الموجودتين في المدينة المنورة (اليهود والمنافقين)، بات آمناً من أن يمارس عليه القمع، فهو السلطة المهيمنة والقوة المنيعة، وأصبح بإمكانه أن يمارس القمع على مناوئيه والخارجين على سلطته والمخالفين لعقيدته وأحكامه لو شاء ذلك، وهنا لا بد أن نَفصِل بين مصادرة الرأي وبين ممارسة القمع، من خلال نماذج واقعية وليس من جوانب تنظيرية، لأننا اعتدنا في العصور الأخيرة تناقضاً كبيراً بين التنظير والممارسة، وأصبحت الشعارات جوفاء لا معنى لها سوى التفاخر والمداعاة.

# مصادرة الرأي في عهد النبي ﷺ

عندما وصل النبي ﷺ إلى المدينة المنورة كان الإسلام قد انتشر فيها على أيدي المبايعين في بيعتي العقبة الأولى والثانية، وبعد دخول سيدين كبيرين من الأوس والخزرج في الإسلام، هما سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فكان

في المدينة من أسلم وفيها من بقي على وثنيته. فلما أقام النبي ﷺ دولة الإسلام في المدينة المنورة ووقع مع اليهود «وثيقة المدينة» التي سيأتي ذكرها، لم يُهِجْ أحداً، ولم يفرض اعتناق الإسلام على أحد، حتى إن أبا الدرداء رضي الله عنه كان من آخر الأنصار إسلاماً، وقد كان له صنم يعبده، والإسلام قائم في المدينة المنورة، ودرج النبي ﷺ على محاورة من يأتيه ويحاول إقناعه بالإسلام، فإن قبل وإلا تركه ولم يُهِجْه أو يأمر أحداً بالتعرض له، فلم يفرض رأياً ولم يعمد إلى مصادرة رأي أحد، وسنعرض لنماذج واقعية في حوادث تؤكد عدم وجود الاستبداد بالرأي في حياة النبي ﷺ ومعاملاته وحكمه بين الناس، وإدارته دولة الإسلام، سواء في نشوئها أم بعد تمكنها، كما تؤكد سعي الإسلام إلى ترسيخ ثقافة الحوار وتوضح أهميته في الإقناع، ودوره في رد الرأي المخالف، وتؤكد أن بناء فكر الأمة يقوم على مناقشة صاحب الرأي المخالف ومقارعته بالحجة لا بالقمع، وتعزيز ثقافة الحوار لا ثقافة الاستبداد، من خلال نموذجين:

## رجل شديد الغيرة:

كان سعد بن عبادة رضي الله عنه سيد الخزرج، وكان شديد الغيرة على نسائه، حتى إنه إذا طلق امرأة لم يجرؤ أحد أن يتزوجها، خوفاً من شدة غيرته، وعندما نزلت الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ

الْفَاسِقُونَ﴾[٦٤]، قالَ سَعْدُ: «لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح عنه». فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: ﴿أَتَعْجَبُونَ مِن غَيْرَةِ سَعْدٍ، فَوَاللَّهِ لأَنَا أَغْيَرُ منه، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي، مِن أَجْلِ غَيْرَةِ اللهِ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ منها وَما بَطَنَ، وَلَا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ، وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللهِ، مِن أَجْلِ ذلكَ بَعَثَ اللَّهُ المُرْسَلِينَ، مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المِدْحَةُ مِنَ اللهِ، مِن أَجْلِ ذلكَ وَعَدَ اللَّهُ الجَنَّةَ﴾[٦٥].

فجاء سعد إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إني لأعلم أنها حق، وأنها من الله، ولكني قد تعجبت أن لو وجدت لكاعاً، قد تفخذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته! فقد أدرك سعد أن غيرته الشديدة دفعته ليقول كلاماً انفعالياً كان ينبغي أن يتروّى قبل النطق به.

ونلاحظ أن النبي ﷺ لم يقبّح رد فعل سعد ولم ينهره ولم يقل له: «أتعارض حكم الله»؟ ولم يتّهمه في دينه، ولا شكك في إيمانه أو إسلامه، وإنما أثنى على غيرته التي دفعته إلى هذا القول، وأكد أنه هو نفسه ﷺ أشد غيرة من سعد، وأن الله أشد غيرة منه ومن كل البشر مهما بلغت غيرتهم.

---

[٦٤] النور، ٤.

[٦٥] صحيح مسلم، برقم ١٤٩٩.

## شاب يحب الزنا:

جاء فتى شابٌّ إلى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه[٦٦]! فقال له النبي ﷺ: «أُدْنُهْ». فدنا منه قريباً، فجلس، فقال له النبي ﷺ: «أتحبه لأمك»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»، ثم قال: «أفتحبه لابنتك»؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، قال: «أفتحبه لأختك»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم»، قال: «أفتحبه لعمتك»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لعمَّاتهم»، قال: «أفتحبه لخالتك»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصِّن فَرْجَه»، فلم يكن بعد - ذلك الفتى - يلتفت إلى شيء[٦٧].

ونلاحظ هنا أهمية الحوار واستخدام المنطق في إقناع صاحب الرأي المخالف بخطأ رأيه ودفعه إلى التراجع عنه بدون استخدام أي أسلوب قمعي، أو تكميم فمه ومنعه من التصريح برأيه، ففي حين تعجب الصحابة وأرادوا نهيه عن الكلام واستعظموا كلامه ناداه النبي ﷺ وحاوره حواراً جعل غايته التي جاء من أجلها أبغض شيء إليه، ففي رواية أن الشاب

---

٦٦ اسم فعل أمر بمعنى «اكفف».

٦٧ مسند أحمد بن حنبل، ج٥، ص٢٥٧.

قال: «دخلت على رسول الله ﷺ والزنا أحب شيء إلى نفسي، وخرجت من عنده والزنا أبغض شيء إليها».

# مصادرة الرأي في الخطط الحربية

## يـوم بــدر:

بعد أن شاور النبي ﷺ أصحابه فاتخذوا قرار خوض معركة بدر، جمع معلومات دقيقة عن قوات قريش، وانطلقوا إلى موضع آبار بدر ليسبقوهم إليها، فنزل عند أدنى ماء من مياه بدر، فقال الحباب بن المنذر رضي الله عنه: يا رسول الله! أرأيت هذا المنزل؟ أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال ﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، فقال: فإن هذا ليس بمنزل، فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فننزله ونغوّر ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتلهم فنشرب ولا يشربون.

لم يقل النبي ﷺ للحباب أنا أعلم بما اخترت، أو يدافع عن رأيه واختياره، وإنما سارع إلى الأخذ برأي الحباب، فنهض بالجيش حتى أقرب ماء من العدو فصنعوا ما أشار به. فلا وجود لاستبداد ولا لاعتداد بالرأي، وإنما هو شورى وأخذ بالرأي المخالف إذا اقتضت المصلحة ذلك.

## يوم الخندق:

لم يستكن اليهود بعد نفيهم إلى خيبر نتيجة غدرهم وتآمرهم على الإسلام ونبيه ﷺ، فخرج عشرون من زعمائهم مع سادات بني النضير إلى قريش، يحرضونهم على غزو الرسول ﷺ ويؤكدون موالاتهم عليه، وكانت قريش أخلفت وعدها في الخروج بعد «أحد»، فرأت في ذلك إنقاذاً لسمعتها. ثم طاف الوفد في قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك، وبعد أيام تجمع حول المدينة المنورة عشرة آلاف مقاتل، جيش قد يزيد عدده على عدد أهل المدينة. وفور وصول خبرهم سارع النبي ﷺ إلى عقد مجلس شورى، وكان رأيه ﷺ أن يخرجوا لملاقاتهم خارج المدينة، فقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا خشينا الخيل خندقنا علينا، ولم تكن العرب تعرف الخنادق قبل ذلك، فأعجب النبي ﷺ بالرأي، واستشار من بقي من الصحابة فوافقوه، فأخذ به، وهنا أيضاً تتضح براءة النبي ﷺ من مصادرة الرأي والاستبداد برأيه.

وقد يقول قائل إن المواقف السابقة كان بعضها في أمور تشريعية وتعليمية بسيطة في الحياة الاجتماعية، وهي إلى ذلك فردية يمكن حلها بالحوار أو الثناء بلا استبداد ولا مصادرة رأي، وبعضها مشورة خطة حربية يمكن الأخذ بها أو بغيرها، لإشعار الأتباع بمكانتهم أو بأهميتهم، ولا داعي فيها إلى الاستبداد أو مصادرة الرأي، إضافة إلى أنها قد تكون الخطة الأسلم والأكثر ضماناً للنصر، فلا مجال للاستبداد فيها أصلاً، بل إن الأخذ بها

واجب على القائد وإلا خسر المعركة. ولكن في الأمور العظيمة؛ هل بقي النبي ﷺ على هذا النهج فلم يستبد ولم يصادر آراء الأتباع؟

فنجيب على هذا التساؤل باستعراض اثنين من الموقف في الأمور العظيمة التي تتعلق بمستقبل المجتمع والدولة والأمة كلها، وهما قرار الحرب، وقرار اختيار الخليفة.

## خيار الرأي العام في الحرب

حين قدم النبي ﷺ المدينة المنورة وتلقاه الناس وقف ثابت بن قيس رضي الله عنه خطيباً، فقال: «نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأولادنا، فما لنا»؟ قال ﷺ: «الجنة». فقال الأنصار: رضينا، وعلى ذلك بايعوا جميعاً.

وكانت قريش صادرت أموال وبيوت المهاجرين إلى المدينة المنورة، فلما بلغ النبي ﷺ قدوم أبي سفيان بقافلة قريش من الشام رأى أن يستلبوها عوضاً من الأموال التي صودرت في مكة، فلما بلغ الخبر قريشاً واستعدوا للحرب استطاع أبو سفيان العدول بالقافلة إلى طريق أخرى، فأرسل إليهم ليرجعوا إلى مكة، لكنهم أبوا إلا الحرب واستئصال شأفة المسلمين. أما النبي ﷺ فهو يعلم أن عقده مع الأنصار عقد حماية إذا أراد أحد قتاله لأن البيعة لا تلزمهم القتال خارج ديارهم، أما الآن فالأمر اختلف، فهم خرجوا من أجل العير، فنجت العير وبقيت أمامهم السيوف مسلولة والرماح مشرعة ظمأى إلى دمائهم، فقريش هنا لا تقف موقف المهاجم وإنما موقف

المدافع، وهو إن سار بمن معه من المهاجرين والأنصار فإنهم لن يتراجعوا، إن لم يكن بدافع الإيمان فبدافع الحياء، فالعربي لا يقبل عار الانسحاب جبناً، ولكن في الجهة الأخرى ستقوم عداوة أبدية بين قريش والأنصار قد تستمر أربعين عاماً مثل حرب البسوس أو داحس والغبراء، وهم في غنى عن هذه العداوة الطويلة، أما إذا هاجمت قريش المدينة فهنا يصبح قتالهم واجباً بمقتضى البيعة ومقتضى العادة دفاعاً عن أهلهم وبلدهم، لكن النبي ﷺ لم يستبد بالرأي ويضطرهم إلى اقتحام معركة لم يعدوا لها عدتها، وقد لا يرغبون في خوضها بإمكاناتهم البسيطة وعددهم القليل ٣١٣ رجلاً، لأنهم لم يخرجوا إلى معركة وإنما إلى غنيمة، لكنهم فوجئوا بتحول الساحة إلى حرب يقف مقابلهم فيها جيش مكون من ثلاثة أضعاف عددهم بإمكانات عالية وجاهزية كاملة، فقد جاؤوا من أجل الحرب! فقال ﷺ: أشيروا عليَّ أيها الناس! فتكلم أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، وكذلك المقداد بن عمرو، وهؤلاء الثلاثة رضي الله عنهم كانوا من المهاجرين، وهم أقلية في الجيش وهم أصحاب القريحة والعداوة مع قريش، فكانت فرصة أخرى للاستبداد بالأخذ برأيهم في خوض المعركة وإقحام الجميع - مهاجرين وأنصاراً - فيها اعتماداً على رأي الشق الأول من الجماعة، لكن النبي ﷺ أبى ذلك وأصر على أن يأخذ رأي الأنصار، فأعاد قوله: «أشيروا عليَّ أيها الناس»! ففطن إلى ذلك سعد بن معاذ، رضي لله عنه، فقال: «لكأنك تريدنا

يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «أجل». قال سعد: لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها ألّا تنصرك إلا في ديارهم! وإني أقول عن الأنصار، وأجيب عنهم: قد آمنا بك، فصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فاظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك فو الله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرنَّ معك، فامض يا رسول الله لما أردت فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخُضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّاً غداً، إنا لصُبُر في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك[٦٨].

وفي هذا الموقف صورة واضحة تبين عدم وجود الاستبداد بالرأي أو حتى رائحته في تعامل النبي ﷺ مع أتباعه، مع أنه قرار مصيري يتعلق بمستقبل مدينتهم وقبيلتيهم، فالعداوة مع قبيلة قريش ليست بالأمر السهل، وهي صاحبة المركز التجاري للقبائل العربية، فعدا حمايتها بيت الله الحرام فسوق عكاظ أعظم أسواق العرب تقام في كنفها، وهي ليست سوقاً تجارية فقط، وإنما سياسية يجري فيها الصلح وتُعقد فيها الأحلاف، وسوق اجتماعية يعلن فيها الإلحاق بالأنساب والبراءات منها أو من الأشخاص

---

[٦٨] الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري، ص١٦٦.

أو من الأفعال، ويعرض الخطباء فيها خطبهم، والشعراء روائع شعرهم، فهي مؤتمر عام أكثر من كونها سوقاً، وبذلك يضع الأوس والخزرج حاجزاً منيعاً بينهم وبين المجتمع العربي كله، وتصبح الطريق بين مكة والمدينة لا أمان فيها لعابر، هذا عدا الغارات التي يمكن أن يشنّوها على مدينتهم، إضافة إلى أن قريشاً يمكن أن تجمع حولها قبائل العرب لمهاجمة المدينة المنورة، وقد حصل هذا في معركة الأحزاب (الخندق)، فقد كان لزاماً على الأنصار أن يفكروا بذلك كله، ولم يفُتهم ذلك، بلا ريب، ومع أن النبي ﷺ يعلم تمام العلم أنهم لن يعترضوا لو خاض المعركة بلا استشارة أو مكتفياً برأي من أشار من المهاجرين، فهو نبي يوحى إليه وليس مجرد قائد أو زعيم ديني أو سياسي، لكنه ﷺ كان في تصرفاته كلها مشرّعاً في الدين ومعلماً للدنيا، فِعلُه حجةٌ للأمة وقادتها من بعده، وقوله منهجٌ، فهو قدوة وأسوة وقائد.

## اختيار الخليفة من بعده ﷺ

لم يكن موت النبي ﷺ فجائياً، فقد مرض وطال مرضه ثلاثة عشر يوماً، وقد قال للسيدة عائشة رضي الله عنها: ﴿يا عائشةُ ما أزالُ أجِدُ ألم الطعامِ الذي أَكَلْتُ بخيبرَ، فهذا أوانُ وجدتُّ انقطاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذلِكَ السُّمِّ ﴾[٦٩]، إضافة إلى وجود عدد من الإشارات تنبي بقرب وفاته ﷺ، كان آخرها

---

[٦٩] صحيح البخاري، برقم ٤٤٢٨.

نزول جبريل عليه السلام عليه بتخييره بين الخلد والجنة، ولقاء الله والجنة، فقال: ﴿اللَّهم اغفِر لي وارحَمني وألحِقني بالرَّفيقِ الأعلَى﴾[٧٠].

فقد كانت أمامه فرصة متسعة لترتيب أمور الدولة من بعده ﷺ، وأهمها قيادة هذه الدولة التي بسطت حمايتها على الجزيرة العربية واليمن إلى حدود الشام وأطراف العراق، وسط بوادر فتن يقودها مدّعو النبوة، ونذر الخطر التي بدأت تلوح في الأفق، فأي ملك أو قائد أو زعيم، في مثل هذا الظرف، يسرع إلى عقد اجتماع يوصي فيه ويعهد إلى من شاء، وجميع من حوله من المسلمين سامعون مطيعون، لكن النبي ﷺ لم يفعل شيئاً من ذلك، إلا في إمامة الصلاة، إذ أمر حين ثقل عليه المرض بأن يصلي أبو بكر رضي الله عنه بالناس، أما وصيته في المال فأغلق بابها بقوله: ﴿نحن - معاشرَ الأنبياء - لا نورّث، ما تركناه صدقة﴾[٧١]، فلم ينل أحد من أهل بيته عليهم السلام ميراثاً. وأما الخلافة فلم يوصِ بها إلى أحد، اللهم إلا إشارات من خلال رؤيا رآها تفيد الإخبار لا التوجيه، وهو قوله ﷺ: ﴿أُرِيتُ في المَنامِ أنِّي أنْزِعُ بدَلْوِ بَكْرَةٍ علَى قَلِيبٍ، فَجاءَ أبو بَكْرٍ فَنَزَعَ ذَنُوباً، أوْ ذَنُوبَيْنِ نَزْعاً ضَعِيفاً، واللَّهُ يَغْفِرُ له، ثُمَّ جاءَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ فاسْتَحالَتْ غَرْبًا، فَلَمْ أرَ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرِيَّهُ حتَّى رَوِيَ النَّاسُ، وضَرَبُوا بعَطَنٍ﴾[٧٢]. وهذا ما حدث، فقد كانت خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه أقل من

---

[٧٠] صحيح البخاري، برقم ٥٦٧٤.
[٧١] صحيح البخاري، برقم ٤٠٣٥.
[٧٢] صحيح البخاري، برقم ٣٦٨٢.

سنتين (دلواً أو دلوين)، أما خلافة عمر رضي الله عنه فدامت عشر سنوات وستة أشهر ضرب خلالها الإسلام بجرانه واتسعت رقعته لتبلغ مشارق الأرض ومغاربها ويفيض الخير على البلاد والعباد، فكان ذلك الحديث إخباراً بمستقبل لا أمراً بتولية. ومثل ذلك قوله ﷺ المعروف بحديث الغدير، إذ أخذ بيد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وقال: ﴿فقال ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسِهم؟ قالوا بلى. قال ألستُ أولى بكلِّ مؤمنٍ من نفسِه؟ قالوا بلى. قال فهذا وليٌّ من أنا مولاه، اللَّهمَّ والِ من والاهُ، اللهمَّ عادِ من عاداهُ﴾[٧٣]، فهذا إخبار بمكانة علي من النبي ﷺ وتنويه بتوكيله في أموره الشخصية كالأمانات والديون، وقد قضى عليٌّ رضي الله عنه ديناً كان على النبي ﷺ ليهودي؛ وَسْقاً أو وَسْقَين من شعير، رهن عنده درعه مقابله، ولم يكن استخلافاً، كما أنه ﷺ أخبر علياً رضي الله عنه بأخبار مستقبلية كثيرة، منها بأنه سيلي الخلافة، وكان ذلك كما أخبره ﷺ، بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه. وأكبر دليل على أن الحديث لم يكن استخلافاً فَهْمُ عليٍّ رضي الله عنه للأمر، فبعد مبايعة الناس أبا بكر رضي الله عنه أقبل أبو سفيان، وكان رَجُلَ دُنْيا حديثَ عهدٍ بالإسلام، فهو من الطلقاء الذين أسلموا بعد الفتح، فلم ينل حظاً وافراً من المدرسة المحمدية، فأقبل وهو يقول: والله إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم! يا آل عبد مناف فيمَ أبو بكرٍ من أموركم؟! أين المستضعفان؟! أين الأذلان عليٌّ والعباس؟! ثم جاء

---

[٧٣] صحيح سنن ابن ماجه، برقم ١١٦، وأحمد بن حنبل في مسنده برقم ١٨٥٠٢.

فقال: أبا حسن! ابسط يدك حتى أبايعك. فأبى عليٌّ عليه، فجعل أبو سفيان يتمثل بشعر المتلمس:

ولن يقيمَ على خَسْفٍ يُرادُ بهِ   إلا الأذلّان؛ عَيْرُ الحيِّ والوتدُ
هذا على الخسفِ معكوسٌ بِرمتهِ   وذا يُشَجُّ فلا يبكي لهُ أحدُ

فزجره عليٌّ رضي الله عنه، وقال: «إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شراً! لا حاجة لنا في نصيحتك»[٧٤].
ولم يكتف أبو بكر رضي الله عنه بهذا الحد، وإنما استبرأ نفوس المسلمين من أي معارضة لخلافته، واستحلفهم على ذلك فخطب فقال: «أيها الناس، أذكّركم الله، أيما رجل ندم على بيعتي لما قام على رجليه»، فقام علي بن أبي طالب ومعه السيف، فدنا منه حتى وضع رجلاً على عتبة المنبر والأخرى على الحصى وقال: «والله لا نقيلك ولا نستقيلك، قدّمك رسول الله ﷺ، فمن ذا يؤخرك»؟

أما الخلافة من بعده ﷺ فلم يشر إلى أحد، وقد جاء استخلاف أبي بكر الصديق رضي الله عنه تقديراً من الله سبحانه لا بإشارة نبوية، وتؤكد ذلك حادثة السقيفة - وسيأتي حديثها - فقد تدارك أبو بكر وعمر وأبو عبيدة الأمر قبل أن يتحول إلى ملك قَبَليّ على نمط الجاهلية، فسارع أبو بكر رضي الله عنه ورشّح عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح، وبذلك آلَ

---

[٧٤] تاريخ الطبري، ج٢، ص٢٣٧.

الأمرُ إلى غير أبي بكر، في حين يظن بعضهم أن اختيار أبي بكر كان بتوجيه نبوي، إلا أن عمر رضي الله عنه أبى التقدم على أبي بكر لما يعلم من سابقته في الإسلام وزهده وتقواه وورعه، لا لمكانته من النبي ﷺ، ولو كان الأمر كذلك لكان عليٌّ بن أبي طالب أولى من أبي بكر، وكان العباس عم النبي ﷺ أولى من عليٍّ، لكن الصحابة رضي الله عنهم درسوا في مدرسة النبي ﷺ فتعلموا أن الدين ليس بالقرابات والأرحام، ففي حين أنزل الله قوله: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾[٧٥]، قال النبي ﷺ: ﴿إنما سلمان منا أهل البيت﴾[٧٦]، وأبو لهب عم النبي ﷺ، وسلمان فارسي! لذلك تقدم عمر فبايع أبا بكر، وكان اختياراً وفق الله عمر إليه، نفع به المسلمين وأعاد توطيد أركان الإسلام من جديد في الجزيرة العربية وما حولها، فكان ذلك حسنة أخرى تضاف إلى حسنات عمر رضي الله عنه، الذي قال عنه النبي ﷺ: ﴿لَقَدْ كَان فِي ما قَبْلَكُمْ مِنَ الأُممِ محدَّثونَ، فَإنْ يَكُ في أُمَّتي أَحَدٌ، فإنَّهُ عُمَرُ﴾[٧٧]. ومحدَّثُونَ: مُلهَمُون. فكانت الأولوية لنص القرآن الكريم: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾[٧٨]، وما أفسد الأمر - في ما بعد - إلا التوريث وإلغاء الشورى، فأصبحت ﴿ملكاً عاضّاً﴾[٧٩] كما أخبر النبي ﷺ، فأنتجت أمراء منهم من استباح المدينة المنورة وارتكب فيها المجازر في «موقعة

[٧٥] المسد، ١.
[٧٦] المستدرك على الصحيحين، للحاكم، ج٣، ص٥٩٨.
[٧٧] صحيح البخاري، برقم ٣٦٨٩.
[٧٨] الشورى، ٣٨.
[٧٩] هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة، لابن حجر العسقلاني، برقم ٥٣٠٦.

الحرّة» المشهورة، ثم جاء من بعده من أرسل جيشاً استحل الدماء في الحرم وضرب الكعبة بالمنجنيقات، واستحل حرمة الحرم، ثم تلاهم من استأصل الأسرة الحاكمة بعد أن أمّنهم، وقبل كل هؤلاء سن بعضهم لَعْنُ علي بن أبي طالب رضي الله عنه على المنابر، حتى أبطل الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه هذه الجريمة، وإن أنكر ذلك بعض المعاصرين، فقد أثبتها المؤرخون والمحدّثون[٨٠]، ونحن إذ نحاكم فإنما نحاكم الأحداث لا الأشخاص، والحق لا يُعرف بالرجال وإنما يعرف الرجال بالحق، وحين نقول إن الصحابة كلهم عدول فذلك لا يعني أنهم معصومون من الخطأ، وإنما يعني أنهم جميعاً ثقات في النقل عن النبي ﷺ لا يكذبون عليه ولا يفترون، ولسنا في مقام محاججة لإثبات أحداث منقولة أو نفيها، ولا محامي دفاع لنتأول الكلام على غير الوجوه التي نقل إلينا بها، مع عجبنا من إنكار حدوث الشتم وإثبات حصول ما هو أعظم منه، وهو القتال وإراقة دماء الصحابة رضي الله عنهم! لكن ما نريد قوله أن مظاهر القمع ومصادرات الرأي في هذه الأحداث كلها كانت سياسية محضة لا تستند إلى الشرع الحنيف الذي جاء به نبينا محمد ﷺ وسار عليه من بعده خريجو مدرسته الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم، فالنبي ﷺ لم يوصِ بالخلافة لأحد، وخرج من الدنيا بكفنه ولم يحمل من أعبائها شيئاً،

---

٨٠ الطبري في تاريخه ج٥، ص٢٥٣، وكذلك ابن الأثير والسيوطي، ومن المحدثين مسلم في صحيحه ج٤، برقم١٨٧١، وابن حجر في فتح الباري ج٢، ص٩٢، والترمذي في سننه برقم ٣٧٢٤.

لا عبء ميراث ولا عبء سلطة، وترك الأمر كما علّمه الله سبحانه في قوله: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾، وقد استخلف اللهَ على أمته، فيسّر الله الأمر وقدّره أحسن تقدير، فلو استخلف علياً أو العباس رضي الله عنهما لأصبح الأمر سنة متوارثة، ومن جهة أخرى ستأتي الاتهامات بأنه ﷺ كان في كل جهوده وجهاده يؤسس دولة وملكاً لأهل بيته، فاليوم كلٌّ من يُكَذِّب نبوّته ﷺ إذا سُئل: وماذا جنى من ذلك؟ فإنه ينخذل. وهذه حكمة الله سبحانه، فلم يترك على نبوته غباراً، حتى شهد بعظمته ونفعه للبشرية أعداؤه والمخالفون له في الدين. وبذلك نجد أن النبي ﷺ لم يستبد في رأيه في شيء من أصغر الأمور إلى أعظمها وأجلها وهو الخلافة والسلطة والحكم من بعده.

## مصادرة الرأي في عهد الشيخين

إن أولى الناس باتباع منهج النبوة هم الذي التحقوا بمدرستها منذ البداية إلى النهاية، ولم يشوبوا إيمانهم بباطل، وتوفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم، وهذا ينطبق على الرعيل الأول من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، فكان الخلفاء الراشدون أول رواد هذه المدرسة العظيمة وألصق الناس بمنهجها. ولأن عصر الخليفتين عثمان وعليٍّ رضي الله عنهما نشأت فيه الفتن وسالت الدماء، وتضاربت الآراء، وفي حين قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنهما على يد مجوسي، قتل هذان الخليفتان على أيدي أشخاص ينسبون إلى الإسلام، لذلك كله سوف نقتصر في مناقشة هذا الباب

على عهد الخليفتين الشيخين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. وقد رأينا إفراد موضوع الخوارج بجانبيه؛ «مصادرة الرأي» و«القمع»، لأنه متصل في سياقاته خلال عدد من العصور، بدءاً من عصر علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى عهد هارون الرشيد رحمه الله.

## ترشيح عمر وأبي عبيدة ومبايعة أبي بكر

بعد وفاة النبي ﷺ استشعر الأنصار خطورة الموقف، فكثير من قبائل العرب ارتدت عن الإسلام على يد مدّعي النبوة من أمثال سجاح التميمية ومسيلمة الكذاب وطليحة الأسدي والأسود العنسي، وقد خرج كل من هؤلاء بجيوش لفرض أنفسهم على القبائل المجاورة، ولا بد أن تكون المدينة المنورة أول أهدافهم، لأنها معقل الإسلام، وكل تلك القبائل المرتدة تحمل الحقد على الأنصار لأنهم آووا النبي ﷺ ونصروه عليهم، ويزيد ذلك الخطر أن جيش المسلمين بقيادة أسامة بن زيد رضي الله عنهما خارج المدينة، فكان لا بد من اتخاذ خطوة سريعة تضمن الجاهزية لمواجهة أي عدوان، وأخذ زمام الأمور، فاجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة لاختيار خليفة منهم، فهي مدينتهم، لأن الخطر الآتي يمسهم أكثر من غيرهم، ولأنهم سلّموا جدلاً بأن المهاجرين سيرجعون إلى بلادهم بعد وفاة النبي ﷺ. فبلغ خبر اجتماعهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأدرك خطورة الموقف، فأسرع إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأخبره بالأمر وقال

له: «انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار». وفي الطريق لقيا عوين بن ساعدة ومعن بن عدي رضي الله عنهما، وهما من الأنصار ممن شهدوا بيعة العقبة الثانية، فلما رأيا الصديق والفاروق ذاهبين إلى السقيفة خشيا حدوث فتنة بين المهاجرين والأنصار، فأرادا صرفهما، فنصحاهما بألا يذهبا إلى السقيفة، وليقضِ المهاجرون أمرهم في ما بينهم. لكن الصديق والفاروق رضي الله عنهما أصرا على الذهاب إلى السقيفة ليكون الأمر موحداً بين المسلمين، فلا يكون في جبهتين، وفي الطريق لقيا أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، فأخذاه معهما إلى السقيفة، وكان الأنصار اختاروا سعد بن عبادة رضي الله عنه ليبايعوه خليفة. فلما جلسوا تشهّد خطيب الأنصار، فأثنى على الله بما هو له أهل، ثم قال: «أما بعد: فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين، رهط منا، وقد دفت دافة من قومكم...»، فلما انتهى تكلم أبو بكر رضي الله عنه، فقال: «أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن تعرف العرب هذا الأمر (القيادة) إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيتُ لكم أحد هذين الرجلين (وأخذ بيد عمر ويد أبي عبيدة بن الجراح) فبايِعوا أيَّهما شئتم»، فقال قائل من الأنصار: «أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش». فكثر اللغط وارتفعت الأصوات،

حتى تخوف عمر رضي الله عنه الاختلاف، فقال لأبي بكر: «ابسط يدك يا أبا بكر»، فبسط يده، فبايعه، ثم بايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار[٨١].

# أبو بكر يبين مشروعه وحقوق الأمة

في نظام الشورى العالمي (البرلماني) حين تتسلم الحكومة الجديدة القيادة يقف رئيس الحكومة ويخطب خطبة يبين فيها مشروع حكومته ورؤيتها خلال فترة الحكم، وهما ملزمان للحكومة الجديدة يطالبها «البرلمان» بتحقيقهما ويحاسبها على عدم التنفيذ أو التقصير، وربما أقيلت الحكومة قبل أن تستكمل مدتها.

هذا النظام قبل أن يتخذه الغرب المتحضر كان في الإسلام قبل أربعة عشر قرناً، فقد وقف أبو بكر الصديق رضي الله عنه خطيباً بعد أن بويع بالخلافة، فقال: «... أما بعد، أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة. والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء. فإذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعةَ لي عليكم»[٨٢].

---

٨١ صحيح البخاري، برقم ٦٨٣٠، تاريخ الطبري ج٢، ص٤٥٥، مسند أحمد، ج١، برقم ٣٣٨.
٨٢ سيرة أبي بكر الصديق، لعلي محمد الصلابي، البيعة.

بدأ خطبته بإيضاح أنه واحد من الناس، لا فضل له على أحد. ثم فتح لهم باب المشورة (برلمان): «إن أحسنت فأعينوني» أي تابعوني في حكمي وأحكامي وقراراتي، فإن كانت صواباً فأقروني عليها وآزروني وشجعوني، «وإن أسأت فقوموني»: أي إن بدا مني انحراف عن الحق أو ظلم أو تقصير أو خطأ فاستوقفوني وقولوا لي: هذا لا يصح، وأعيدوني إلى جادة الحق والصواب، (والتقويم غير النصيحة، فالنصح باللسان، أما التقويم فيكون باللسان ويكون باليد ويكون بالقوة)، ثم بيّن مشروعه الذي يوضح أنه لا قوة فوق الحق والعدل: «الضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله»، وبيّن حدود ما له: «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله»، وختم بأهم ما تحتاج إليه الأمم، وهو حدود الحاكم، متى يطاع ومتى تسقط طاعته، فلا دكتاتورية (استبداد) ولا قمع ولا تسلط: «فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»!

والمادة الأخيرة هي أخطر المواد، فقد جاء من بعد أبي بكر فقهاء يطبّلون لزعيمهم، فيزعمون أنه لا حساب عليه في أموال أو دماء، وكادوا يؤلهونه، فأباحوا له أن يعفو عمن يشاء ويقيم الحد على من يشاء، وينفي من يشاء ويقرب من يشاء، ويرزق من بيت المال من يشاء ويمنع من يشاء! بل لووا عنق النصوص وتزيدوا فيها، فقالوا «إن أخذ مالك ظلماً وتعسفاً،

وإن جلد ظهرك جوراً بلا ذنب، فعليك السمع والطاعة»[٨٣]! وكأنهم لم يقرؤوا خطبة أبي بكر رضي الله عنه بكلماته القليلة التي أُدخلت بصفتها «وثيقة» مدرجة في «حقوق الإنسان» بالجمعية العامة للأمم المتحدة. «فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»! هذا هو الميثاق والمشروع الذي قدمه أبو بكر الصديق يوم استخلافه، والتزم مبادئه حتى غادر الدنيا بريئاً من المظالم وخطايا العباد.

يقول المؤرخ والكاتب الأمريكي واشنطن إيرفينج: «كان أبو بكر الصديق رجلاً عظيم الحُكم، يقظاً حذراً، إدارياً بارعاً، أهدافه ومقاصده صادقة موجهة نحو مصلحة القضية وليس نحو مصلحته الشخصية، وخلال فترة حكمه لم يركن إلى شيء من أمور الدنيا الخسيسة، ولم يلتفت إلى الثراء والبذخ والرفاهية، ولم يَقبل أجراً مقابل خدماته، إلا مبلغاً زهيداً كافياً ليعيش حياة عربية من أبسط أنواع الحياة، فكان موكبه جمل وعبد أسود، وأما الدخل الفائض الذي كان يدخل خزانة بيت المال فكان يوزعه كل يوم جمعة، جزءاً منه عطايا للمستحقين، والباقي للفقراء، وكان دائماً على استعداد بأن يساعد المفجوعين والمكروبين من ماله الخاص»[٨٤].

---

[٨٣] هي زيادة في حديث رواه حذيفة بن اليمان جاءت في بعض المصادر ولم ترد في روايات أخرى، وقد تأولها الإمام النووي ببناء الفعلين (أخذ) و(ضرب) للمجهول، أي لا يكون الفاعل الأمير، وإنما لو تعرضت للتسليب والجلد فلا تخرج على الخليفة. في حين أثبت الدكتور صلاح الدين الإدلبي أن هذه الزيادة وردت في مراسيل منقطعة الإسناد أو في سلسلتها مدلسون، وعدها منكرة، ينظر: https://islamsyria.com/site/show_consult/251

[٨٤] محمد وخلفاؤه، لواشنطن إيرفنج: Mahomet and his successors, Washington Irving

## موقف أبي بكر من سعد بن عبادة بعد السقيفة

بعد أن بويع أبو بكر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعث إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه أن «أقبلْ فبايعْ، فقد بايع الناس وبايع قومك»، فقال سعد: «لا والله لا أبايع حتى أراميكم بما في كنانتي، وأقاتلك بمن تبعني من قومي وعشيرتي». فلما جاء الخبر إلى أبي بكر لم يُلقِ لكلامه بالاً، وتركه وشأنه وسكت عنه، فكان سعد وحيداً في ذلك[٨٥].

فنلاحظ موقف خريج المدرسة المحمدية أبي بكر الصديق رضي الله عنه صورة مطابقة لمواقف النبي ﷺ، «فتركه وسكت عنه»، ولم يقل إنه شق عصا الطاعة، أو خالف رؤية المسلمين، أو خرج على الشورى، فهو يظن الخير فيه، وإنما كان موقفه حفظاً لماء وجهه بعد أن دعا لنفسه ففاته الأمر، وهذا الموقف امتداد لسيرة النبي ﷺ التي تمثل الإسلام الذي أنزله الله وخضع لأحكامه النبي ﷺ ومن تبعه على خطاه؛ القدم على أثر القدم.

## موقف عمر بن الخطاب من سعد بن عبادة

لما ولي عمر بن الخطاب الخلافة لقيه ذات يوم سعد بن عبادة في طريق بالمدينة، فقال: إيه يا سعد! فقال: إيه يا عمر! فقال عمر: أنت صاحب ما أنت صاحبه؟ فقال سعد: نعم، أنا ذاك، وقد أفضى إليك هذا الأمر، كان - والله - صاحبك (يعني أبا بكر) أحب إلينا منك، وقد أصبحت كارهاً

---

[٨٥] جامع الجوامع، للسيوطي، ج١١، ص٨٠، برقم ٣٤٧.

لجوارك. فقال عمر: إنه من كره جوار جاره تحول عنه. فلم يلبث إلا قليلاً حتى انتقل إلى الشام، فمات بِحوران[٨٦].

ويفتري بعض المعاصرين أن سعداً رضي الله عنه اغتيل اغتيالاً بحوران، وهي فرية واضحة الإفك، فليس لعمر رضي الله عنه مصلحة في قتل سعد رضي الله عنه وهو سيد الخزرج، وقتْلُه سيفتح باب فتنة جاهلية عمر أذكى من أن يقع أو يوقع المسلمين فيها، إضافة إلى أنه لم يعد هناك ما يُخشى من سعد وقد أقام بحوران حيث لا أقارب له هناك ولا أنصار، والتاريخ يخبرنا أن سعداً رضي الله عنه مات موتاً ولم يقتل! فقد قال من حضر موته: «إنَّ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ بَالَ قَائِماً، فَلَمَّا رَجَعَ قَالَ لأَصْحَابِهِ: إِنِّي لأَجِدُ في جسدي دَبِيباً، ثم مات من ليلته رضي الله عنه».

ورُوي أن أهله سمعوا يوم موته صوتاً من بئر في بيته، قال صاحبه:

نحن قَتَلْنَا سَيِّدَ الْخَزْ رَجِ سَعْدَ بن عبادة
قد رميناه بسهمـ ـين فلم نُخطِ فؤاده

فقالوا: إن الجن قتلته، فالصوت الصادر من البئر لا يكون إلا من الجن[٨٧].

فإن أخذنا برواية قتل الجن له فأسهمهم غير أسهم الإنس، لأنه رضي الله عنه لم يكن جريحاً حين مات، وإن أخذنا برواية موته فقد ذكر من شهد

---

[٨٦] جامع الجوامع، للسيوطي، ج١١، ص٨٠، برقم ٣٤٧.
[٨٧] سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج٣، ص١٦٩.

موته ما أسلفنا قوله. وعمر رضي الله عنه لم يقمعه ولم يُهِجْه، واختار سعد الرحيل حفظاً لماء وجهه.

## المؤلفة قلوبهم بين الشيخين

حين دخل الناس في الإسلام أفواجاً كان سادة الأقوام في الجاهلية وفرسانهم يجدون في نفوسهم غضاضة بالتبعية، بعد أن كانوا متبوعين. ولأن الإيمان لم يدخل في قلوبهم في المدة الأولى شرع الله لهم في العطاء من الصدقات وعدّهم في الأصناف الثمانية الذين يستحقونها، ليتألف قلوبهم به، قال تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾[٨٨]، وفي تقسيم الصدقات قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٨٩]، وكان من هؤلاء الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن، فجاءا إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقالا: يا خليفة رسول الله؛ إن عندنا أرضاً سبخة، ليس فيها كلأ ولا منفعة، فإن رأيتَ أن تُقطعناها! فأجابهما وكتبَ لهما، وأشهدَ القوم - ولم يكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حاضراً - فقال لهما اذهبا إلى عمر ليشهد على الكتاب، فلما وصلا وأعطياه الكتاب مزقه وقال: إني لا أشهد على جور! فأقبلا إلى أبي بكر، وهما يتذمران، فقالا: ما ندري

---

٨٨ الحجرات، ١٤.
٨٩ التوبة، ٦٠.

والله؛ أنت الخليفة أم عمر؟! فقال أبو بكر الصديق: لا؛ بل هو لكنه أبى! وما ذاك؟ فأخبراه بالذي صنع، فقال: وإنا لا نجيز إلا ما أجازه عمر.
فجاء عمر فقال: يا أمير المؤمنين! أهذا الذي أقطعتهما أرض هي لك خاصة، أم للمسلمين عامة؟ قال: بل للمسلمين عامة. قال: فما حملك على أن تخصَّ بها هذين؟! قال: استشرت الذين حولي، فأشاروا عليَّ بذلك. وقد قلتُ لك: إنك أقوى على هذا مني فغلبتني[٩٠] (يعني يوم السقيفة، حين قدم عمر للخلافة فأبى التقدم وقدّم أبا بكر فبايعه).

وهنا لنا وقفة على جلية الأمر، فعيينة بن حصن الفزاري والأقرع بن حابس من سادة الجاهلية وفرسانها، فهما من المؤلفة قلوبهم الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم وخصص لهم عطاء غير ما للآخرين، وعلى ذلك سار أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فلما قصداه في هذا الأمر لم يأخذ في حسبانه ما أخذ عمر، ففي رواية أن عمر قال لهما: «إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما والإسلام يومئذ قليل، أما الآن فقد أعز الله الإسلام»، وما يؤكد هذه الرواية أنه حين تولى الخلافة بعد أبي بكر رضي الله عنه أوقف عطاء المؤلفة قلوبهم المخصوص وصار يعطيهم كما يعطي عامة المسلمين. فأبو بكر رضي الله عنه سار على منهج التألّف في وقت لم يعد الإسلام في حاجة إليه، ومن شاورهم في إقطاع الرجلين الأرض ساروا على النهج ذاته فأشاروا عليه بإقطاعهما الأرض. لكن عمر رضي الله

---

[٩٠] الجامع الصغير، للبخاري، والإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، ج٤، ص٦٤٠.

عنه نظر إلى حكمة التشريع وليس إلى ظاهره، فرأى ذلك جوراً، فتراجع أبو بكر وأقر بصواب رأي عمر، ولم يصادره ولم يقل له أنا أعطيت وانتهى الأمر ولا رجعة في العطاء، ولا قال له تفضل واجلس مكاني وأعط من شئت وامنع من شئت... ولا أياً من هذا الكلام، فقد هزته من أعماقه كلمة «جور» وهو الصدّيق، أيكون في خلافته جور ويمضيه بيده؟ لا يمكن له أن يمررها، فتراجع من فوره فأبطل رأيه، وهو الخليفة، وأخذ برأي عمر رضي الله عنه، وهذه قمة العدل في ما يسمونه «الديمقراطية»، ما يؤكد أنه لا مصادرة للرأي في الإسلام، الذي تمثل في سيرة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده.

## استخلاف عمر رضي الله عنه

يوجز بعضهم استخلاف عمر بن الخطاب بأنه رأي رآه أبو بكر رضي الله عنهما، والحقيقة غير ذلك، فلم تغب الآية الكريمة ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾[٩١] من حياة المسلمين في أبسط الأمور، فكيف تغيب في اختيار الخليفة؟ إذ إن أبا بكر رضي الله عنه، لما ثقل واستبان له من نفسه واتضح قرب أجله، جمع الناس إليه فقال: «إنه قد نزل بي ما قد ترون، ولا أظنني إلا ميتاً، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي وحل عنكم عقدتي، ورد عليكم أمركم، فأمِّروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمَّرتم في حياة مني كان أجدر

---

[٩١] الشورى، ٣٨.

ألّا تختلفوا بعدي»، فتشاور الصحابة، ثم رجعوا إلى أبي بكر فقالوا: «رأيُنا يا خليفة رسول الله رأيُك»[٩٢]، (فهو ترك الأمر لهم حراً بلا قيود ولا إشارات، لكنهم أعادوا الأمر إليه لما عرفوا خلال فترة خلافته ما لديه من الحكمة والحزم وإيراد الأمور مواردها وإصابة الرأي وفراسة في الناس) فقال: «فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده»، (فلم يختر من فوره، لأن الأمر خطير، فاختياره يجب أن يكون نصيحة «لله»، وهو ذاهب ليلقى الله، فبأي شيء يلقاه إذا اختار من لم يكن كفؤاً؟ ثم «لدينه»، وكيف يموت على دينه من لم يخلص النصيحة لدينه ويختار القوي الأمين ليقوم على حفظه وحمايته؟ ثم «لعباده» الذين إذا أوكلهم إلى ظالم أو فاجر أو مستبد فكلهم سيكونون خصومه عند الله ﴿يوم تبيض وجوه وتسودّ وجوه﴾[٩٣]، فوقع اختياره، بعد أن استشار بعض الصحابة، على عمر بن الخطاب، ثم كتب عهداً مكتوباً يُقرأ على الناس، وكان نص العهد: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آلُ اللهَ ورسولَه ودينَه ونفسي وإياكم خيراً، فإن عَدَلَ فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بَدّلَ فلكل امرئ ما اكتسب،

٩٢ الكامل، لابن الأثير، ج٢، ص٧٩.
٩٣ آل عمران، ١٠٦.

والخيرَ أردتُ، ولا أعلم الغيب، ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾[٩٤].

## قرار الخليفة تحديد المهور

جعل الله المرأة في مكانة لم تضعها فيها النظم الوضعية، فجعل الرجل يختار فيخطب، فإن شاءت قبلت به وإن شاءت ردته، ولم يسمح لوليها أن يجبرها على ما لا تريد، ولم يفرض عليها نفقة وإن كانت غنية أو عاملة منتجة، وإنما يجب على زوجها الإنفاق عليها، ومع ذلك فرض لها مهراً بنص القرآن الكريم: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾، أي «فرضاً» أو «واجباً» يقدمه لها الخاطب قبل عقد النكاح، ولم يحدد قيمة معينة، وإنما ترك الأمر لها ولخاطبها يتفقان عليه، فكان المهر يقل ويكثر بحسب القدرة المالية للخاطب وقناعة المرأة المخطوبة، وحرّم الله على الزوج أن يأخذ من مهر زوجته شيئاً إلا ما طابت به نفسها: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئاً﴾، وجعل لها أيضاً مؤخراً في حال الطلاق، في ما يشبه التقاعد، أو ما يماثل حق نهاية العمل الوظيفي في المؤسسات اليوم، فهناك مقدم ومؤخر يتفقان عليه، فالمرأة تقرر القيمة، والرجل إما أن يوافق وإما أن ينسحب إن لم تخفف عنه المرأة، فلا قوة تجبرها على القبول بما لا يرضيها. وحرّم الله على الرجل أن يأخذ منها شيئاً من مقدمها أو

---

[٩٤] تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص٤٠.

مؤخرها إذا أراد فراقها: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾.

وكان أكثر الناس في زمن النبي ﷺ في حال من الفقر لم تكن تسمح بالمغالاة في المهور، حتى إن أحدهم كان ليتزوج بالسورة من القرآن الكريم، وكانت النساء يراعين ظروف الخاطبين، فمن رضين به طلبن منه مهراً يتناسب مع قدرته المالية. لكن في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتحت الأمصار وفاض المال، وحين جيء بكنوز كسرى صار الناس يتقاسمون الذهب بالفؤوس، وكان عمر يحثو للرجل فيقول: «قد اكتفيت يا أمير المؤمنين»، فيلح عليه ويقول له: «تصدّق به». ورافق هذه الزيادة في السيولة المالية لدى الناس ارتفاع في مستوى المعيشة وبذخ في المأكل والمشرب والملبس، صاحبه ارتفاع في المهور، فلم يعد الرجل يتزوج بوزن نواة من ذهب أو فضة، أو بسورة من القرآن الكريم، بل إن الناس بالغوا في المهور مبالغات لم يكن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمع بها من قبل! فخشي أن يصعب التزوج على فقراء المسلمين، وخصوصاً الشبان الذين دخلوا معترك الحياة حديثاً بلا إرث ولا تأسيس، فخطب في الناس، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: «ألا لا تغلوا في صداق النساء، فإنه لا يبلغني عن أحد ساق أكثر من شيء ساقه رسول الله ﷺ أو سيق إليه إلا جعلت فضل ذلك في بيت المال»، ثم نزل. فعرضت له امرأة، فقالت: يا أمير المؤمنين، أكتابُ الله أحق أن يُتَّبع أم قولك؟ قال:

بل كتاب الله تعالى، فما ذاك؟ قالت: نهيت الناس آنفاً أن يغالوا في صداق النساء، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾[٩٥]. فقال عمر رضي الله عنه: كل أحد أفقه من عمر (مرتين أو ثلاثاً)، ثم رجع إلى المنبر فقال للناس: إني كنت نهيتكم أن تغالوا في صداق النساء، ألا فليفعل رجل في ماله ما بدا له. وفي رواية أن المرأة وقفت فقاطعته قائلة: لا يحل لك ذلك يا عمر! واستشهدت بالآية، فقال عمر: «رجل أخطأ وامرأة أصابت»[٩٦]، فتراجع عن القرار.

وهنا لا بد لنا من وقفة، فالقرار صدر عن أعلى سلطة في الدولة، وإن لم يُبْنَ على القاعدة الأساسية ﴿وأمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُم﴾، لكنه قرار قيادي أو رئاسي أو ملكي، إذا طرح للمناقشة فإنما يناقشه مجلس الشورى أو «وجوه الناس»، أما أن يقف شخص من عامة الناس فيعارض الزعيم القائد ويناقشه، بل وهذا الشخص ليس رجلاً وإنما امرأة، امرأة لم تذكر المصادر حتى اسمها، ما يدل على أنها من عامة الناس، فيتراجع الخليفة الحاكم الرئيس القائد الزعيم عن قراره فور سماع احتجاجها وحجتها، فهذا لا يكون إلا في الإسلام.

هذه الحادثة التي يحاول عدد من أعداء عمر، ومن أعداء الإسلام، إنكارها، زاعمين أنها موضوعة، وأثبتها أكثر من مصدر، منها السنن الكبرى للبيهقي، والزبير بن بكار في الموفقيات، وابن عبد البر في جامع العلم،

---

[٩٥] النساء، ٢٠.

[٩٦] تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج١، ص٤٦٨.

وابن الجوزي في سيرة عمر ص ١٢٩، وفي كتابه: الأذكياء ص ١٦٢، والقرطبي في تفسيره ج٥، ص ٩٩، وابن كثير في تفسيره ج١، ص ٤٦٧، والسيوطي في الدر المنثور ج٢، ص ١٣٣، وكذلك في جمع الجوامع، والسندي في حاشية سنن ابن ماجه ج١، ص ٥٨٤، والعجلوني في كشف الخفاء ج١، ص ٢٧٠، و ج ٢ ص ١١٨، ثم يخرج آخر زاعماً أنه يدافع عن مقام عمر رضي الله عنه، ليدس السم في العسل، فيكذّب القصة زاعماً أنها وضعت للطعن في عمر وأن امرأة أفقه منه، وهذا النمط من الناس يلعبون لعبة الذكاء بشكل فريد، إلا أننا نقول لهم إن عمر لم يكن نبياً يوحى إليه، وهو لم يحز كل الفقه، فقد كان أفقه من غيره في أمور، وكان غيره أفقه منه في أمور، وقد حدثت مسائل في خلافته استدعى لها الصحابة وسألهم من عنده علم في هذا؟ منها ما هو في المواريث، ومنها ما هو في حقوق الزوجات، وهناك أكثر من موقف ردد فيه عمر رضي الله عنه عبارة «كل الناس أفقه منك يا عمر». ويذكّرني مثل هذا الموقف بآخر صدر عن شخص جاهل، إذ قال عن حديث النبي ﷺ في السيدة عائشة رضي الله عنها: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء»، فكتب: «هذا حديث موضوع، وضعه الرافضة للطعن في السيدة عائشة بأنها حمارة»! فكتبت لذلك الجاهل: ليس في لغة العرب «حِمارة»، فأنثى الحمار «أتان»، وكلمة «الحميراء» تصغير «حمراء»، والتصغير يأتي لأغراض منها التحبب، ومنها التقليل والتحقير، والسيدة عائشة رضي الله

عنها لم تكن حمراء وإنما بياضها مشرب بحمرة، وهذا مما تحبه العرب، وقد ذُكر في وصف النبي ﷺ أنه كان أبيض مشرباً بحمرة، فكنّاها النبيُّ ﷺ بالحميراء تحبباً وإشارة إلى جمالها في عينيه.

ثم، تعال يا هذا! كيف تحكم على حديث بأنه موضوع وتحدد واضعه وتبين أسباب الوضع وغاياته، هكذا عشوائياً دون مستند أو أثرة من علم، وإنما اعتمدت على ثقافتك الضحلة وفهمك السقيم وعصبيتك ضد جهة ما؟ فكتب معتذراً: «هكذا ظننت حين فهمت خطأ»! فقلت له: «عذر أقبح من ذنب؛ وهل يؤخذ العلم بالظن»؟!

وموقف آخر، كان إلى جانبي رجل ظننته لطول لحيته فقيه زمانه، فلما انتهى الأذان دعوت الدعاء المأثور وفي ختامه «إنك لا تخلف الميعاد». فالتفت إليَّ غاضباً وصاح: «يا أخي هذا الكلام لا يجوز، هذا الكلام بدعة، فهو يخيّل أن الله يخلف الميعاد». قلت له يا أخي: «أنا أكدت أن الله لا يخلف الميعاد»! فقال: «وهل تحتاج صفات الله إلى تأكيد»؟ فشكّكني طول لحيته، فسكتُّ إلى أن رجعت إلى البيت فبحثت لأجدها مثبتة في رواية عدد من العلماء، وممن صححها ابن باز رحمه الله، وقد وردت في خواتيم سورة آل عمران في سياق دعاء: ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾[٩٧]، فعرفت أن ذلك الرجل جاهل يظن أن الفقه بطول اللحية، وأنه متى أعفى لحيته وأزال شاربه وقصّر

---

[٩٧] آل عمران، ١٩٤.

ثوبه أصبح له الحق في إطلاق الأحكام والطعن في الأحاديث والروايات منطلقاً من فهمه السقيم بانياً حكمه على الظن المحض.

والسؤال المهم: لماذا يحاولون رد قصة عمر رضي الله عنه والمرأة، أو تكذيبها، أو عدها موضوعة؟ السبب واضح، وهو ما نحاول إثباته من أن المرأة كانت لها مكانتها في الإسلام، حتى إنها تعارض القائد العام للدولة، وتقول رأيها فيسمعه، ويقبل بحجتها ويتراجع عن قراره، بل ويعترف بقوله: «كل الناس أفقه منك يا عمر»، نعم قد يكون هناك كثير من الناس أفقه من عمر، ولكننا لن نجد أعدل منه بعد النبيين، أو أكثر تواضعاً منه وهو يقول: «رجل أخطأ وامرأة أصابت»، ولم يقل أخطأ الخليفة، أخطأ عمر، أخطأ الفقيه الكبير، بل «رجل»، فهو كعامة الرجال يمكن أن يخطئ، والمرأة لها عقل وفهم، فيمكن أن تصيب كما يصيب أي ذي عقل وفهم. والقصة تبيّن عظمة شخصية عمر رضي الله عنه، فهذا القول وحده؛ «رجل أخطأ وامرأة أصابت»، قانون نأخذ منه سبعة جوانب:

١- الزعيم رجل من عامة الشعب، وليس له خصوصية تمنع معارضته.

٢- القائد ليس معصوماً، فيمكن أن تصدر عنه قرارات خاطئة.

٣- المرأة إنسان كالرجل، يمكن أن تصيب في موضع يخطئ فيه الرجل.

٤- على القائد أن يرجع إلى الحق لا يبالي مَنْ أرجعه إليه.

٥- المرأة في الإسلام تتمتع بكامل حريتها في إبداء الرأي، والاعتراض على أكبر رأس في الدولة، وتحاججه وتحجه، فيرجع عن قراره إلى رأيها.

٦- أن الإسلام ليس فيه استبداد في الرأي، وليس فيه مصادرة رأي، فالخليفة إذا أصدر قراراً وثبت له أنه خطأ تراجع عنه، وإذا عارضه أحد لم يقل له صه، فهذا قرار صادر من القيادة العليا للدولة ولا يحق لك مناقشته، وما عليك إلا التنفيذ.

٧- أن الباب مفتوح للمرأة للدفاع عن حقوقها المشروعة، فالمهر حقها، وحين أراد عمر رضي الله عنه أخذ شيء منه لبيت المال عارضته ودافعت عن حقها، ودفعته بالحجة إلى التراجع عن الخطأ ولزوم الصواب.

وهذا كله مما يسعى أعداء الإسلام بكل وسعهم إلى نفيه وتكذيبه، للغايات التي نعلمها في نفوسهم، لذلك يحاولون الطعن في هذه الحادثة وأمثالها، زاعمين أنهم يدافعون عن عمر رضي الله عنه أو غيره، وهم إنما يخفون صفحة مشرقة من صفحات الإسلام لطمس النقاط المضيئة في هذا النهج العظيم، فيجرّدون أسنتهم ويُعملون أقلامهم معتمدين زخرف القول لتمجيد شخص تعتز به الأمة وتفخر، في حين يطمسون نوراً أعظم من ذلك الشخص مهما بلغت أهميته في الإسلام، إذ يعِزُّ عليهم أن يجدوا في تاريخ الإسلام موقفاً يؤكد أن المرأة في الإسلام عزيزة مكرمة لها حريتها في التعبير والتصرف، وليست ممتهنة بلا كرامة ولا مكانة ولا أهمية - كما يدّعون - ما يجعلها تعارض الخليفة وتحاججه فتحجه وتنتصف لبنات جنسها من أعلى سلطة في الدولة، في حين يسعون إلى تأليبها على الإسلام وتحريضها على المروق منه ونبذه زاعمين لها أنه وضعها في عبودية

وغير ذلك من الافتراءات، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[٩٨].

ونقول للمرأة، إن حريتك ليست في خلع نقابك أو عباءتك أو خروجك من بيتك شبه عارية، فهذه حرية تمارسها المخلوقات الأخرى، أما الإنسان فقد كرّمه الله بثياب تستره، فقارني بينك وبين المرأة التي في القصة وهي التي تلبس عباءة وخماراً، لتعرفي الحرية الحقيقية.

## لا سمعاً ولا طاعة يا عمر

حين فاض المال على المسلمين بعد الفتوح صار عمر رضي الله عنه يقسم الأموال والثياب والعطايا بالتساوي بين المسلمين، فبعث إلى أبي حاتم العتبيّ بحُللٍ، فقسمها، فأصاب كلَّ رجل ثوبٌ. ثم صعد عمر المنبر وعليه حلة - والحُلّة ثوبان اثنان - فقال: أيها الناس ألا تسمعون؟ فقال سلمان: لا نسمع! فقال عمر: لمَ يا أبا عبد الله؟ قال: إنك قسمت علينا الثياب فأعطيتنا لكل رجل ثوباً واحداً، وأنت عليك حلة. فقال: لا تعجل يا أبا عبد الله. ثم نادى: يا عبد الله! فلم يجبه أحد، فقال: يا عبد الله بن عمر! فقال: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: نشدتك اللهَ، الثوبُ الذي ائتزرت به أهو ثوبك؟ قال: اللهم نعم. قال سلمان: «فقل الآن نسمع»[٩٩].

---

[٩٨] التوبة، ٣٢.
[٩٩] صفة الصفوة، ابن الجوزي، ج١، ص٢٠٣.

لم يأمر عمر سلمان بالجلوس أو السكوت، ولم يهدد أو يتوعد، وإنما نادى الشاهد وقرّره أمام المدعي «المعارضة» بالحقيقة، فشهد له وبرأه من الظنة، فقال سلمان من فوره: «فقل الآن نسمع»، أي الآن حل لك سماعنا، ولولا براءتك لما سمعنا ولا أطعنا.

إن المطالبة بالعدل والمساواة، أو الوقوف في وجه الظلم، أو الاعتراض على استئثار الخليفة بشيء من مال الأمة لنفسه أو أهله، أو ما يسميه بعضهم «الفكر الثوري»، ويحاول آخرون إنكار رواياته في تاريخ الإسلام، هو حقيقة قائمة في الإسلام، بل هو حق للرعية، ولا فضل للخليفة عليهم في شيء فوق العطاء (الراتب) المقرر له من مجلس القيادة أو الشورى، وما زاد على ذلك فإنه يطالب به، لأنه إن أخذه بجهل فإنه يُعَلَّم، وإن أخذه بعلم وبغير وجه حق فهو سارق، فكيف يقيم حد السرقة على غيره وهو السارق الأول؟ لذلك وقف سلمان الفارسي رضي الله عنه، ووقف من بعده الحسين رضي الله عنه، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وقالوا كلمة الحق، ورفضوا الظلم أو الاستئثار بمال الله على بقية المسلمين، ومن قبل كان أبو بكر رضي الله عنه أوصى قبل وفاته ببيع أرض له وجعل ثمنها في بيت مال المسلمين، عوضاً من الرواتب التي أخذها خلال خلافته، وقال لا آخذ أجراً على خدمة أمة محمد ﷺ. وفي خطبة أخرى قال عمر: أيها الناس، من رأى فيَّ اعوجاجاً فليقومه. فقام رجل، فقال: والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بسيوفنا. ففرح عمر ولم

ينهر ويقل له: تقويم الأمراء بالنصيحة والمشورة، وإنما قال: «الحمد لله الذي جعل في أمة محمد ﷺ من يقوم اعوجاج عمر بسيفه»! وقال في مجلس، وحوله المهاجرون والأنصار: «أرأيتم لو ترخصت في بعض الأمور ما كنتم فاعلين»؟ فقال ذلك مرتين، أو ثلاثاً: فقال بشير بن سعد: «لو فعلت ذلك قومناك تقويم القدح». فقال عمر: «أنتم إذاً أنتم»[١٠٠].

وولى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عروة بن محمد بن عطية على اليمن، فلما دخل قال: «يا أهل اليمن، هذه راحلتي، فإن خرجت بأكثر منها فأنا سارق». وخرج من اليمن وقد وليها سنتين وما معه إلا سيفه ورمحه ومصحفه![١٠١]

فإن كان بشار بن برد حين قال:

إذا الملكُ الجبّارُ صعّرَ خدَّهُ   مشينا إليه بالسيوفِ نعاتبُهْ

كان يقصد هذا الرعيل من الخلفاء فقد أصاب المعنى وصدق.

---

١٠٠ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، في ترجمة بشير بن سعد ـ رضى الله عنه ـ من عدة طرق يقوي بعضها بعضاً.

١٠١ تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، ج٧، ص١٦٩.

# القمع في الإسلام

# تنظيم تعددية المجتمع وإقرار الحقوق

عندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة كان فيها ثلاث قبائل من اليهود، وعلى رغم معرفتهم بصدقه وأن دعوته حق، وكما قال لهم يوم «أحد» حبرهم مخيريق: «يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمَّد عليكم لحقّ»[١٠٢]، فقد أبوا إلا عداوته والكيد له، باستثناء عدد قليل منهم كعبد الله بن سلام رضي الله عنه ومخيريق، ولم يكن موقفهم هذا إلا تكبرّاً وعصبية، ففي كتابهم بشارات بأن «خاتم النبيين من ذرية إبراهيم سيبعث في أرض من بلاد العرب ذات نخل بين حرتين» فبحثوا فوجدوا المواصفات تنطبق على «يثرب» فسكنوها بانتظار بعثته، على أمل أن يكون ذلك النبي منهم، وقد كانوا يهددون الأوس والخزرج بظهوره وأنهم سيقتلونهم بقيادته، ولملك اليمن «تبّع» قصة طريفة في هذا الأمر، ليس هذا مكانها. فلما بُعث النبي ﷺ من ذرية إسماعيل (جد العرب) وليس من ذرية أخيه إسحق (جد اليهود) أعرضوا وأضمروا له العداوة والمنابذة، مع أنهم كما قال الله تعالى: ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾[١٠٣].

---

١٠٢ سير أعلام النبلاء، للذهبي، ص٥٦١.

١٠٣ البقرة، ١٤٦.

فكان لا بد من تنظيم العلاقة بين المجتمع المسلم واليهود في قيمة «وطنية» لا تؤثر فيها القيم الدينية، وذلك لمصلحة الطرفين، وفي ذلك قول الله تعالى:

﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[١٠٤].

فأبرم النبي ﷺ مع اليهود اتفاقاً وعهداً مكتوباً تضمن سبعة وأربعين بنداً، فسمي في ما بعد «وثيقة المدينة»[١٠٥] حيث ضمنت مبدأ التعايش على أساس «وطني» يخص الجميع وينظم العلاقة بين الأطراف في الحرب والسلم والمعاملات والمناصرة والتعاون، كما ضمنت حقوق الجوار وحق نصرة المظلوم والتعاون معه على الظالم، وإقرار مبدأ الفردية الوارد في نص الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾[١٠٦] فلا يؤخذ فرد أو جماعة بذنب فرد.

وقد قال د. عبد الله الشرقاوي[١٠٧] في حديث تضمن تحليلاً لبنود الوثيقة: لا نعرف في تاريخ الفكر الإنساني نصاً يشبهه، قبل وثيقة المدينة، في التأسيس للعيش المشترك بين مواطني دولة ناشئة يحملون كل أشكال

---

[١٠٤] الممتحنة، ٨-٩.

[١٠٥] ينظر http://hrlibrary.umn.edu/arab/IS-1.html.

[١٠٦] فاطر، ١٨.

[١٠٧] https://ar.dawahskills.com/comparative-religion/%D8%AF

الاختلاف وصنوف التعدد! ومن هذه القيم: الإقرار بمبدأ التعددية بكل تجلياتها، والقبول بالآخر المختلف دينياً وعرقياً وثقافياً، فجاء تأكيد إقرار الإسلام التعددية الدينية في الفقرة الخامسة والعشرين من الوثيقة: «لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم»، ومع ذلك هم أمة واحدة سياسياً ودستورياً.

وهنا نلاحظ غياب القمع الفكري نهائياً، على المبدأ الإسلامي ﴿لا إكراه في الدين﴾، ومع محاولتهم الغدر بالنبي ﷺ في حادثة إلقاء الصخرة عليه وهو خارج من حيهم، تجاوز عنهم النبي ﷺ، لأنها لم تكن بيّنة ولم تسفر عن النتيجة التي خططوا لها. أما القمع السياسي الذي طرأ في ما بعد حين غدروا بالنبي ﷺ وبالمسلمين وخرقوا المعاهدة يوم الخندق، فهو رد فعل وعقاب على ما يمكن أن نسميه «الخيانة العظمى»، وطالما أن الخيانة تكشفت والعداوة كشرت عن أنيابها فلا يمكن لأحد أن يترك الأفعى في بيته، وبحث هذا النوع من القمع العدلي ليس من غايات بحثنا، فحين نتحدث عن القمع فإن الحقيقة والنزاهة والأمانة العلمية تقتضي تصنيفه في حقيقته؛ هل هو قمع محمود يقيم العدل ويقضي على الشر ويرد الظلم ويعيد الحقَّ إلى أهله والأمورَ إلى نصابها، أم هو قمع مذموم يجابه الحق ويصادر الرأي المنادى به ويمنع أهله منه، كما تقتضي التمييز بين إقامة العدل والإنصاف ورد المظالم أو دفع الشرور ومنع أضرار تتهدد أفراداً أو جماعات أو الأمة كلها بالقوة والسلطة، وإلزام الفرد مفهوم «الحرية» التي تنتهي حيث تبدأ حرية الآخرين، وكذلك المجموعات الإثنية، إذ تنتهي

حرياتها حيث تبدأ حريات المجموعات الأخرى، فتقوم العلاقة على مبدأ الاحترام المتبادل، سواء أكان ذلك في الرأي أم الممارسة، فهذا لا يسميه قمعاً إلا من رأى الظلم عدلاً والباطل حقاً، وقد مرت بنا قصة العاص بن وائل مع الزبيدي وأخذ جماعة حلف الفضول الحق منه لصاحبه، وقصة أبي جهل بن هشام مع الأراشي[١٠٨]، وأخذ النبي ﷺ له حقه، بأسلوبين قمعيين هما القوة والتهديد، فلذلك قلنا هناك قمع محمود وقمع مذموم.

# القمع المحمود في المنظور الإسلامي

لكل دعوة - سواء أكانت خيِّرة أم شريرة - دعوة مضادة، وذلك لأسباب كثيرة تقوم على مصالح شخصية أو مصلحة عامة، بحسب الدعوة وضدها، وهذا قائم منذ نزول أبينا آدم إلى الأرض الذي يمثل الخير والفطرة، ونزل معه الشيطان الذي يمثل الشر والخبرة: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾[١٠٩]. والعقل هو من يميز الخير من الشر. والعدلُ والنزاهة والحكمة من العقل، وأضدادُها من الجهل، ولا حكمَ لجاهل.

ومر بنا موقف الجاهليين من زيد بن عمرو بن نفيل، ومن دعوة الإسلام، فكان عداوة دائمة وكيداً مستمراً وحرباً لم تنتهِ إلا بانتهاء رؤوس دعاة الأصنام وعابديها.

---

١٠٨ ينظر ص٦٥ من هذا الكتاب.

١٠٩ طه، ١٢٣.

وقد بين لنا النبي ﷺ خطر السكوت على الرأي المخالف للجماعة، وخطر السكوت على الآراء التي تخالف الصواب، وذلك في قوله ﷺ: ﴿مَثَلُ القائِمِ علَى حُدُودِ اللَّهِ والواقِعِ فيها، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا علَى سَفِينَةٍ، فأصابَ بَعْضُهُمْ أعْلاها وبَعْضُهُمْ أسْفَلَها، فَكانَ الَّذِينَ في أسْفَلِها إذا اسْتَقَوْا مِنَ الماءِ مَرُّوا علَى مَن فَوْقَهُمْ، فقالوا: لو أنَّا خَرَقْنا في نَصِيبِنا خَرْقًا ولَمْ نُؤْذِ مَن فَوْقَنا، فإنْ يَتْرُكُوهُمْ وما أرادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وإنْ أخَذُوا علَى أيْدِيهِمْ نَجَوْا، ونَجَوْا جَمِيعًا﴾[١١٠].

فهم جميعهم تشاركوا في السفينة، فنصيب كل منهم فيها مساوٍ لنصيب كل من الآخرين، لكن إذا أراد أحد أن يحدث خراباً في حصته فعلى الآخرين منعه، وإن كان يظن أنه يريد الخير للآخرين في تقديره (ولم نؤذِ مَن فوقنا)، لأن الشر سيصيب الجميع، أما إذا قالوا: «هو حر في حصته منها» أو قال لهم «هذه حريتي الشخصية» فلم يمنعه أحد فإن الهلاك سيكون نصيب الجميع.

أما ممارسة هذا القمع المحمود في الإسلام فنجد فيها أسلوباً مختلفاً بحسب مدى الإضرار بالدعوة أو المجتمع ومستوى خطورته عليهما، وسنعرض لحالاتٍ تَبايَنَ تعامل النبي ﷺ مع أصحابها بناء على حجم الضرر الصادر عنهم، وإمكان السكوت عنه والصبر عليه إذا لم يتعد ضررُه محيطه الضيق، والمداراة والإكرام لمن كان شره كامناً في نفسه، ثم يأتي القمع

---

١١٠ صحيح البخاري، برقم ٢٤٩٣.

آخر الأساليب بعد السكوت والصبر، حين يتعدى الأذى حدود الاحتمال ويتحول الأمر إلى مشكلة قائمة يصل أذاها إلى المجتمع فيؤلمهم ويؤذيهم.

## السكوت والصبر رحمة للمخالف:

عبد الله بن أُبَيِّ بنِ سلول، رأس المنافقين، المخذِّل عند الحرب، والمرجف عند الخطر، والداعي إلى العصبية الجاهلية، وصاحب الإفك، القائل: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ»، فجاء به ابنه إلى رسول الله ﷺ ووضع السيف على عنقه حتى قال: «رسول الله الأعز وأنا الأذل».

قبل الإسلام كانت الحرب قائمة بين الأوس والخزرج، كلما هدأت أورتها الأحقاد والثأر واليهود الذين كانوا يتاجرون بين القبيلتين بالمؤن والسلاح. وحين بُعث محمد ﷺ نبياً أسلم عدد من أفراد القبيلتين، فكانت بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية، التي كان عدد المبايعين فيها ثلاثة وسبعين رجلاً، وامرأتان، كانوا من الأوس والخزرج، فقرّب الإسلام بين الطرفين وألغى الأحقاد، فتشكلت نواة الوحدة، ولم يكن النبي ﷺ قد أُمر بالهجرة.

وبعد عودة هؤلاء إلى المدينة سعوا في الصلح بين قبيلتيهم، وأعانهم على ذلك أصحاب الرأي وأهل الحكمة في القبيلتين، فنجحت المساعي وتم الصلح، ثم اتفقت القبيلتان على تنصيب ملك على «يثرب»، وحين لقيت الفكرة قبولاً لدى الجميع اتفقوا على اختيار الملك، فكان عبد الله بن أبي ابن سلول موضع اتفاق القبيلتين، وحين كانوا يَنْظِمون له خرزات التاج

هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، فبطل مشروع المُلك وصار حلمه سراباً. ولا يجهل أحد مدى صعوبة مثل هذا الأمر، فضياع مُلك من بين يديه، قبل أن ينهض، بين ليلة وضحاها، لا يحتمله إلا ذو يقين عظيم بقَدَر الله، وقلْبه مستسلم لقضائه، بل هو أمر كفيل بأن يحوّل صاحب الحلم المنهار إلى أعدى أعداء الدعوة، وهذا ما حدث، فقد أضمر ابن سلول العداوة للإسلام ولنبيه ﷺ ولأتباعه، وصار يتواصل مع اليهود ويعقد معهم الاتفاقات للعمل ضد الإسلام، واتفاقات أخرى مع أهل مكة، ويحاول نشر سمومه بين من يتقبلون كلامه أو يستمعون إليه أو الذين في قلوبهم مرض، فكان يثير الفتن ويسعى إلى الإرجاف، ويتفق مع جماعته على الانسحاب من الحرب في أول المعركة لينكسر المسلمون، وهو من بدأ قضية الإفك في حق أمنا السيدة عائشة رضي الله عنها، ولم ينقطع أذاه ولم يتورع عن استغلال أي سبيل لإثارة الفتنة.

جاء ابنه إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إن كنت آمراً أحداً بقتله فأنا أقتله! فقال له النبي ﷺ ﴿بل نُحْسِنُ صُحْبَتَهُ ما بَقِيَ مَعَنا﴾[١١١]. فقد كان رسول الله ﷺ ينظر بعين الرحمة إلى هذا الذي ضاعت منه الدنيا فأضاع لأجلها الآخرة، فكان ﷺ يرحمه رحمة الحكيم الذي يقدر الأمور ويضعها في نصابها، محكّماً ضميره في شأنه، فيراعي فيه الجانب الإنساني الذي استفزه الحقد وأوغر صدره افتقاده أبّهة ملك ومجداً ربما يستمر أجيالاً في

[١١١] تفسير ابن كثير، سورة المنافقون، ٨.

ذريته - بحسب تقديره - فكأنه ﷺ كان يستشعر ألم ذلك الرجل، فأبى عليه كرمُ نفسه أن يجمع عليه الحرمانَ من الحلم الكبير والقمعَ، فتركه وصبر على أذاه واحتمل بهتانه وإيغاره الصدور عليه وعلى دعوته وأتباعه حتى مات، فطلب ابنه من النبي ﷺ أن يعطيه ثوبه يكفّنه فيه، ففعل، وطلب منه أن يصلي عليه، ففعل، وطلب منه أن يستغفر له، ففعل[١١٢]. وهذا الأسلوب النبوي الجامع بين الرحمة والإنسانية والحكمة لن نجد له نظيراً.

## الإكرام لمن شرُّه كامن في نفسه:

عن أم المؤمنين السيدة عَائِشَةَ رضي الله عنها، أن رجلاً اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ ائْذَنُوا لَهُ فَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ، أَوْ بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ. فَلَمَّا دَخَلَ أَلاَنَ لَهُ الْكَلاَمَ! فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ! قُلْتَ مَا قُلْتَ ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ فِي الْقَوْلِ! فَقَالَ: ﴿أَيْ عَائِشَةُ! إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ تَرَكَهُ - أَوْ وَدَعَهُ - النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ﴾[١١٣].

وفي ذلك يقول تلميذ المدرسة المحمدية الصحابي الزاهد أبي الدرداء رضي الله عنه: «إنا لَنَبُشُّ في وجوه أقوامٍ وقلوبنا تلعنهم»! وذلك في نوع من المداراة للفاحش بذيء اللسان الذي لا ضرر منه سوى قلة أدبه، فكأنما يشتري سلاطة لسانه بلقائه بالبشاشة، وهذا لا يعد من المداهنة، فالمداهنة تكون لنيل مصلحة ما، أما هنا فلا مصلحة شخصية، سوى كف شر

---

[١١٢] صحيح البخاري، ٤٦٧٠.

[١١٣] صحيح البخاري، ٦٠٥٤.

الشخص وأذاه عن الأفراد والمجتمع. ولو كان الإسلام قمعياً لاتخذ منه موقفاً يقطع لسانه وربما رأسه، كما تفعل كثير من السلطات بمن تخشى ألسنتهم على الإساءة إلى الدولة أو الشعب أو الحكومة.

## العفو عن زلة المحسن وإن عظمت:

كان حاطب بن أبي بلتعة لخمياً مقيماً في مكة، وكان حليفاً لبني أسد بن عبد العزى في الجاهلية، وقد أسلم وهاجر إلى المدينة المنورة، وآخى النبي ﷺ بينه وبين رخيلة بن خالد من الأنصار، فكان ذا سابقة في الإسلام، إذ شهد مع النبي ﷺ غزواته كلها، وكان من الرماة المعدودين، وأوفده النبي ﷺ رسولاً منه إلى المقوقس عظيم القبط، الذي استقبله وأكرمه وأرسل معه مارية القبطية وأختها سيرين هدية للنبي ﷺ. وكان لحاطب أهل وولد في مكة، وحين بدأ النبي ﷺ يعد لفتح مكة أراد أن تكون له يد عند قريش ليستأمن لأهله، لأنه غريب في قريش لا يأمن انتقامهم من أهله، فبعث إليهم رسالة مع امرأة يحذّرهم من هجوم المسلمين عليهم. ونزل الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ على رسولَ الله ﷺ بِمَا صَنَعَ حَاطِبٌ، فَبَعَثَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ والزُّبير بْنَ الْعَوَّامِ والمِقْدادَ بنَ الأسْوَدِ، رضي الله عنهم، فَقَالَ: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا»، فأدركوها، فَاسْتَنْزَلوهَا فنزلت، فَالْتَمَسَوا الكتاب فِي رَحْلِهَا، فَلَمْ يَجِدَوه، فَقَالَ لَهَا عَلِيٌّ: «إِنِّي أَحْلِفُ بِاللَّهِ مَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَا كُذِبْنَا، وَلَتُخْرِجِنَّ لَنَا هَذَا الْكِتَابَ أَوْ لَنَكْشِفَنَّكِ»، فَلَمَّا رَأَتِ الْجِدَّ مِنْهُ قَالَتْ: أَعْرِضْ، فَأَعْرَضَ،

فَحَلَّتْ قُرُونَ رَأْسِهَا، فَاسْتَخْرَجَتِ الْكِتَابَ مِنْ عِقاصِ شَعْرِها، فَدَفَعَتْهُ إِلَيْهِ، فَأَتَى بِهِ رَسُول اللَّهِ ﷺ. فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَاطِباً فَقَالَ: يَا حَاطِبُ، مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تعجل عليَّ، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَمُؤْمِنٌ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، مَا غَيَّرْتُ وَلَا بدَّلْتُ، ولكنني كنتُ امرأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ أكن من أنفسها، ولَيْسَ لِي فِي الْقَوْمِ مِنْ أَصْلٍ وَلَا عَشِيرَةٍ ، وكان مَن معك من المُهاجرين مَن لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببتُ إذا فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عندهم يداً يحمون قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ ارْتِدَاداً عَنْ دِينِي، وَلَا رِضاً بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ﴾، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْراً، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْراً فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ﴾[١١٤]! جريمة كبرى ارتكبها حاطب، تسمى اليوم «الخيانة العظمى»، وحكمُها الإعدام في كل الأنظمة وقوانين الحرب، لكنه له سابقة في الإسلام، بل سوابق، فقد دخل الإسلام منذ أيام الضعف، وهاجر في سبيل الله وترك عياله في مكة، وشهد بدراً وغيرها، وأبلى في كل المعارك التي شهدها، ولم تظهر منه خيانة! وشهوده بدراً كافٍ لِما كان لتلك المعركة من فضل وتأسيس لقوة الإسلام، وكان المسلمون قلة ضعفاء، وأعداؤهم ثلاثة أضعافهم من الأقوياء، لكنهم خاضوا المعركة المصيرية بيقين وثبات، فنصرهم الله وجعل لهم أفضلية

---

[١١٤] صحيح البخاري، ٤٨٩٠.

على غيرهم، وكان الصحابة رضي الله عنهم يعرفون قدر «أهل بدر» أو «البدريين»، حتى إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حين ولي الخلافة أبى أن يُغزيَ أحداً منهم في المغازي التالية، لأنهم - كما يرى - أدّوا ما عليهم في الجهاد، وكان هو وعموم الصحابة يعرفون لهم أقدارهم ويتجاوزون عن زلاتهم. لكن الوضع هنا مختلف، فهو خيانة عظمى وإنذار لجيش الأعداء ليكون مستعداً للمعركة، وقد ينصب كميناً لجيش المسلمين فيهلكهم أو يهزمهم، وهكذا رأى عمر رضي الله عنه وجوب إقامة حد الخيانة العظمى عليه بقتله، لكن السابقة العظيمة وقفت في وجه هذا الغضب وهذه النقمة لتقول: إن الله قد غفر لأهل بدر ما سيكون منهم، فذنب حاطب مغفور، فلا حدَّ عليه، فإن قُتل فإن قتله سيكون بدافع الحنق البشري لا التشريع الإلهي، والوحيُ الذي نزل بخبر الخيانة نزل بتصديق اعتذار حاطب، فقال ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ»، فلم يشكَّ أحد بأن حاطباً يبحث لنفسه عن منجاة باعتذاره هذا، فلا قمع ولا قهر ولا أدنى عقاب على هذه الخيانة العظمى، وهو درس عظيم لمن ينسى الفضائل ويحاسب على الزلات، وتختفي الحسنات من ذاكرتهم عند ظهور أولى السيئات، فكان منهج نبي الرحمة في دين الرحمة ﷺ أن يحفظ له سابقته ويتجاوز عن زلته، لأن الله غفر له مسبقاً، ولأن سابق حسناته أكبر من جريمته، وكان صادقاً في اعتذاره، مع إقراره. وهذا خاص بأهل بدر لا يكون لمن بعدهم. وهو أيضاً إثبات لغياب القمع من سيرة النبي ﷺ.

## بذل الفرصة للعدو المحارب ليشهد الحقيقة:

بعد غزوة الأحزاب وقريظة، أرسل النبي ﷺ سرية بقيادة محمد بن مسلمة في مهمة عسكرية ضد بني القرطاء في أرض نجد، وفي طريق عودة السرية أسروا سيد بني حنيفة ثمامة بن أثال، وهم لا يعرفونه، فقدموا به المدينة المنورة وربطوه بسارية من سواري المسجد، فلما خرج إليه الرسول ﷺ قال: «أَتَدْرُونَ مَنْ أَخَذْتُمْ؟ هَذَا ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ الْحَنَفِيّ، أحْسِنُوا إسَارَهُ»، ورجع إلى أهله، فقال لهم: «اجْمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ مِنْ طَعَامٍ فَابْعَثُوا بِهِ إِلَيْهِ». ثم خَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، (لم يبين الرواة معنى «ذَا دَمٍ»، لكن من الواضح من ظاهرها أنه عدو محارب، وربما في عنقه دم بعض المسلمين)، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ المَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ. فَتُرِكَ حَتَّى كَانَ الغَدُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ ﷺ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ؛ إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ. (ولم يقل كما قال أمس: «إن تقتل تقتل ذا دم» إذ يبدو أنه حين رأى النبي ﷺ استبقاه طمع بالعفو).

فَتَرَكَهُ ﷺ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الغَدِ، فَقَالَ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَك. (ولم يذكر شيئاً، واثقاً بأن النبي ﷺ اتخذ فيه قراراً). فَقَالَ النبي ﷺ: أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ. فَانْطَلَقَ إِلَى نَخلٍ قَرِيبٍ مِنَ المَسْجِدِ، فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ المَسْجِدَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، يَا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ

وَجْهُكَ أَحَبَّ الوُجُوهِ إِلَيَّ! وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ! وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ البِلاَدِ إِلَيَّ! وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ العُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: صَبَأْتَ! قَالَ: لاَ، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلاَ وَاللَّهِ لاَ يَأْتِيكُمْ مِنَ اليَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ، حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ.[١١٥]

وتكفينا عبارة «إن تقتل تقتل ذا دم» بأن تفتح باب الثأر ليأخذ القمع مجراه لو كان هناك قمع، لكن النبي ﷺ آثر الأجمل والأليق بدينه دين السلام والرحمة، الدين الذي تعامل بالعفو والحوار والإقناع لا الشدة والقمع، فأكرمه وهو أسير، ثم أطلقه، وكان الرجل مبغضاً للنبي ﷺ ودينه وبلده، لكنه حين رأى ثمرات هذا الدين من كرم نفوس وعفو عند المقدرة ورحمة، إضافة إلى بقائه ثلاثة أيام مربوطاً بسارية مسجد النبي ﷺ، يشهد صلاتهم، ويسمع القرآن والموعظة، فَلانَ قلبُه، وكيف لا يلين وقد لان الجذع اليابس حتى بكى وسمع بكاءه كلُّ من في المسجد؟! كان ثمامة يسمع من قريش عن النبي ﷺ ما لا يسر، فاتخذه عدواً، وربما شارك في قتال صحابته وقتل بعضهم، كما يبين قوله: «إن تقتل تقتل ذا دم»، فكان حكمه على النبي ﷺ وعلى دينه صادراً عن غير معرفة، معتمداً على شهادة الزور التي روّجها أعداؤه، أما حين سمع ورأى فقد انحرف المقياس مئة وثمانين درجة،

---

[١١٥] صحيح البخاري، ٤٣٧٢.

وأصبح عقله وفكره في الصف المقابل؛ أصبح وجه النبي ﷺ أحب الوجوه إليه، ودينه أحب الأديان إليه، ومدينته أحب البلاد إليه.

## الحِلْمُ والمفاتحة بالحقيقة:

ولعلنا نجد شبهاً بين ما جرى لثمامة بن أثال، وما مر بنا من اتفاق بن صفوان بن أمية وعمير بن وهب على اغتيال النبي ﷺ بالسيف المسموم، إلا أن عميراً حين وصل إلى المدينة فاجأه النبي ﷺ بذكر ما جرى بينه وبين صفوان من حديث، والموضع الذي كانا فيه، والاتفاق الذي عقداه، والسيف المسموم، وكان ذلك بوحي من الله سبحانه[١١٦]. والسؤال الذي نطرحه هو: طالما أن النبي ﷺ علم بالقصة كلها، وبأن عميراً جاء ليقتله بسيفه المسموم، فلماذا لم يأمر باعتقاله لحظة وصوله وقتله لإحباط خطته، بل أعطاه الفرصة لمحاورته، ولم يعمل بمبدأ «يتغدى بخصمه قبل أن يتعشى خصمه به»؟ الاحتياط في مثل هذا واجب، ولو فعله وقتله فور وصوله لكان معذوراً في ذلك، لأنه ربما استل سيفه في أول اللقاء وقتله به، بل يكفي أن يخدشه بأي موضع من جسده، فالسيف مسموم والمنية كامنة فيه لأي لامس؟! لكن النبي ﷺ لم يفعل، وإنما استدناه ثم أخبره بخطته، فتراجع عمير وأعلن إسلامه.

---

[١١٦] ينظر ص٨٣ من هذا الكتاب.

## العفو عند المقدرة بلا شروط:

في غزوة ذاتِ الرِّقاعِ، أتى الصحابة رضي الله عنهم عَلَى شَجرةٍ ظَلِيلَةٍ، فتركْوهَا لرسول اللَّه ﷺ، وخلال إغفاءته تسلل رجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِين، وَسَيفُ رَسُول اللَّه ﷺ مُعَلَّقٌ بالشَّجرةِ، فاخْترطهُ المشرك، فانتبه النبي ﷺ من إغفاءته، فَقَالَ له المشرك: تَخَافُنِي؟ فقَالَ ﷺ: لا. فقَالَ المشرك: فمَنْ يمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ ﷺ: اللَّه. فصرخ المشرك وسقَطَ السَّيْفُ مِنْ يدِهِ! فَأَخَذَ رسَول اللَّه ﷺ السَّيْفَ فَقال: منْ يمنعُكَ مِنّي؟ فَقال: كُن خَيْرَ آخِذٍ. فَقَالَ ﷺ: تَشهدُ أنْ لا إلَه إلاَّ اللَّهُ، وأنِّي رسولُ اللَّه؟ قَالَ: لاَ، ولكِنِّي أعاهِدُك ألّا أقَاتِلَكَ، وَلاَ أكُونَ مَعَ قَومٍ يُقَاتِلُونَكَ، فَخلَّى سبِيلهُ.[١١٧]

أين الانتقام؟ أين القمع؟ أين اغتنام الفرصة وقتل مشرك محارب في معركة، كاد يقتل القائدَ الأعظم للأمة والنبيَّ الذي يبين لها دينها، غيلةً؟

ليس في القصة بقية! هذا كل شيء: «فخلى سبيله»! هل يمكن أن يحدث هذا؟ نعم حدث مع إنسان مثلنا لكننا لسنا مثله، فهو الذي قال له الله سبحانه ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي﴾[١١٨]، فقد حدث الأمر مع رجل أرسله الله ﴿رحمةً للعالمين﴾[١١٩] ﷺ.

---

[١١٧] مسند أحمد بن حنبل، برقم ١٤٩٢٩. وفي البخاري بلفظ آخر.
[١١٨] الكهف، ١١٠.
[١١٩] الأنبياء، ١٠٧.

## العفو بعد التمكن وطي صفحة الماضي:

آذى أهل مكة نبي الله ﷺ أذى كثيراً، ونكّلوا بأصحابه، وقتلوا من قتلوا منهم، فاضطروهم إلى الهجرة ومفارقة الأهل ثلاث مرات، مرتين إلى الحبشة، ومرة إلى المدينة المنورة، ومنعوا النبي ﷺ من دخول مكة حين ذهب إلى الطائف لدعوة ثقيف، ثم أجمعوا على قتله غيلة وتفريق دمه بين القبائل ليموت ويموت ثأرُه معه، ولما هاجر إلى المدينة بذلوا مئة ناقة لمن يأتي برأسه، وبعد هجرته ﷺ أرسلوا لاغتياله، ثم اتفقوا مع اليهود على ذلك، ثم أصروا على قتاله واستئصال شأفته ودينه، ثم جمعوا له وقاتلوه وصحبَه في «أحُد»، ثم جمعوا القبائل والأحلاف لمهاجمة المدينة المنورة وقتل النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار، فجمعوا عشرة آلاف فارس من معظم قبائل العرب، جيش لو انتصر لم يكن ليبقي رأساً على كتف ولا حجراً على حجر، لولا أن هزمهم الله وأرسل عليهم ﴿رِيحاً وَجُنوداً﴾[١٢٠] لم يروها. ثم عقدوا معه صلح الحديبية، ثم دبّروا مع أحلافهم من بني بكر مكيدة، وخطّطوا للتآمر على بني خزاعة أحلاف النبي ﷺ في مكّة؛ وانتهزوا فرصة انشغال المسلمين بالدعوة وإرسال السرايا حول المدينة المنورة، فأغار بنو بكر على بني خزاعة ليلاً بعد أن أمدّتهم قريش بالسلاح، وقتلوا منهم ثلاثةً وعشرين شخصاً، معظمهم من النساء والأطفال

---

[١٢٠] الأحزاب، ١٠٩.

والشيوخ، في مكان يسمى «الوتير»، فتوجه عمرو بن سالم الخزاعي إلى النبي ﷺ في المدينة يُخبره بما حدث، وأنشد:

يَـــا ربّ إنـــّي نَاشِــدٌ مُحمّدا ... حِلـفَ أبينَا وأبيــه الأتـــلَدا
قَــد كُنـــتُم وَلدَاً وكُنّا وَالِـداً ... ثمّــت أَسلمنَا فَـلم نَنزِع يَدا
فانْصُر هَدَاك الله نصراً أعتدا ... وادْع عِــبَاد الله يَأتُــوا مدَدا
فيهــم رسُـــول الله قَد تجرّدا ... إن سِيمَ خَسْفاً وجـــهه تَربدا
في فَيلقٍ كالبَحرِ يجري مزبدا ... إن قُريشَاً أخلَفُـوكَ المَوعِدا
ونَقَضُـــوا مِيثَاقـــك الموكدا ... وجَعلُوا لي في كدَاء رصدا
وزعمُوا أنْ لست تدعُوا أحَدا ... وهُـــم أذَلُّ وأقـــلُّ عَددا
هـــم بيتـــونَا بالـوَتير هُجَّدا ... وقَتَلُـــونَا رُكّـــعَاً وسُجّدَا

فأجابه النبي ﷺ: «نُصِرتَ يا عمرو بنَ سالمٍ».

فأراد النبي ﷺ حل الأمر سلمياً، فأرسل إلى قريش يخيّرهم بين دفع ديات القتلى إلى بني خزاعة، أو التخلي عن حلف بني بكر، فأخذتهم العزة بالإثم وأبوا الخيارين، فزادوا إلى الأسباب القديمة سبباً جديداً وهو الاستهانة بالمسلمين وحلفهم، ما قد يفتح أبواباً أخرى من النقض عند كل القبائل التي في حلفها، إضافة إلى إحراج النبي ﷺ الذي لن يثق أحد بحلفه بعد ذلك، إلى جانب بقاء الحادثة سُبّة بين الناس، لعدم نصرته أحلافه. فلما بلغ قريشاً أن النبي ﷺ يعد جيشه لفتح مكة ندموا على فعلتهم وأرسلوا أبا سفيان إلى المدينة ليعقد حلفاً جديداً، لكن الأوان قد فات، فأي حقد زرعته أفعالهم هذه

في صدره ﷺ وصدور أصحابه؟ وأي انتقام عظيم ينتظر قريشاً بعد كل هذه الجرائم إذا تمكنوا منها؟! ألا يشفون صدور اليتامى والثكالى والأرامل الذين قتل هؤلاء المشركون آباءهم وأمهاتهم وأبناءهم وأزواجهم؟ هذا هو رد الفعل الطبيعي لدى المنتصر، فالثأر على الأقل، إن لم يكن هناك انتقام! وهذا ما ظنه كثير من الناس، ومنهم سعد بن عبادة رضي الله عنه، ففي يوم فتح مكة حين سار النبي ﷺ إليها بعشرة آلاف فارس، وكان قد أضمر في نفسه الرحمة وعدم إراقة الدماء، فهو نبي فاتح لا مجرد قائد منتصر، فأمر عمه العباس بأن يكمن مع أبي سفيان في واد ضيق كي تمر عليه القبائل الكثيرة فيقع الخوف في قلبه ويوقن بأن المسلمين جاؤوهم بما لا قِبل لهم به من الجند، وأن المشركين لن يثبتوا أمامهم وسينهزمون لا محالة، فيستسلم بلا قتال. فكان أبو سفيان يقول عند مرور كل قبيلة: «ما لي ولبني فلان»؟ حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، فقال: من هذه؟ فقال العباس: هؤلاء الأنصار، عليهم سعد بن عبادة معه الراية، فلما رأى سعد بن عبادة أبا سفيان نادى: اليوم يوم الملحمة   اليوم تستحل الحرمة

فقال أبو سفيان: يا عباس، حبذا يوم الذمار! ثم جاءت كتيبة وهي أقل الكتائب، فيها رسول الله ﷺ والمهاجرون، والراية مع الزبير بن العوام، فلما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ قال ما قال؟ قال: قال كذا وكذا. فقال ﷺ: ﴿كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الحرمة ويوم تكسى فيه الكعبة﴾. فقال عدد من الصحابة: «يا رسول

الله، إنا نخشى أن تكون لسعد في قريش صولة، فأرسل النبي ﷺ بنقل الراية من سعد بن عبادة إلى ابنه قيس بن سعد، رضي الله عنهما».

وبعد أن تم الفتح وسقط في أيدي أهل مكة جاءت ساعة الانتقام والثأر والعقوبة، واجتمع الناس عند البيت وعيونهم معلقة بالنبي ﷺ تنتظر الأمر بجز الرؤوس، وقتل المقاتلة والذين في رقابهم دم للمسلمين، في أقل تقدير!

فانفرجت شفتاه ﷺ بنور نبوي مشرق بالأمل: «يا معشرَ قريشٍ، ما ترَونَ أنِّي فاعلٌ بكم»؟ ففتح الأمل باباً آخر هو باب الاسترحام لما عرفوه فيه ﷺ من خير لا يدركه بشر، فقالوا: «خيراً، أخٌ كريمٌ، وابنُ أخٍ كريمٍ»، فقال ﷺ كلمة ظل صداها مدوياً أربعة عشر قرناً: ﴿اذهبوا فأنتم الطُّلَقاءُ﴾![١٢١]

ودماء الصحابة في بدر وأحد! ودم عمه أسد الله حمزة بن عبد المطلب! ودم مصعب بن عمير! ودم سعد بن معاذ! ودموع اليتامى والثكالى والأيامى! ودموع الذين فقدوا أحبتهم بسيوف قريش! كيف سيطفئ النبي ﷺ حرقة قلوبهم على من فقدوا؟ هل تذهب كلها بلا ثأر؟ الجواب ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[١٢٢] فلا قمع ولا انتقام ولا ثأر، هي الرحمة فقط، الرحمة ولا شيء غيرها! فمن أين يأتي أنصافُ المثقفين جهلةُ القلوب عُمْيُ البصائر بأن الإسلام دين قمعي؟! ربما لو سألوا الطبيب المؤرخ

---

[١٢١] البداية والنهاية، ج٤، غزوة الفتح الأعظم.
[١٢٢] الأنبياء، ١٠٧.

عالم الأنثربولوجيا الفرنسي غوستاف لوبون عن معنى قوله: «لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب»، (ولا يخفى على أحد أنه يعني المسلمين، فالعرب لم يفتحوا قبل الإسلام بلاداً، وحين تخلوا عن الإسلام ورجعوا إلى الاجتماع تحت راية القومية العربية أصبح الروم والفرس واليهود يفتحون بلادهم تباعاً)، وقوله: «إن حضارة العرب المسلمين أدخلت أمم أوربا الوحشية في عالم الإنسانية»، لَتَعلّموا شيئاً من الإنصاف في الأحكام حتى حين تصف عدواً أو تصنّفه، لكن هؤلاء الذين لا يريدون الحقيقة فيسعون إلى طمسها، يصدق فيهم قول الشاعر:

إن يعلموا الخير يخفوه، وإن علموا شراً أذاعوا، وإن لم يعلموا كذبوا

## الموقف من محاولة الاغتيال الجماعي:

بعد فتح خيبر واطمئنان النبي ﷺ والصحابة، جعلت زينب بنت الحارث تسأل أي أجزاء الشاة أحب إلى محمد؟ فأُخبرت بأنه يحب الذراع، فعمدت إلى عنز لها فذبحتها، ثم شاورت اليهود فأجمعوا لها على نوع من السم بعينه زعاف، فسمّت الشاة وأكثرت في الذراعين. فلما غابت الشمس صلى رسول الله ﷺ المغرب وانصرف إلى منزله، فوجد زينب جالسة عند رحله، فقالت له: أبا القاسم هدية أهديتها لك. وكان ﷺ يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فأمر بالهدية فقبضت منها ووضعت بين يديه ثم قال لمن حضر من أصحابه: ادنوا فتعشوا، فدنوا فمدوا أيديهم، وتناول رسول الله ﷺ

الذراع وأنهش منها نهشاً، وتناول بشر بن البراء عظماً وانتهش، وفجأة ازدرد النبي ﷺ نهشته، فلما رآه بشر ازدرد هو أيضاً أكلته، فقال الرسول ﷺ: كفوا أيديكم، فإن هذه الذراع تخبرني أنها مسمومة!

ودعا النبي ﷺ بزينب فقال سمّمتِ الذراع؟ فقالت من أخبرك؟ قال الذراع. قالت نعم. قال وما حملك على ذلك؟ قالت قتلت أبي وعمي وزوجي، ونلت من قومي ما نلت، فقلت: إن كان نبياً فستخبره الشاة ما صنعت، وإن كان ملكاً استرحنا منه. وروى الحادثة الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه «أنَّ امْرَأَةً يَهُودِيَّةً أَتَتْ رَسولَ اللهِ ﷺ بشَاةٍ مَسْمُومَةٍ، فأكَلَ منها، فَجِيءَ بهَا إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَسَأَلَهَا عن ذلكَ؟ فَقالَتْ: أَرَدْتُ لأَقْتُلَكَ، قالَ: ما كانَ اللَّهُ لِيُسَلِّطَكِ علَى ذَاكِ (أَوْ قالَ، عَلَيَّ). فقالوا: أَلَا نَقْتُلُهَا؟ قالَ: لَا. قالَ أنس: «فَما زِلْتُ أَعْرِفُهَا في لَهَوَاتِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ»[١٢٣].

وقد فسّر بعض العلماء قول أنس رضي الله عنه: «فَما زِلْتُ أَعْرِفُهَا في لَهَوَاتِ رَسولِ اللهِ ﷺ» بأنه أثر السم في أقصى فمه ﷺ، أي «اللهاة»، وجمعها «لهوات». لكن لفت انتباهي أنه قال «لهوات» ولم يقل «لهاة»، وللمرء لهاة واحدة وليس لهوات! فتبادر إلى ذهني أن الضمير «ها» في قوله «أعرفها»، يعود على اليهودية، التي قيل إنها أسلمت بعد الحادثة، وقد جاء في لسان العرب: «اللُّهْوة: العَطيَّة، دَراهِمَ كانت أَو غيرها». فبدا

---

١٢٣ صحيح البخاري، برقم ٢٦١٧.

لي أن أنساً رضي الله عنه قصد المرأة بقوله «فما زلت أعرفها في لهوات رَسولِ اللهِ ﷺ»، أي أنه مازال - في الأزمنة التالية - يعرف تلك المرأة في من يرسل إليهم النبي ﷺ لهواته (عطاياه)، أي أنها بقيت على قيد الحياة، والنبي ﷺ ظل يرسل إليها العطايا، وهي مبالغة في العفو ليست مستغربة من النبي ﷺ. وهذا يفند قول من قالوا إنها قتلت قصاصاً لموت أحد الصحابة الذين أكلوا من اللحم المسموم. ويؤكد قول من قالوا إن الصحابي لم يمت فلم تُقتل، وقد عفا الرسول ﷺ عن حقّه الشخصي (محاولة اغتياله). وكان عدد من الصحابة وضعوا أيديهم في الطعام ولم يأكلوا منه شيئاً. فاحتجم ﷺ على كاهله، وأمرهم فاحتجموا.

القمع هنا حق، فمحاولة الاغتيال بينة بالأدلة واعتراف الجانية، بل إن القمع هنا علاج ومانع للشر، لأنها قد تعيد الكرة حتى تنجح محاولتها، لكن النبي ﷺ عفا عنها وسامحها بالواقع المشهود، فكيف يأخذها بظن ما يمكن أن تفعله في المستقبل؟ ثم تأتي التتمة: «فَما زِلْتُ أَعْرِفُهَا في لَهَوَاتِ رَسولِ اللهِ ﷺ»، إن صح تفسيرنا اللُّهْوة بالعَطيَّة، ليطلَّ من تفاصيل هذه الحادثة السؤال المهم: أين القمع؟ أليس في الإسلام قمع؟ أكُلُّه عفو وصفح؟!

## المباهلة عند فشل الحوار:

مر بنا أن نجران انتشرت فيها النصرانية، وتعرض أهلها لأعظم حادثة قمع، وهي الحرق بالنار وهم أحياء. وحين بُعث النبي ﷺ وهاجر واستقرت

الأمور في صلح الحديبية، أرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، ولكن يبدو أنه أرسل إلى أسقف نجران قبل ذلك، لأنه لم يبدأ رسالته بالبسملة، وقال ابن كثير إنه أرسلها قبل أن تنزل عليه سورة النمل، وفيها الآية:
﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[١٢٤]، ونص الرسالة:
«باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، من محمد النبي رسول الله إلى أسقف نجران، إن أسلمتم، فإني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم آذنتكم بحرب، والسلام».
فلما أتى الأسقفَ الكتابُ فقرأه قُطع بهِ، وذعر به ذعراً شديداً، وبعث إلى شرحبيل بن وداعة الهمداني، فدفع إليه الكتاب فقرأه، فقال الأسقف: يا أبا مريم ما رأيك؟ فقال: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، فما تؤمن أن يكون هو ذاك الرجل، وليس لي في النبوة رأي، ولو كان أمراً من أمور الدنيا لأشرت عليك فيه. فبعث الأسقف إلى عبد الله بن شرحبيل الحميري، فأقرأه الكتاب، فقال له مثل قول شرحبيل. فأرسل الأسقف إلى جبار بن فيض من بني الحارث بن كعب، فأقرأه الكتاب، فقال له مثل قول سابقيه، فلما اجتمع رأيهم على تلك المقالة أمر الأسقف بالناقوس فضرب به، فاجتمع أهل الوادي أعلاه وأسفله، وفيه ثلاث وسبعون قرية، ومئة وعشرون ألف مقاتل، فقرأ عليهم كتاب رسول الله

---

[١٢٤] النمل، ٣٠.

ﷺ، فاجتمع رأي أهل الرأي منهم أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمداني، وعبد الله بن شرحبيل الأصبحي، وجبار بن فيض الحارثي، فيأتوهم بخبر رسول الله ﷺ. فلما بلغوا المدينة لبسوا حللاً يجرونها من حبرة وخواتيم الذهب، حتى أتوا رسول الله ﷺ فسلموا فلم يرد عليهم السلام، وتصدوا لكلامه فلم يكلمهم، فرجعوا إليه في ثياب الرهبان، فسلموا فرد سلامهم.

ثم قال: ﴿والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرة الأولى وإن إبليس لمعهم﴾.

ثم ساءلهم وساءلوه، فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا: ما تقول في عيسى؟ فإنا نرجع إلى قومنا، ونحن نصارى، لَيَسُرُّنا إن كنت نبياً أن نسمع ما تقول فيه. فقال ﷺ: ﴿ما عندي فيه شيء يومي هذا، فأقيموا حتى أخبركم بما يقول الله في عيسى﴾. فأصبح الغد وقد أنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۞ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ۞ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾[١٢٥]. فأبوا أن يقروا بذلك، فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد، بعد ما أخبرهم الخبر، أقبل مشتملاً على الحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام، للمباهلة، فقال شرحبيل لصاحبيه: «قد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يَرِدوا ولم يصدروا إلا عن رأيي، وإني والله أرى أمراً ثقيلاً، والله أرى وجوهاً لو سأل اللهَ بها أحدٌ أن

---

[١٢٥] آل عمران، ٥٩، ٦٠، ٦١.

يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، والله لئن كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فلاعنّاه لا يبقى على وجه الأرض منا شعر ولا ظفر إلا هلك». فقال له صاحباه: فما الرأي؟ قال: رأيي أن أحكّمه، فإني أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً. فرجع رسول الله ﷺ ولم يباهلهم، حتى إذا كان الغد أتوه فكتب لهم عهداً تضمن الشروط والجزية. وحين وصلوا إلى نجران ومع الأسقف أخ له من أمه اسمه بشر، فدفع الوفد كتاب رسول الله ﷺ إلى الأسقف، فبينما هو يقرؤه كبَتْ ببشر ناقته فتعّس (قال: تَعِسَ فلان)، غير أنه لا يكُنى عن رسول الله ﷺ. فقال له الأسقف: «قد والله تعّستَ نبياً مرسلاً»، فقال بشر: لا جرمَ، والله لا أحل عنها عقداً حتى آتي رسول الله ﷺ، فتراجع الأسقف عن قوله وقال له: «افهم عني؛ إنما قلت هذا ليبلغ عني العرب، مخافة أن يروا أنا أخذنا حقه، أو رضينا بصوته، أو نجعنا لهذا الرجل بما لم تنجع به العرب، ونحن أعزهم وأجمعهم داراً»، فقال له بشر: لا والله لا أقبل ما خرج من رأسك أبداً، فضرب ناقته وارتجز يقول:

إليك تغدو قلقاً وضينُها   معترضاً في بطنها جنينُها
مخالفاً دينَ النصارى دينُها

حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم، ولم يزل معه حتى استشهد. ودخل الوفد نجران، فأتى الراهبَ ابن أبي شمر الزبيدي وهو في رأس صومعته، فقال له: إن نبياً بعث بتهامة، فذكر ما كان من وفد نجران إلى رسول الله ﷺ وأنه عرض عليهم المباهلة فأبوا، وأن بشر بن معاوية دفع إليه فأسلم. فقال

الراهب: أنزلوني، وإلا ألقيت نفسي من هذه الصومعة. فأنزلوه، فأخذ معه هدية وذهب إلى رسول الله ﷺ، منها البردة التي ظل يلبسها الخلفاء، وقعب، وعصا. فأقام مدة عند رسول الله ﷺ يسمع الوحي، ثم رجع إلى قومه ولم يُقدَّر له الإسلام، ووعد أنه سيعود، فلم يُقدّر له حتى توفي رسول الله ﷺ. أما الأسقف أبو الحارث فأتى رسول الله ﷺ ومعه «السيد» و«العاقب»، ووجوه قومه، فأقاموا عنده يسمعون ما ينزل الله عليه، فكتب ﷺ للأسقف هذا الكتاب، ولأساقفة نجران بعده:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي، للأسقف أبي الحارث وأساقفة نجران وكهنتهم ورهبانهم وكل ما تحت أيديهم من قليل وكثير، جوار الله ورسوله، لا يغير أسقف من أسقفته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولا يغير حق من حقوقهم، ولا سلطانهم، ولا ما كانوا عليه من ذلك، جوار الله ورسوله أبداً ما أصلحوا ونصحوا، عليهم غير مبتلين بظلم ولا ظالمين»[١٢٦].

لقد علم الله ما في نفوس هؤلاء من عنت يدفعهم إلى العصبية لدينهم الذي أولاهم سلطة عليا سيفقدونها إذا أسلموا ويصبحون من العامة، هذا من جهة، وحرص على دنياهم من جهة أخرى؛ فالحرير وخواتيم الذهب ومظاهر الترف مرفوضة في الإسلام، هذا غير الأموال التي يرسلها إليهم قيصر دعماً لمكانتهم الدينية في أرض العرب، والتي ستنقطع. فلما نازعت

---

١٢٦ البداية والنهاية، ج٥، وفد أهل نجران.

النفسُ بشهواتها التي اعتادت عليها واستلذتها من ترف ومنصب، الروحَ بسموها وزهدها، غلب الطبع الترابي، وحب الزعامة ﴿نِعْمَ المُرضعة وبِئْستِ الفاطمة﴾[١٢٧]، فاختاروا اللذة العاجلة على الآجلة، والدنيا على الآخرة، فأصبح الحوار معهم غير مجد، وتحول إلى جدال، علم الله ذلك وما في ضمائرهم، فوضعهم على المحك، فدعاهم إلى المباهلة، لأنهم أهل دنيا لم يخوفهم عذاب الآخرة، وإنما خوفهم انقطاع نعيم الدنيا بالمباهلة، حتى قال قائلهم: «لئن كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فلاعناه لا يبقى على وجه الأرض منا شعر ولا ظفر إلا هلك»، فخافوا فوات الدنيا من أيديهم فتراجعوا عن المباهلة، ورضوا بحكم النبي ﷺ، وأدوه له كما حكم.

## وآخر العلاج الكي (القمع):

كان كعب بن الأشرف، من قبيلة طيئ، من بني نَبْهان، وأمه من بني النضير وكان من أشد اليهود حنقاً على الإسلام والمسلمين، وإيذاءً لرسول الله ﷺ وتظاهراً بالدعوة إلى حربه، وكان شاعراً غنياً مترفاً حتى إنه لم يكن يسكن بيتاً وإنما يقيم في حصن له في شرق جنوب المدينة خلف ديار بني النضير. ولما بلغه انتصار المسلمين في «بدر»، وقتل صناديد قريش قال: «أحق هذا؟ هؤلاء أشراف العرب، وملوك الناس، والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها». وانبعث يهجو رسول

---

[١٢٧] صحيح البخاري، برقم ٧١٤٨.

الله ﷺ والمسلمين ويمدح عدوهم ويحرضهم عليهم، ولم يرض بهذا القدر حتى ركب إلى قريش، فنزل على المطلب بن أبي وَدَاعة السهمي، وجعل ينشد الأشعار يبكي فيها على قتلى المشركين، يثير بذلك حفائظهم، ويذكي حقدهم على النبي ﷺ، ويحرضهم على حربه، وسأله المشركون: «أدينُنا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه؟ وأي الفريقين أهدي سبيلاً»؟ فقال: «أنتم أهدى منهم سبيلاً، وأفضل»![١٢٨] وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً﴾[١٢٩]. ثم رجع إلى المدينة، وصبر النبي ﷺ على أذاه، حتى أخذ يشبب بنساء الصحابة في أشعاره، ويؤذيهم بسلاطة لسانه أشد الإيذاء. فثارت غيرة الصحابة على نسائهم، وضاق الصبر على ذلك بالنبي ﷺ، فقال: ﴿من لكعب بن الأشرف؟ فإنه آذى الله ورسوله﴾[١٣٠]. فانتدب له محمد بن مسلمة، وعَبَّاد بن بشر، وأبو نائلة سِلْكَان بن سلامة، وهو أخو كعب من الرضاعة، والحارث بن أوس، وأبو عَبْس بن جبر، فاستدرجوه من حصنه، فلما استمكنوا منه قتلوه.

فقد كان عدواً صريحاً يلقي شواظ هجائه على النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ويختبئ في حصنه المنيع، كالأفعى التي تلدغ ثم تأرز إلى جحرها، ولم يقف عند هذا حتى تناول نساء الصحابة بشعره، والأعراض

---

[١٢٨] الرحيق المختوم، للمباركفوري، ص ١٦٢.

[١٢٩] النساء، ٥١.

[١٣٠] صحيح البخاري، برقم ٤٠٣٧.

أعز ما على العرب منذ جاهليتهم، والشعر إعلام مسموع يتداوله الرواة ويبلغ المشارق والمغارب، وتتعاير به الأجيال قروناً، فلم يبق لأحد عليه صبر، ولم يعد أمامهم إلا القمع وقطع هذا اللسان البذيء كي لا يلوك أعراض الناس مرة أخرى.

## الموقف من قَتَلَةِ الأهلِ بعد إسلامهم:

كانت بين المسلمين والمشركين معارك، استشهد فيها عدد من الصحابة، وكان ممن استشهد أهلٌ وأحباب للنبي ﷺ وللشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من بعده، وكل منهم يعرف قاتل صاحبه، فلما أسلم هؤلاء القتلة حرمت دماؤهم، لكن الحزازة في النفس تبقى، ورد الفعل يختلف بين من بيده سلطة ومن لا سلطة له، فهل تغير شيء في سيرة النبي ﷺ وخليفتيه وتعاملهم مع قتلة أهليهم وأحبتهم فقمعوهم، أو آذوهم، أو أضروا بهم، أو ضيقوا عليهم، أو حرموهم حقوقهم، أو هددوهم، أو سعوا إلى اغتيالهم، أم أن الإيمان ألزمهم التسليم الكامل والرضا بما قضى الله وشرع، فسكتوا خاضعين ملتزمين الأمر الإلهي، معرضين عما يعتمل في نفوسهم من نداءات ثأر وصيحات ألم تمزق القلب وتشعل نار الحقد؟ إضافة إلى أهم ما يحذره المجتمع العربي، وهو السُّبة والعار الذي يلحق المرء حين يُرى واتره يمر بجانبه آمناً مطمئناً وهو يراه ولا يفعل له شيئاً! لنستطلع ذلك في ثلاثة مواقف لكل من هؤلاء القادة الأفذاذ مع قاتلي أحبتهم.

## موقف النبي ﷺ من قاتل الحمزة رضي الله عنه:

كان الإسلام ضعيفاً يتخفى أتباعه في تعبدهم ولقاءاتهم، حتى أسلم الحمزة وعمر رضي الله عنهما، فصار النبي ﷺ وأصحابه يطوفون في شوارع مكة، والحمزة عن يمين النبي ﷺ وعمر عن يساره، ويجهرون بالتهليل والتكبير، ولم يعد يتجرأ المشركون على أذاهم، وكان ذلك بعد أن ضرب الحمزة أبا جهل بسية قوسه فشجه، وقال له: «ردها إن استطعت»، فانخذل أبو جهل، وقد قال المؤرخون: بُدئ فرسان بني عبد المطلب بالحمزة وختموا بالمعتصم بالله بن هارون، فكلاهما قاتل أسداً عاري اليدين فقتله، فكان الحمزة يُسمّى «صياد الأسود» لذلك الموقف، وسماه النبي ﷺ «أسد الله وأسد رسوله»، فكان إسلامه عزاً للمسلمين ولنبيهم، وكان الليث الهادر في معركة بدر من بدايتها، إذ حلف الأسود بن عبد الأسد أن يشرب من حوض المسلمين، فإن لم يتمكّن من ذلك هَدَمه، فلما هجم تصدّى له الحمزة فقاتله فقتله، فبرز من جيش قريش ثلاثة رجال هم: عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة، وطلبوا المبارزة، ونادوا: «يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا»، فأخرج إليهم النبي ﷺ أهل بيته عليهم السلام من بني عبد المطلب؛ عبيدة بن الحارث، والحمزة، وعليّ»، فبارز حمزة شيبة فقتله، وبارز عليّ الوليد وقتله، وبارز عبيدة بن الحارث عتبة فضرب كل واحد منهما الآخر بضربة موجعة، فكرَّ حمزة وعلي على عتبة فقتلاه. ثم اشتبك الجيشان، فكان الذين قتلهم الحمزة في تلك المعركة التاريخية

أكثر من أن يُحصوا، وكان ممن قتلهم طعيمة بن عدي، عم جبير بن مطعم بن عدي، وكان وحشي بن حرب عبداً حبشياً مملوكاً لجبير، وكان ماهراً في رمي الحربة، فلما سارت قريش إلى أحد قال جبير لوحشي: «إنْ قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت عتيق»، فاستشرف وحشي للعتق وقبل العرض بلا تفكير. وكان النبي ﷺ رأى في منامه بقراً تذبح، وأن في سيفه ثلماً، فأولها بقتل أصحابه رضوان الله عنهم، وكان مقتل الحمزة، رضي الله عنه، ثلماً في سيف الإسلام، فلما أن اصطفوا للقتال، خرج سباع بن عبد العزى الخزاعي فقال: هل من مبارز؟ فخرج إليه الحمزة فشد عليه، فقتله، فتعرف وحشي مكان الحمزة، فكمن له وراء صخرة، فلما دنا منه رماه بحربته، فأثبتها في ثنّته، فكان ذاك آخر العهد به. وحزن النبي ﷺ عليه حزناً لم يحزنه على أحد، حزناً قاهراً محرقاً للفؤاد، فلما فُتحت مكة وفشا فيها الإسلام خرج وحشي إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رسلاً، وقيل لوحشي: إنه لا يهيج الرسل، فخرج معهم حتى قدم على رسول ﷺ، فلما رآه قال: آنت وحشي؟ قال: نعم. قال: أنت قتلت حمزة؟ قال: قد كان من الأمر ما بلغك، قال: فهل تستطيع أن تغيّب وجهك عني؟!![١٣١]

هذا كل شيء! لا انتقام ولا قهر ولا تعنيف ولا لوم، ولا معاتبة، ولكن النفس البشرية لها حقها من العاطفة، وأيٌّ منا نحن - الذين قرأنا التاريخ

---

[١٣١] صحيح البخاري، برقم ٤٠٧٢.

فقط ولم نر أبطاله - يحب أن يرى قاتل أسد الله، قاتل الحمزة؟! فكيف بالنبي ﷺ؟! لكنه تركه يذهب، وسأله ألا يريه وجهه. هذا كل شيء، فلا قمع ولا انتقام ولا ملامة، وهذا هو الإسلام الذي «يَجُبُّ ما قبله» مهما كان الجرم كبيراً، وهذا سلوك نبيه العظيم ﷺ تجاه قاتل أحب الناس إليه!

## موقف أبي بكر من قاتل ابنه عبد الله رضي الله عنهما:

أُصيب عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما يوم الطائف بسهم فلم يمت، وعانى من هذه الإصابة زمناً حتى انْدمَل جرحه فبَرِئ منه، ثم انتقض الجرح فمات منه بعد أربعين ليلة من وفاة النبي ﷺ، ولم يَزل أبو بكر محتفظاً بذلك السهم، فلما قدِم عليه وفد ثقيف أخرِجه إليهم، فقال: هل يَعرِف هذا السهمَ منكم أحدٌ؟ فقال أبو محجن الثقفي، وقيل: سعيد بن عبيد أخو بني عجلان: هذا سهم أنا بَريتُه ورِشتُه وعقَّبتُه، وأنا رَميتُ به. فقال أبو بكر رضي الله عنه: فإنَّ هذا السهم هو الذي قتَل عبد الله بن أبي بكر، فالحمد لله الذي أكَرَمه بيدكِ، ولم يُهنكَ بيده، فإنَّه أوسعُ لكما![١٣٢]

ما أعظم هذا الموقف! وبماذا يمكن أن نعلق عليه؟ أبٌ يحمد الله على أن ابنه المقتول وليس القاتل، مع أنه لو كان القاتل لما كان آثماً؛ لأنه مجاهد في سبيل الله! فلماذا يحمد الله على نجاة القاتل من سهم ابنه وموت ابنه

---

[١٣٢] المستدرك على الصحيحين، للحاكم، ج٣، ص٥٤٣.

بسهم القاتل؟ يحمده لأن القاتل لم يمت كافراً ومد الله بعمره ليسلم! وهل نجد ذلك عند أحد غير أبي بكر وأمثاله من خريجي المدرسة المحمدية؟

أفلا يحق لأبي محجن أن يقول فيه:

وَسُمِّيت صدِّيقاً، وَكُلُّ مُهَاجِرٍ سِوَاكَ يُسَمَّى بِاسْمِهِ غَيْرُ مُنْكَرِ
سَبَقْت إلى الإسلامِ وَاللَّهُ شَاهِدٌ وَكُنْتَ جَلِيساً بِالعَرِيشِ المُشَهَّرِ
وَبِالغَارِ إِذْ سُمِّيتَ بِالغَار صَاحِباً وَكُنتَ رَفِيقاً لِلنَّبِيِّ المُطَهَّرِ

## موقف عمر من قاتل أخيه زيد رضي الله عنهما:

كان زيد بن الخطاب شقيق عمر، رضي الله عنهما، من أحب الناس إلى عمر، حتى إنه قال: «ما هبّت الصبا إلا وجدت فيها ريح زيد»، وفي معركة أحُد رأى عمر أن درع أخيه زيد سقطت عنه وهو يتقحم صفوف المشركين، فخاف عليه من الرماح، فخلع درعه وصاح بأخيه: «خذ درعي فاحتمِ بها»، فقال زيد: «إني أريد من الشهادة مثل ما تريد»! عندها رمى عمر الدرع على الأرض وصار الاثنان يقاتلان من دون دروع، فقدّمه عمر على نفسه لشدة حبه له. وفي معركة اليمامة استشهد زيد رضي الله عنه، قتله أبو مريمَ السلوليُّ، ثم أسلم، فلقيه عمر رضي الله عنه وهو خليفة يومئذٍ، فقال له: «واللهِ لا أحبُّكَ حتى تحبَّ الأرضُ الدمَ». فقالَ أبو مريم: أفتمْنعُني حقاً؟ قال: لا. قال: فلا بأسَ؛ إنما يأسفُ على الحبِّ النساءُ[١٣٣].

---

[١٣٣] الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، ج٢، برقم ٧٢٨.

الموقف لا يحتاج إلى تعليق، عظمة الإسلام واضحة في المساواة، وأن «الإسلام يجب ما قبله»، وأن الخليفة والسوقة سواء، فهذا الرجل لم يليّن القول لعمر كأنْ يقول له: ذلك مضى يا أمير المؤمنين، أو كنا في جاهلية وعفا الله عما مضى، أو أخوك صار في الجنة، أو أي شيء من هذا القبيل، بل كان كلامه جافياً «لا بأسَ؛ إنما يأسفُ على الحبِّ النساءُ» معناه سواء عندي أرضيتَ أم لا! ماذا لو قالها عامّي في عصرنا لمسؤول صغير؟ فكيف تقال لخليفة يبسط سلطته على الجزيرة العربية واليمن والشام والعراق وفارس ومصر وأجزاء من خراسان؟!

إضافة إلى أن هناك فصلاً بين الأمور الشخصية وبين السلطة، فالخليفة يحكم بحكم الله لا بعاطفته ولا بما يحب ويبغض، وهنا يشرق المثال الجلي على تمسك الخلفاء الراشدين بالأمر الإلهي على حساب عواطفهم والتزامهم حدوده وتشريعاته حتى لو تعارض مع أهوائهم الفردية.

## وقفة عند هذه المواقف

سيرة عطرة وتاريخ مشرّف نجدهما في نهج الرحمة المهداة محمد ﷺ، ومن بعده صاحبيه اللذين بشرهما بأنهما سيدا كهول أهل الجنة، فقد ماتت في أنفسهم حظوة النفس وشهوة الانتقام، ولم يسحر أعينهم بريق السلطة وأبهة الزعامة والطاعة المبذولة، فلم يتعصبوا لآرائهم أو يصادروا رأي مخالف، هذه المواقف لذوي البصائر تبصرة، ولذوي الأفهام تذكرة، وهدى للمنصفين في إطلاق أحكامهم المبنية على الوقائع لا على الظنون أو ما

يسمعونه من اتهامات مكذوبة وادعاءات مفتراة من أعداء الله وأعداء الحق الذين اتخذوا هذا الدين عدواً دون بقية الأديان، لسبب واحد هو ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ﴾[١٣٤]، وبعد هذه المواقف الجليلة المغرقة في الرحمة والمبالغة في العفو أمام أحداث ليست بالهينة، هل يقول عاقل إن الإسلام مستبد يصادر الآراء، أو يقول إنه دين قمعي؟ هذا هو الإسلام المنهج يظهر لنا جلياً في أحكامه وسلوك نبيه ﷺ والرعيل الأول الذين تربوا في مدرسته، أما من جاء بعدهم فغيّر وبدّل، ونبذ قاعدة الشورى وحرص على دنياه وآثرها على دينه، فقمع وقتل وصادر الآراء وعارض الأحكام ولف حوله علماء ذلقي الألسنة جاهلي القلوب، ليستنبطوا له الفتاوى التي تخدم دنياه ويلووا أعناق النصوص لتوافق هواه، وسايروه في غيه خوفاً من قمعه أو طمعاً بلعاعة من الدنيا، فلا يعدون أئمّة في الإسلام ولا يمثلونه بشكل من الأشكال وإن كانوا مسلمين رَفَعَ الحُكّام شأوهم بين العامة ليلزموا فتاواهم الغاشّة وآراءهم الخادعة، فليس كل من أخذ بطرف من الإسلام يمثل الإسلام وينطق عنه ويعدُّ من «الموقعين عن رب العالمين»[١٣٥]، فهم ليسوا حجة للإسلام، بل إن كثيراً منهم كانوا مَطاعن في كيانه وفتحوا ثغرات فيه لأعدائه وأعداء الحق والحقيقة.

---

[١٣٤] آل عمران، ١٩.

[١٣٥] اسم كتاب لابن القيم.

## أليس قطع يد السارق ورجم الزاني المحصن قمعاً مذموماً؟

تتداول الشعوب الغربية مثلاً يقول: «طواحين السماء تطحن ببطء، لكن طحنها يكون ناعماً» أي أن الانتقام الإلهي قد يتأخر على المجرم أو الظالم، لكنه يكون ساحقاً. ويلتقي هذا المثل مع حديث النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حتَّى إذا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ﴾[١٣٦]. وانتقام الله سبحانه نراه في كثير مما يلقاه الآثمون، منهم الأفراد ومنهم المجتمعات بأكملها، وما الزلازل والبراكين والأوبئة الفتاكة إلا شيء من ذلك، والحدود وضعها الله سبحانه للمجتمعات لتحفظ أمنها واستقرارها، فإذا أقاموها كف عنهم انتقامه، فإذا حدث زلزال فدمر، أو نهض بركان فقتل - وصاحِبُ الأمر في الحالين (حدوث الكوارث، وتشريع الحدود) هو الله سبحانه - فلا أحد يعترض، أما إذا شرع قطع يد السارق أو رجم الزاني ظهرت الاعتراضات! ولو أنه سبحانه قطع يدي المرء ورجليه، أو قتله في حادثة، فلا أحد يعترض، لماذا؟ لأن المقصود بالاعتراض هو الإسلام فحسب، سواء أكان الحكم التشريعي قاسياً كالحدود، أم هيناً كالستر والاحتشام. فالراهبة التي تتحجب وتستر جسدها حرة، أما المسلمة التي تفعل ذلك فهي مستعبدة مقهورة مظلومة... إلى آخر القائمة من الاتهامات والكيل بمكيالين مختلفين. واليهودي الذي يطيل لحيته حضاري، أما المسلم الذي يفعل ذلك فمتخلف! فالغاية هي الطعن في الإسلام فحسب، وأكبر دليل على ذلك هو السكوت

---

[١٣٦] صحيح البخاري، برقم ٤٦٨٦.

عن الديانتين الأخريين بما فيهما من تشريعات قاسية. وفي شريعة نبي الله موسى عليه السلام تُقطع يد السارق ويُرجم الزاني، فلماذا الاعتراض على الحكم الإسلامي فحسب؟! قد يقول قائل: لأن الحدين (القطع والرجم) أوقفا عند اليهود. فنقول له: وهل هما عند المسلمين مطبقان؟ الحقيقة التي يتهرب منها الجميع هي أن العدو الأعظم لأتباع الشيطان بكل أشكالهم ومناهجهم هو الإسلام نفسه لا تشريعاته، وإلا لماذا لا يعترضون على تشريعات اليهودية؟ ولماذا توجه الإساءات إلى النبي محمد ﷺ وحده، سواء أكانت رسوماً كاريكاتيرية، أم كلاماً مفترىً ككتاب «آيات شيطانية» لسلمان رشدي؟ وهؤلاء الذين يدّعون العلمانية وأنهم لا يؤمنون بدينٍ لم يرسموا النبي موسى عليه السلام ولا زّوروا كتباً إفكاً في سيرته، ولا انتقدوا اليهود ولا التوراة؟ لن نسأل: لماذا؟ لأننا نعلم أنهم أجراء عند اليهود، مهمتهم الطعن في الإسلام ونبيه ﷺ، وإشغال المسلمين الذين لا يكادون يردون على فتنة حتى تظهر فتنة جديدة، يريدون بذلك إفقاد المسلمين ثقتهم بدينهم، لينحرفوا في سلوكهم ثم في فطرتهم، يريدونهم كما رسمهم التلمود «غوييم» (أي حيوانات خلقت على صورة البشر لخدمة بني إسرائيل، لأنه لا ينبغي لشعب الله المختار أن يخدمهم مماليكهم على صورتهم الحيوانية). وقد استجرّوا لخدمتهم كثيراً من الحيوانات التي على صورة البشر، منهم من يقدم لهم السلاح، ومنهم من يقدم لهم الأموال، ومنهم من يقدم لهم الدعم السياسي والإعلامي، ومنهم من يصادم الدين الذي ارتضاه

الله لعباده نيابة عنهم، وهو الإسلام. أما اليهود فلا تظهر لهم أي علاقة بهذه الأمور، فهي تصرفات بهائم «غوييم» يمارسها أصحابها من غير اليهود، وهذا الكاتب مايكل هارت[١٣٧] اليهودي يصنف النبي محمداً ﷺ الرجل الأول على الإنسانية أجمع، لعل «الغوييم» الذين ينبتون أعشاباً ضارة بين أشجارنا السامقة يفهمون الحقيقة ومَن وراءها وما وراءهم.

وقد سبق إلى الاعتراض على قطع يد السارق المعري، حين رأى أن الشريعة وضعت ديّة من قطع اليد خمسمئة دينار ذهبي، في حين أمرت بقطع يد السارق في مبلغ ضئيل وهو ربع دينار! فتوهّم أن ثمة تعارضاً في الأحكام؛ إذ كيف ليد تساوي خمسمئة دينار أن تُقطع في ربع دينار؟! فلم يستطع السكوت ولم يقدر على التصريح بما في نفسه، فقال شعراً:

تَنَـاقُضٌ مَا لَنَا إلاَّ السُّكوتُ لَهُ   وَأَن نَـعُـوذَ بِمَـوْلاَنَـا مِـنَ الـنَّـارِ

يَـدٌ بِخَمْسِـمئـيـنٍ عَسْـجَـدٍ وُدِيَتْ   مَا بِالُهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِيْنَارِ؟!

فجاءه الجواب من الشريف الرضي الذي فهم الحكمة من الحكم الشرعي:

صيانةُ النّـفسِ أغلـتْها وأرخَصَها   خـيانةُ المالِ فانْظـرْ حكمةَ الباري

فأجابه رجل آخر من أهل المجلس:

هـناك مظلومة غالت بقيمتها   وعندما ظَلَمت هانت على الباري

---

[١٣٧] فيزيائي فلكي يهودي، صاحب كتاب المئة شخصية الأكثر تأثيراً في التاريخ، تضمن أسماء مئة شخصية الذين قدموا نفعاً للبشرية، ورتبهم بحسب الأكثر نفعا وتأثيرا، فجاء ترتيب النبي محمد ﷺ الأول على البشرية كلها.

ثم بلغ الخبر شاعراً آخر فقال:

قُل لـلـمعـريِّ: عــارٌ أيّما عــار  جهل الفتى وهو من ثوب التُّـقى عارِ
عِـزُّ الأمانـة أغـلاهـا وأرخصـها  ذلُّ الخـيـانـة فـافـهـم حـكمـة الـباري

ويخطئ من يظن أن الحدود إنما هي مجرد عقوبات لمرتكبي الجرائم فحسب، وإنما هي رسالة للمجتمع كله، لأن من يرى مقطوع اليد يتعظ فيكفّ يده عن أموال الآخرين، إضافة إلى أن السارق إذا لم يلق العقوبة استمرأ السرقة واعتادت يده الامتداد إلى حقوق الآخرين، وأحياناً يضطر إلى ارتكاب القتل إذا أحس به أهل البيت أو الحرس، وفي الحياة قصص كثيرة من هذا القبيل، لذلك فإن قطع يده قطع لدابر شر مقبل أكثر مما هو عقوبة على ذنب ماض.

## لِماذا لَمْ تشمل السارقةَ الرحمةُ التي شملت القتلة؟

في حجة الوداع، التي خطب فيها النبي ﷺ خطبته المشهورة، التي قال فيها: ﴿إنّ دِمَاءَكُمْ وَأمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَليكُمْ حَرَامٌ إلى أنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، كَحُرمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا في شَهْرِ كُمْ هَذَا في بَلَدِكُم هَذَا...﴾[١٣٨]، خرجت امرأة قرشية من بني مخزوم ليلاً، فوقفت بركب نزول، فأخذت عَيْبَةً لهم (والعَيْبة وِعاءٌ من جلد، يكون فيها المتاع، كالحقيبة)، فخرقت حرمات الزمان والمكان والصحبة والقانون البشري والتشريع الإلهي والتوجيه النبوي،

---

[١٣٨] صحيح البخاري، برقم ٧٠٧٨.

فأخذها القوم فأوثقوها، فلمّا أصبحوا أتوا بها النبيّ ﷺ، فعاذت بحقوي أمّ سلمة رضي الله عنها، زوجة النبيّ ﷺ، فأمر بها فافتُكّت يداها من حقويها، فأهم قريشاً أمرُها، فاستشفعوا على النبي ﷺ بغير واحد، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ الله ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وابن حبه، فكلّموه ليكلّم رسول الله ﷺ، وكان يشفّعه، فلما أقبل أسامة ورآه النبيّ ﷺ، قال: ﴿لا تكلّمني يا أسامة، فإن الحدود إذا انتهت إليّ فليس لها مترك، لو كانت ابنة محمد فاطمة لقطعتها﴾، ثم قال: ﴿أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ﴾؟! ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿فإنَّما أهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ: أنَّهُمْ كانُوا إذا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أقامُوا عليه الحَدَّ، والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لو أنَّ فاطِمَةَ بنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَها﴾[١٣٩]. ثمّ أمر بها فقطعت يدها.

## وقفة لمدارسة القصة:

أولاً الحدود ليست حقاً شخصياً لأحد، ولا من الحق العام الذي يمكن للقاضي أو ولي الأمر التنازل عنه أو قبول شفاعة فيه، وإنما هو أمر إلهي لم يترك الله فيه فسحة كما ترك في حد القتل إذا عفا أهل القتيل عن حقهم. ثانياً أولى الناس بالتزام الأمر الإلهي وتنفيذه هم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فإذا تهاون النبي أو عصى الأمر وأوقف الحد فماذا يفعل

[١٣٩] صحيح البخاري، برقم ٤٣٠٤.

الآخرون ومَنْ بعدَه؟ بل إن ذلك سيقاس عليه ليشمل كل الحدود. فهذا مثلاً الرئيس الفلسطيني محمود عباس يقول: «وماذا إن تركنا القدس، فالنبي ترك مكة»؟! فالناس ستستغل الحادثة لتجبيرها لما يخدم أهواءهم. وهذا ما لفت النبي ﷺ إليه في قوله: ﴿فإن الحدود إذا انتهت إليّ فليس لها مترك﴾[١٤٠]، فسيرة أي نبي تجسيدٌ عملي للتشريع النظري الموحى إليه، فإن لم يجسده هو بقي التشريع نظرياً، واتُّهم النبي بالمحاباة والتنازل عن حق ليس له، وفُتح الباب لمن بعده في الخَرق، حتى لا يبقى من التشريع إلا ألفاظٌ بلا معنى، ولو قبل بالشفاعة ورضي لهُدمت الحدود تباعاً، وهذا معنى قوله لأسامة رضي الله عنه: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ»؟! فالحدود لا شفاعة فيها مهما عظمت مكانة الشافع ومكانة المشفوع فيه وحَسَبُه، واتساعُ سلطة المشفوعِ عنده! والمرأة انتهكت حرمة الزمان (وقت الحج)، والمكان (البلد الحرام)، والصحبة (النبي ﷺ)، والأمر ﴿إنّ دِمَاءَكُمْ وَأمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَليكُمْ حَرَامٌ إلى أنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، كَحُرمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا في شَهْرِ كُمْ هَذَا في بَلَدِكُم هَذَا﴾[١٤١]، فإذا عفي عمن اخترق كل هذه الحرمات فإن العفو عمن خرق ما دونها أولى، وسيكون ذلك حجة، فتضيع الحدود، ونحن نعلم أن الله سبحانه أخبرنا بالحكمة من إقامة الحدود بقوله سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[١٤٢]، فذو العقل يرى

---

[١٤٠] فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ج١٥، كتاب الحدود ١٢، شرح الحديث رقم ٦٧٨٨.
[١٤١] سبق تخريجه برقم ١٣٨.
[١٤٢] البقرة، ١٧٩.

أن إقامة الحد عين العقل، ولو كان على أحد أقارب النبي ﷺ ومن أعز بيوت العرب (قرشية)، وهذا ما أكده النبي ﷺ بقوله: ﴿وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا﴾، لأن ذلك سيقود إلى تمايز اجتماعي طبقي حاربه الإسلام الذي أكد أن الناس سواسية كأسنان المشط، وأنه ﴿لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأبيضَ على أسودَ، ولا لأسودَ على أبيضَ، إلَّا بالتَّقوى﴾[١٤٣]. ثم يأتي التحذير والتنبيه إلى خطر ينتظر المجتمع، بل الأمة كلها: ﴿إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ﴾[١٤٤].

## مناظرة أصحاب الرأي المخالف بالحجة:

## الخــوارج

درج الصحابة رضي الله عنهم على السير على خطا النبي ﷺ في مقابلة أصحاب الرأي المخالف، ومواجهتهم بالحوار وإقامة الحجة عليهم. وهكذا كان سلوك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، مع معاوية بن أبي سفيان في معركة صفين، وقد أثمر الحوار وانصاع لمخرجاته عليٌّ رضي الله عنه، لولا الخديعة التي حصلت فنقضت ذلك الاتفاق من أصله، فانشق عنه قسم من أصحابه، شكلوا في ما بعد فرقة «الخوارج»، ولم يقاتلهم حتى قاتلوه، وقد ناظرهم في بداية انشقاقهم، فرجع إليه عدد

---

[١٤٣] مسند أحمد بن حنبل، برقم ٢٣٥٣٦.

[١٤٤] سبق تخريجه برقم ١٣٩.

منهم. وترجع تسمية «الخوارج» إلى خروجهم على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حين رضي بالتحكيم يوم صفين، وعدّوا عمله ذلك كفراً. وجعلوا من أصول عقيدتهم البراءة من علي، وعثمان، وطلحة، والزبير، وأم المؤمنين عائشة، وابن عباس، رضي الله عنهم أجمعين، وعدّهم كفاراً، والقول إنّ الخلافة ليست محصورةً في بني هاشم فقط (كما يرى الشيعة)، ولا في قريش فقط (كما يرى المسلمون)، بل هي حقٌ لعموم المسلمين من الأمة عربها وعجمها، فمن كان أهلاً لها، عِلماً، واستقامة في نفسه، وعدالة في الأمة؛ جاز أن يُختار إماماً للمسلمين.

## مناظرة علي بن أبي طالب لهم

حين أعلن الخوارج انشقاقهم عن علي، رضي الله عنه، وكفّروه، طلب منهم بيان أسباب ذلك، فأجابوا بأنهم أخذوا عليه عدداً من المآخذ، وهي:
لم يُبِحْ لهم في معركة الجمل أَخْذَ النساء والذرية كما أباح لهم أخذ المال. ومحا لفظة «أمير المؤمنين» عندما كتب كتاب الهدنة في صفين، مطيعاً بذلك معاوية وإصراره على عدم كتابة «علي أمير المؤمنين». وقوله للحكمين: إن كنتُ أهلاً للخلافة فأثبتاني. وهذا شك في أحقيته بالخلافة، ولماذا رضي بالتحكيم في حق كان له؟
فأجابهم: أما الشبهة الأولى فقد أبحت لكم المال بدل المال الذي أخذه طلحة والزبير من بيت مال البصرة. أما النساء والذرية فإنهم لم يشتركوا في القتال، وهم أيضاً مسلمون بحكم دار الإسلام، ولم تكن منهم ردة تبيح

استرقاقهم. ولو أبحت لكم استرقاق النساء والذرية؛ فأيكم يأخذ عائشة سهمه؟ فخجل القوم، ورجع معه كثير منهم.

وأما الشبهة الثانية فقد فعلتُ كما فعل رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وقد أخبرني ﷺ أن لي منهم يوماً مثل ذلك.

أما الشبهة الثالثة فقد أردت النصفة لمعاوية، ولو قلت: احكما لي؛ لم يكن ذلك تحكيماً، وقد دعا الرسول ﷺ وفد نصارى نجران إلى المباهلة لإنصافهم. أما الشبهة الرابعة: فإن رسول الله ﷺ حكّم سعد بن معاذ في بني قريظة في حق كان له. وهنا انتهى الحوار وأصبحت الحجة له عليهم، فمن رجع منهم رجع رغبة في لزوم الحق بعد ثبوت الحجة، ومن لم يرجع فقد غوى ولم يلتزم الشرط الضمني للمناظرة؛ إذ يفترض أنه خالف لشبهة فلما رأى الحق وجب عليه الانحياز له، ومع ذلك لم ينصرفوا وإنما أصروا على قتاله، فنشبت المعركة مع من بقي على عناده، ولم يَنْجُ منهم إلا تسعة نفر فروا، فكانوا هم نواة الخوارج في البلدان التي ذهبوا إليها، كما قيل.

## جرائم الخوارج بعد المناظرة

استفحل أمر الخوارج بعد ذلك ونشأت منهم جماعات وفرق، ووصل بهم الأمر إلى تكفير من لم يكفِّر الذين كفَّروهم وإلى استحلال دمه وماله، إلا فرقة سميت «القعدية» فكانوا يرون القعود عن القتال. أما الآخرون فكانوا يلقون الرجل فيسألونه: ما تقول في علي بن أبي طالب؟ فإن قال خيراً قتلوه، وإن قال هو كافر تركوه! ونعرض عدداً من الحوادث والجرائم التي

ارتكبوها والتي تثبت ضلالهم، ولعل أشنعها قتلهم الصحابة رضي الله عنهم، التي كانت شواهد على بغيهم.

## مقتل عبد الله بن خباب رضي الله عنهما

مر الصحابي بن الصحابي عبد الله بن خباب رضي الله عنهما يسوق حماراً عليه امرأته، وكانت حاملاً متمّاً (في أواخر أيام حملها)، فاستوقفوه وسألوه: من أنت؟ قال: عبد الله بن خباب. قالوا: ابن خباب بن الأرت صاحب رسول الله ﷺ! أأفزعناك وأمرأتك؟! قال: نعم. قالوا: لا ردع عليك، فليأمن سربكما، أنتما آمنان. فشكرهم. لكنهم عادوا فقالوا له: حدثنا عن أبيك الصحابي الجليل رضي عنه حديثاً سمعه من النبي ﷺ تنفعنا به. قال: حدثني أبي عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿تكون فتنةٌ يموتُ فيها قلبُ الرجلِ كما يموتً فيها بدنُه، يُمسي فيها مؤمناً ويُصبح كافراً، ويُصبح فيها مؤمناً ويُمسي كافراً﴾[١٤٥]. قالوا لهذا الحديث سألناك؛ فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما. ثم عرض لرجل منهم خنزير، فلما قتله لامَهُ أصحابه الخوارج، وقالوا: هذا فساد في الأرض! فاطمأن عبد الله، فهم غضبوا لخنزير، وهو رجل مسلم وصحابي ابن صحابي! فسألوه عن عثمان رضي الله عنه، فأثنى عليه، وسألوه عن علي، رضي الله عنه، والتحكيم، فأثنى عليه وقال: إنه أعلم بكتاب الله منكم ومني، وأنفذ بصيرة، وأشد توقّياً على

---

[١٤٥] مسند أحمد بن حنبل، ج٣، ص٦٢٩.

دينه. فقالوا له: إنك تتبع الهوى، وتوالي الرجال على أسمائهم لا على أفعالهم. والله لنقتلنّك قتلة ما قتلناها أحداً! فأوثقوه بالحبال، وامرأته تبكي وتصيح خوفاً على زوجها. فقال لهم: أنا وامرأتي مسلمان، وأنتم حملة القرآن، فما علينا منكم من بأس! ففوجئ بهم ينزلون زوجته من فوق الحمار وهي حامل في شهرها الأخير، وأوثقوها هي الأخرى بالحبال، وربطوها إلى جذع نخلة، وحينها سقطت تمرة من هذه النخلة، فأكلها أحدهم، فصاح به الآخرون: أخذتها بغير حِلّها وبغير ثمن، هذا فساد في الأرض، دعها فإنها حرام! وفي هذه اللحظات جاء صاحب الخنزير فسألهم عن سبب قتلهم الخنزير، فدفعوا له ثمنه!

وهنا سألهم الصحابي ابن الصحابي الجليل عن الذنب الذي اقترفه وهو مسلم لم يفعل شيئاً لا هو ولا زوجته! إلا أنهم ذبحوه وهم يكبّرون، وجاؤوا بزوجته ولم يعبؤوا بصياحها وصراخها فبقروا بطنها!

فأقبلت ثلاث نسوة رأين المرأة تنزف فحاولن إنقاذها، فقتلوهن أيضاً![١٤٦]

وفي تلك الحادثة قال الكميت الأزدي:

لَهُم كُلَّ عَامٍ بِدعَةٌ يُحدِثُونَهَا   أَزَلُّوا بها أتبَاعَهم ثم أوحَلُوا

تَحِلُّ دِماءُ المسلمينَ لَدَيهُم   وَيَحرُمُ طَلَعُ النَّخلةِ المُتَهَدِّلُ

---

١٤٦ الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج٢، ص٨٤.

# مقتل زاذان بن فروخ

وهو أحد عمال أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه، لقيته جماعة من الخوارج، فعرضوا له يسألونه: أمسلم أنت أم كافر؟ فقال: بل أنا مسلم. فسألوه عن علي، فأجابهم بالحق. فقالوا له: كفرت يا عدو الله، ثم حملوا عليه فقطعوه قطعاً وأشلاء متناثرة! يقول الطبري: «ووجدوا معه رجلاً من أهل الذمة، فقالوا: ما أنت؟ قال: رجل من أهل الذمة. قالوا: أما هذا فلا سبيل عليه»![١٤٧]

# قتل مسلم وترك نصراني

بل إنهم كانوا إذا وجدوا غير المسلم يتواصون به خيراً، كما حدث عند خروجهم إلى «النهروان» فلقوا مسلماً ونصرانياً، فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني خيراً، وقالوا: «احفظوا ذمة نبيكم»![١٤٨]

# ادعاء الانتماء إلى اليهودية والنصرانية للنجاة منهم

حتى بلغ من شدتهم على المسلمين أن من لا يدين بالإسلام من النصارى وغيرهم استراب بدينهم ونهجهم، فأثناء سيرهم إلى النهروان مروا بنخل لنصراني، فساموه جنى نخلته فوهبها لهم، لكنهم استعفّوا عن أكلها بلا

[١٤٧] تاريخ الطبري، ج٤، ص٨٩.
[١٤٨] العقد الفريد، ج٢، ص٣٩٠.

ثمن، فتعجب النصراني وقال لهم: «ما أعجب هذا! أتقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تقبلون مني جنى نخلة إلا بثمن»؟![١٤٩]

فكان ادعاء الديانة اليهودية والنصرانية من الأمور المنجية من قتلهم، فمن قال إنه يهودي أو نصراني أو على أي دين كان آمناً عندهم، إلا المسلم، فصار المسلمون يحتالون لأنفسهم بالمعاريض للنجاة من القتل، ومن ذلك ما يرويه الأصمعي عن عيسى بن عمر قال: «بينما ابن عرباض يمشي مقدماً لطيه إذ استقبلته الخوارج يجزون الناس بسيوفهم، فقال لهم: هل خرج إليكم في اليهود شيء؟ قالوا: لا، قال: فامضوا راشدين، فمضوا وتركوه»، فأوهمهم أنه يهودي![١٥٠]

وذكر المبرد أن واصل بن عطاء كان ورفقة سائرين، فاجتازوا بالخوارج، فقال واصل: إن هذا ليس من شأنكم، فاعتزلوا ودعوني وإياهم، وكانوا قد أشرفوا على العطب، فقالوا: شأنك. فخرج إليهم، فقالوا: ما أنت وأصحابك؟ قال: مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده. فقالوا: قد أجرناكم، فامضوا مصاحبين، فإنكم إخواننا. قال: ليس ذلك لكم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾[١٥١]، فأبلغونا مأمننا، فنظر

---

[١٤٩] المصدر نفسه، ص ٣٩١.

[١٥٠] المصدر السابق، ص٤٦٤.

[١٥١] التوبة، ٦.

بعضهم إلى بعض ثم قالوا: ذلك لكم، وساروا معهم حتى بلغوهم المأمن![١٥٢]

ومر رجل يسمى الفرز بن مهزم العبدي بجماعة منهم، فسألوه عن خبره وأرادوا قتله، فأقبل على قطري بن الفجاءة، وكان من قادتهم، فقال: إني مؤمن مهاجر. فسأله عن أقاويلهم، فأجاب إليها، فخلوا عنه، فقال:

فَشَدّوا وثاقي ثم ألجَوا خصومتي   إلى قَطريٍّ ذي الجبينِ المفلّقِ

وحاججتُهم في دينهم فحججتُهم   وما دينُهم غيرُ الهوى والتخلُّق[١٥٣]

وخرج قوم من الخوارج بالبصرة، فلقوا شيخاً أبيض الرأس واللحية، فقالوا له: من أنت؟ قال: أعُهِدَ إليكم في اليهود بشيء؟ أو بَدا لكم في قتل أهل الذمة؟ قالوا: اذهب عنا إلى النار.[١٥٤]

ولما ظهر الخوارج على الكوفة أخذوا أبا حنيفة رضي الله عنه فقالوا له: تب يا شيخ من الكفر! فقال: أنا تائب إلى الله من كل كفر! فخلوا عنه. فلما ولى قيل لهم: إنه تاب من الكفر، وإنما يعني به ما أنتم عليه! فاسترجعوه، فقال رأسهم: يا شيخ! إنما تبت من الكفر، وتعني به ما نحن عليه؟! فقال أبو حنيفة: أبظنٍّ تقول هذا، أم بعلم؟ فقال: بل بظن. فقال أبو حنيفة: إن الله تعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن

---

١٥٢ الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، ج٢، ص ١٠٦.

١٥٣ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١، ص١٦١.

١٥٤ الأذكياء، لابن الجوزي، ص١٢٨.

إثم﴾، وهذه خطيئة منك، وكل خطيئة (عندك) كفر؛ فتب أنت أولاً من الكفر! فقال: صدقت يا شيخ، أنا تائب من الكفر!

## مناظرة عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما لهم

وعندما عظم بغيهم وولغوا في دماء المسلمين كان لا بد من ردعهم، وكان تمددهم في جهات العراق من الكوفة والبصرة، فهم في الأرض التي يحكمها أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، أما بلاد الشام فكانت تحت سلطة معاوية بن أبي سفيان، فكان لا بد لعليّ أن يجد لهم حلاً، فرأى أن العدل يستلزم المناظرة والمحاججة، فقد أبى تكفيرَهم وقال إنما هم مسلمون فروا من الكفر فضلوا السبيل، وبعد إقامة الحجة عليهم يكون شأن آخر وعقاب على الجرائم المستجدة، فأرسل إليهم ابن عباس رضي الله وقال له: لا تحاججهم بالقرآن فإنه حمال أوجه، ولكن حاججهم بالسنة. وذكر الشاطبي أن ابن عباس أتى الحرورية وهم قائلون (وقت القيلولة) وعليه حلة، فقالوا: ما هذه الحلة عليك؟ قال: ما تعيبون من ذلك؟! فلقد رأيت رسول الله ﷺ وعليه أحسن ما يكون من الثياب اليمنية، ثم قرأ الآية ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[١٥٥]. فقالوا: ما جاء بك؟ قال: جئتكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ، وليس فيكم منهم أحد، ومن عند ابن عم رسول الله ﷺ، وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله،

---

[١٥٥] الأعراف، ٣٢.

جئت لأبلغكم عنهم وأبلغهم عنكم. فقال بعضهم: لا تخاصموا قريشاً فإن الله يقول: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[١٥٦]، فقال بعضهم: بلى فلنكلمه. فقال لهم: ما نقمتم من الحكمين، وقد قال تعالى في شقاق رجل وامرأته: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا﴾[١٥٧]؟ فكيف بأمة محمد صلوات الله وسلامه عليه؟! فقالوا: أما ما جعل الله حكمه إلى الناس وأمرهم بالنظر فيه فهو إليهم، وأما ما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه؛ حكم في الزاني مئة جلدة، وفي السارق القطع، فليس للعباد أن ينظروا في هذا. فاستشهد ابن عباس بقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[١٥٨]، وقال لهم: أما علمتم أن الله أمر بتحكيم الرجال في أرنب تساوي ربع درهم تصاد في الحرم، وفي شقاق رجل وامرأته؟ فقالوا: اللهم نعم. قال إذا كان هذا في أرنب، فما بالكم في أمر يخص أمة محمد ﷺ؟ أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم، فإن علياً قاتل ولم يَسْبِ ولم يغنم؛ لئن كانوا كفاراً لقد حلّت لنا أموالُهم، ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت علينا دماؤهم. وإنه محا عن اسمه إمارة المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين. فقال ابن عباس: أما قولكم إنه قاتل ولم يسب ولم يغنم؛ أتَسْبُون أمكم عائشة؟ فإن تستحلون منها ما تستحلون من غيرها فقد كفرتم، وإن زعمتم أنها ليست بأمكم فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام، والله تعالى يقول: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ

---

[١٥٦] الزخرف، ٥٨.
[١٥٧] النساء، ٣٥.
[١٥٨] المائدة، ٩٥.

أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾[١٥٩]، فأنتم ترددون بين ضلالين، فاختاروا أيهما سلمتم. أخرجت من هذه. قالوا: اللهم نعم.

قال: فأنشدكم الله هل علمتم أن رسول الله ﷺ أمسك عن القتال للهدنة بينه وبين أهل الحديبية؟ قالوا: نعم، ولكن علياً محا نفسه من خلافة المسلمين. قال ابن عباس: ليس ذلك يزيلها عنه وقد محا رسول الله ﷺ اسمه من النبوة، حين قال سهيل بن عمرو: لو علمت أنك رسول الله ما حاربتك، فقال للكاتب: ﴿اكتب من محمد بن عبد الله﴾[١٦٠]. أخرجتُ من هذه؟ قالوا نعم.

## مناظرة عليٍّ رضي الله عنه الثانية لهم

ذكر الطبري[١٦١] وابن الأثير[١٦٢] أن علياً لحق بابن عباس وهو لا يزال يناظرهم، فقال: ما أخرجكم علينا؟ قالوا: حكومتكم يوم «صفين». قال: أنشدكم بالله، أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف فقلتم: نجيبهم إلى كتاب الله، قلت لكم: إني أعلم بالقوم منكم؛ إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إني صحبتهم وعرفتهم أطفالاً ورجالاً، فكانوا شر أطفال وشر رجال؛ امضوا على حقكم وصدقكم فإنما رفع القوم المصاحف خديعة ودهناً ومكيدة. فرددتم عليّ رأيي وقلتم: لا، بل نقبل منهم. فقلت لكم: اذكروا

---

[١٥٩] الأحزاب، ٦.
[١٦٠] صحيح مسلم، برقم ١٧٨٤.
[١٦١] تاريخ الطبري، ج٣، ص١١٠.
[١٦٢] الكامل في التاريخ، ج٣، ص٣٢٨.

قولي لكم ومعصيتكم إياي، فلما أبيتم إلا الكتاب اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن، وأن يميتا ما أمات القرآن، وإن أبيا فنحن من حكمهما براء؟ قالوا: فخبّرنا؛ أتراه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء؟ فقال: إنا لم نحكّم الرجال، وإنما حكّمنا القرآن، وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق، إنما يتكلم به الرجال. قالوا: فخبّرنا عن الأجل؛ لم جعلته في ما بينك وبينهم؟ قال: ليعلم الجاهل ويثبت العالم، ولعل الله يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة. وبعد انتهاء المحاورة أظهروا أنهم اعترفوا بصحة ما قاله، وأنهم أتوا ذنباً ثم تابوا، وقالوا له: فتُبْ كما تُبنا نبايعك، وإلا فنحن مخالفون، فطلب منهم أن يدخلوا الكوفة فدخلوا، ثم زعموا أنه بايعهم على هذا. وحين أشيع أن علياً رجع عن اعترافه بخطئه في التحكيم أتاه رجل فقال: إن الناس تحدثوا أنك رجعت لهم عن كفرك؟ فخطب الناس في صلاة الظهر فذكر أمرهم فعابه، وقال: من زعم أني رجعت عن الحكومة فقد كذب، ومن رآها ضلالاً فهو أضل منها. فوثبوا من نواحي المسجد يقولون: «لا حُكمَ إلا لله»، واستقبله رجل منهم واضعاً إصبعيه في أذنيه فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، فقال عليٌّ رضي الله عنه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾، وحين شاهد عليٌّ هذا النفور منهم جعل يقلب يديه على المنبر ويقول: «حُكم الله عز وجل يُنتظر فيكم» قالها مرتين، ثم قال: «إن لكم عندنا ثلاثاً: لا نمنعكم صلاة في هذا المسجد،

ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفيء ما كانت أيديكم في أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا». فقال له الناس: إنهم خارجون عليك. فقال: «لا أقاتلهم حتى يقاتلوني، وسيفعلون». وصدق ما توقعه، إذ خرجوا من الكوفة متواعدين على اللقاء بالنهروان حيث كانت الموقعة الكبرى بين الفريقين.

وهنا نستطيع القول: «أعذر من أنذر»، وقد انتهت مقارعة الحجة بالحجة، ولم يعد كلام لغير السيف، فنكبهم وأبادهم، ولم ينج منهم إلا تسعة نفر كما ذكرنا آنفاً. ونلاحظ أن الخليفة الصحابي الذي تخرج في مدرسة أعظم معلم للبشرية سيدنا محمد ﷺ لم يقاتلهم مع تكفيرهم له، ولم يحاول قمعهم، وإنما عدّهم من جماعة المسلمين على رغم ضلالهم، فبين لهم حقوقهم: «لا نمنعكم صلاة في هذا المسجد...»[١٦٣]، ولم يستخدم القمع في مواجهتهم، بل العكس، فإنه حاول استيعابهم وتألفهم إلى جماعة المسلمين.

# قمع القمع

كما رأينا، فإن ظاهرة «الخوارج» أصبحت في الإسلام كظاهرة الصعاليك في الجاهلية، تهدد أمن المجتمع وتنشر الرعب بين الآمنين، وتستحل دماء المسلمين، فيقتلون منهم كل من لم يصدر عن رأيهم أو يوافق هواهم، فبدأت «مصادرة الرأي» منهم، في حين لم يصادر أحد رأيهم ولم يفرض عليهم رأيه بالقوة أو السلطان، وإنما بالحوار والمحاجة، فبدأ القمع منهم،

---

١٦٣ تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص٩١.

فكان لا بد من «قمع القمع» ووقف قتل الأبرياء بقتال تلك الفئة الضالة المجرمة الباغية التي تحولت إلى «إرهاب» حقيقي يهدد أمن المجتمع ويشكل خطراً عليه، فكان لزاماً على الدولة الأخذ على يدهم، وإنقاذ المجتمع من سطوتهم، لإعادة الاستقرار إليه.

وهكذا نرى أن القمع الذي مارسه الخوارج - وهم لا يمثلون الإسلام البتة، بإجماع الأمة وبأحاديث نبوية ذكرت خروجهم ووصفتهم وبينت ضلالهم - كان من القمع المذموم الذي يقوم على الرؤية الفرعونية: ﴿لا أريكم إلا ما أرى﴾[١٦٤]، أما القمع الذي مارسه عليهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فكان قمعاً محموداً، بل ضرورة لحفظ أمن المجتمع من عدوانهم، وواجباً على الخليفة لتحقيق الاستقرار ونشر الأمن بين الناس. ولم يتوقف الخوارج حتى بعد أن قتلوا أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه.

## مناظرة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لهم

لم يكن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه خليفة كغيره من الخلفاء، فقد كان فقيهاً، أخذ العلم عن سعيد بن المسيب رحمه الله وعن معاصريه في المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فكان تقياً ورعاً، رد المظالم، ونشر العدل، ومنع قومه بني أمية ما كانوا يأخذونه من بيت مال المسلمين بغير حق، وكان زاهداً في متاع الدنيا، فلم يأخذ ما ليس له بحق،

---

[١٦٤] غافر، ٢٩.

وإلى جانب ذلك كان قوياً في الحق، لا ينخدع بدعاة الظلم والقمع وينفضهم عنه نفض الغبار، وهذا هو الفرق بينه وبين سابقيه ولاحقيه، وهي أيضاً الميزة التي تكون للقائد المسلم الذي يتقي الله في شعبه ويرى الإمارة تكليفاً لا تشريفاً.

ولم يكن الخوارج قد توقفوا - كما بيّنا - فقد تابعوا إغاراتهم على الدولة والناس حتى بعد تمكن بني أمية من الحكم، ففي زمن الحجاج في عصر عبد الملك بن مروان كانت لهم صولات، واشتهرت منهم غزالة الحرورية في مواجهة الحجاج الذي تابع تعقبهم وقتالهم، فصاروا بعد ذلك يتخفّون، فلما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز وعرفوا عدله وورعه وتقواه طمعوا فيه، فخرجوا بالحيرة، فأرسل إليهم عمر رسولاً وبعث معه كتاباً، فأرسلوا إلى عمر رجلين، فلما جاءا عمر وجلسا إليه قال لهما: ما الذي أخرجكم علينا؟ فقال أحدهما: إننا لم ننكر عليك عدلك ولا سيرتك، ولكن بيننا وبينك أمر، هو الذي يجمعنا ويفرق بيننا، فإن أعطيتناه فنحن منك وأنت منا، وإن لم تعطنا فلسنا منك، ولست منا. فقال عمر: فما هو؟ قال: خالفت أهل بيتك، وسميتهم «الظلمة»، وسميت أعمالهم «المظالم»، فإن زعمت أنك على الحق، وأنهم على الباطل، فالْعَنْهم وتبرّأ منهم!

فقال عمر: إنكم لم تتركوا الأهل والعشائر وتعرضتم للقتال إلا وأنتم في أنفسكم مصيبون، ولكنكم أخطأتم وضللتم، وتركتم الحق، أخبراني عن الدين؛ أواحدٌ هو أم اثنان؟ قالا: بل واحد. قال: أفيسعكم في دينكم شيء

يعجز عني؟ قالا: لا. قال: فأخبراني عن أبي بكر وعمر، ما حالهما عندكما؟ قالا: أفضل الناس أبو بكر وعمر. قال: ألستما تعلمان أن رسول الله ﷺ لما توفي ارتدّت العرب، فقاتلهم أبو بكر، فقتل الرجال، وسبى الذرية؟ قالا: بلى. قال: فلما توفي أبو بكر وقام عمر، ورَدّ تلك النساء والذراري إلى عشائرهم، فهل تبرأ عمر من أبي بكر، ولعنه بخلافه إياه؟ قالا: لا. قال: فتتولونهما على خلاف سيرتيهما؟ قالا: نعم. قال: فما تقولان في بلال بن مرداس؟ قالا: من خير أسلافنا. قال: أفليس قد علمتم أنه لم يزل كافّاً عن الدماء والأموال، وقد لطخ أصحابه أيديهم فيها؟ فهل تبرأت إحدى الطائفتين من الأخرى، أو لعنت إحداهما الأخرى؟ قالا: لا. قال: فتتولونهما على خلاف سيرتيهما؟ قالا: نعم. قال عمر: فأخبراني عن عبد الله بن وهب حين خرج بأصحابه من البصرة يريدون أصحابهم، فمرّوا بعبد الله بن خباب، فقتلوه، وبقروا بطن زوجته، ثم عدلوا على قوم من بني قطيفة، وأخذوا الأموال، وغلوا الأطفال في المراجل (القدور)، ثمّ قدموا على أصحابهم من الكوفة، وهم كافون عن الدماء والفروج والأموال، هل تبرأت إحدى الطائفتين من الأخرى، أو لعنت إحداهما الأخرى؟ قالا: لا. قال: فتتولونهما على خلاف سيرتيهما؟ قالا: نعم. قال: فهؤلاء الذين اختلفوا بينهم في السيرة والأحكام لم يتبرأ بعضهم من بعض، ولا لعن بعضهم بعضاً، وأنتم تتولونهم على خلاف سيرتهم، فهل وسعكم في دينكم ذلك، ولا يسعني حين خالفت أهل بيتي في الأحكام والسيرة حتى ألعنهم وأتبرأ

منهم؟! ثم قال: أخبراني عن اللعن، فَرضٌ على العباد؟ قالا: نعم. قال: متى عهدكما بلعن فرعون؟ قالا: ما لنا به من عهد منذ زمان. قال: هذا رأس من رؤوس الكفر، ليس لكم عهد بلعنه منذ زمان، وأنا لا يسعني ألّا ألعن من خالفتهم من أهل بيتي؟! ثم قال لهم: ألستم أنتم الذين تؤمّنون من كان رسول الله ﷺ يخيفه، وتخيفون من كان رسول الله ﷺ يؤمّنه؟ قالا: نبرأ إلى الله تعالى من هذه الصفة! قال: بلى! فسأخبركما عن ذلك، ألستما تعلمان أن رسول الله ﷺ خرج والناس أهل كفر، فدعاهم أن يقرّوا بالله ورسوله، فمن أبى قاتله وخوّفه، ومن أقرّ بهما أمّنه وكفّ عنه، وأنتم اليوم من مرّ بكم يقرّ بهما قتلتموه، ومن لم يقرّ بهما أمنتموه، وخليتم سبيله! فقال أحد الرجلين: ما رأيت حجيجاً (أي محاجاً قويّ الحجة) أقرب مأخذاً، ولا أوضح منهاجاً منك، أشهد أنك على الحق، وأنا على الباطل. وقال الآخر: لقد قلت قولاً حسناً، وما كنت لأفتات على أصحابي حتى ألقاهم، فلحق بأصحابه، وأقام الآخر عند عمر[١٦٥].

لقد كان منهج عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه منهج عليٍّ رضي الله عنه ذاته، موقف المسلم الفقيه الذي حمل مسؤولية الأمة فقدم العدل على السياسة، والحوار على القمع، ودفع الرأي المخالف بالحجة لا بمصادرة الرأي وتكميم الأفواه، وهذا منهج الإسلام الذي أجمعت عليه الأمة المتمثلة بفقهائها وعلمائها الربانيين، لا إسلام الساسة الممنهج الذي يستقطب علماء

---

[١٦٥] الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ص٩٩.

ذلقي اللسان جاهلي القلوب فيحلون لهم ما حرم الله لتستقر دولهم وتتمكن عروشهم، فالقمع لم يكن ديناً ولا هو من الدين، وإنما هو آخر العلاج فلا يستخدم إلا لرد خطر يتهدد البلاد أوالعباد أو يؤذيهم أو يقلق أمنهم، فلزم معهم عمر الحوار ورد عليهم بالحجة التي لم ير أحدهما بأساً من الاعتراف بأنها الحق، وأنه كان على الباطل، ولا نشك في أن الخوارج حين طلب منهم عمر بن عبد العزيز إرسال محاورين اختاروا لهم أكثرهم ضلوعاً في المذهب وأرسخهم في فقهه وأقواهم حجة فيه وأطلقهم لساناً في الذود عنه، فسقطت حججهم الباطلة أمام حجج عمر المبنية على اتباع النبي ﷺ والخلفاء الراشدين، والمؤسسة على حكمة الشرع وأدلته الواضحة.

## قمع الخوارج في العصر العباسي

لم تتوقف حركات الخوارج، على رغم قيام دولة العباسيين في العراق، الذي كان مركز هؤلاء ومنطلقهم، فاستغلوا اضطراب الأمور في بداية قيام الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية، وبدأت محاولاتهم الاستقلال عن الدولة في جنوب شرقي الجزيرة العربية، وذلك في عهد أوائل الخلفاء العباسيين أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور، اللذين لم يتركا خطر هذه الحركة يستفحل، فجردا لهم جيشاً هزمهم. ثم تركهم العباسيون بعد ما شعروا بأن شوكتهم ضعفت. إلا أنهم ثاروا مرة أخرى في الجزيرة الفراتية في عهد هارون الرشيد بقيادة مالك بن طريف، فحشد

الرشيد له جيشاً كبيراً أمّر عليه يزيد بن مزيد الشيباني، من قبيلة وائل التي ينتمي إليها مالك، وفي ذلك قال بكر بن النطاح العجلي:

وائِل بَعضُها يقتلُ بَعضاً    لا يَفِلُّ الحَديدَ غَيرُ الحَديدِ
لَو تَلَقّى الوَليد غَير يَزيدٍ    لَغَدا ظاهِرًا عَلَيهِ الوَليدُ

فانتهت المعركة بهزيمة مالك وقتله. وفيه قالت أخته الفارعة بنت طريف مرثية من أجود قصائد الرثاء، تناقلتها كتب الأدب، منها قولها:

أيا شجر الخابورِ مالكَ مورقاً    كأنك لم تحزنْ على ابن طريف
فتى لا يحب الزادَ إلا من التقى    ولا المالَ إلا من قناً وسيوفِ
فقدناكَ فُقدانَ الربيعِ وليتنا    فديناكَ من فتيانِنا بألوفِ
فإن يكُ أرداهُ يزيدُ بنُ مزيدٍ    فربَّ زحوفٍ لفّها بزحوفِ
عليه سلامُ الله وقْفاً فإنني    أرى الموتَ وقّاعاً بكلِّ شريفِ

أما قمع البرامكة الذي قام به الرشيد، فهو يدخل في باب القمع السياسي، وإن أثبت بعض المؤرخين حفاظ البرامكة على مجوسيتهم سراً وتغلغلهم في مفاصل الدولة العباسية لاستعادة الدولة الفارسية، التي تمكن الصفويون في ما بعد من إقامتها على أنقاض الدولة التيمورية بعد سبعة قرون من الفتح الإسلامي، فبسطوا سلطتهم على إيران وأسسوا المدرسة الاثني عشرية وجعلوها الدين الرسمي لدولتهم وفرضوا على الشعوب التدين بها بحد السيف، وكان الرشيد تربى في كنف البرامكة، فكان يحيى مربيه، وزوجته مرضعته، وكان جعفر أخاه من الرضاع، لكنه حين اكتشف أنهم

أخذوا يمسكون بحبال الدولة تدريجياً ويغلغلون فيها العناصر الفارسية، وهو لاهٍ عنهم مطمئن إليهم لا يتوقع الانقلاب منهم على سلطته، استيقظ من غفلته ونكبهم.

## مناظرة أبي حنيفة رحمه الله للخوارج

وكان الإمام العالم الفقيه أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن مرزُبان الكوفيّ قد ظهر نجمه في زمن المهدي، ومناظرته للخوارج التي حفظها التاريخ تدل على أن المناظرات خرجت من إطار السياسة والدولة إلى مجال الفقه والدين، والهدف إقناع العلماء برأيهم وجذبهم إلى صفهم وبالتالي الاستكثار من مؤيدي العامة، فأصبحوا يناظرون العلماء بدلاً من الأمراء، وذلك لقوة سطوة الدولة من جهة، وضعف الفقه عند الأمراء والقادة من جهة أخرى، يستثنى من ذلك أبو جعفر المنصور الذي كان فقيهاً درس العلم الشرعي على فقهاء المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فجاءت دعوتهم أبا حنيفة إلى المناظرة من هذا الباب لدفعه عن مذهبه، إذ اشتهر بأنه لا يكفر أحداً من أهل القبلة بذنب، ولجذبِهِ إلى مذهبهم، فجاؤوه في المسجد، فقالوا: هاتان جنازتان على باب المسجد؛ إحداهما لرجل شرب الخمر حتى كظته وحشرج بها فمات غرقاً في الخمر. والأخرى لامرأة زنت حتى إذا أيقنت بالحمل قتلت نفسها! فما تقول فيهما؟ قال أبو حنيفة: من أي الملل كانا؟ أمن اليهود؟ قالوا: لا. قال: أفمن النصارى؟ قالوا: لا. قال: أفمن المجوس؟ قالوا: لا. قال: فمن أي الملل كانا؟ قالوا: من الملة

التي تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله! قال: فأخبروني عن الشهادة، كم هي من الإيمان؛ ثلث، أم ربع، أم خمس؟! قالوا: إن الإيمان لا يكون ثلثاً، ولا ربعاً، ولا خمساً! قال: فكم هي من الإيمان؟ قالوا: الإيمان كله. قال: فما سؤالكم إياي عن قوم زعمتم وأقررتم أنهما كانا مؤمنين؟! فقالوا: دعنا عنك! أمن أهل الجنة هما أم من أهل النار؟ قال: أما إذا أبيتم فإني أقول فيهما ما قال نبي الله إبراهيم عليه السلام في قوم كانوا أعظم جرماً منهم: ﴿رَبِّ إنَّهن أضْلَلْنَ كثيراً من النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَني فإنَّه مِنّي وَمَنْ عَصاني فإنَّك غَفورٌ رَحيمٌ﴾[١٦٦]، وأقول فيهما ما قال نبي الله عيسى عليه السلام في قوم كانوا أعظم جرماً منهما: ﴿إنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإنَّهُمْ عِبادُكَ وَإنْ تَغْفِر لَهُمْ فَإنَّكَ أنْتَ العَزيزُ الحَكيمُ﴾[١٦٧]، وأقول فيهما ما قال نبي الله نوح عليه السلام: ﴿قالوا أنُؤمِنُ لكَ واتَّبَعَكَ الأرذَلونَ ۝ قال وما عِلمي بما كانُوا يَعْمَلونَ ۝ إنْ حِسابُهُمْ إلا عَلى رَبِّي لَو تَشْعُرونَ﴾[١٦٨]، وأقول فيهما ما قال نبيُّ الله نوح عليه السلام: ﴿وَلا أقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللهِ وَلا أعْلَمُ الغَيْبَ وَلا أقولُ إنِّي مَلَكٌ وَلا أقولُ لِلَّذينَ تَزْدَري أعْيُنُكُمْ لَنْ يؤْتَيَهُمُ اللهُ خَيْراً اللهُ أعْلَمُ بِما فِي أنْفُسِهِمْ إنّي إذاً لَمِنَ الظّالِمينَ﴾[١٦٩].

---

[١٦٦] إبراهيم، ٣٦.
[١٦٧] المائدة، ١١٨.
[١٦٨] الشعراء، ١١١، ١١٢، ١١٣.
[١٦٩] هود، ٣١.

فألقوا السلاح وقالوا: تبرأنا من كل دين كنا عليه، وندين لله بدينك؛ فقد آتاك الله فضلاً وحكمة وعلماً[١٧٠].

كما تدل عبارة «وألقوا السلاح»، التي نقلها لنا التاريخ في ختام مناظرة أبي حنيفة للخوارج، على أنهم كانوا محاربين مستعدين للقتل والقتال بعد المناظرة، لكن الحوار القائم على المنطق والحجة ردهم عن غايتهم فألقوا السلاح معترفين بخطأ ما كانوا عليه وبرئوا منه.

## غياب أسلوب القمع ضد الخوارج

لعل أهم ما يلاحظ في محاورات الفقهاء للخوارج، سواء أكانوا قادة سياسيين كالخليفتين علي بن أبي طالب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما، أم ممثلين لهم كعبد الله بن عباس رضي الله عنه، أم علماء لا علاقة لهم بالسياسة كأبي حنيفة، غيابُ الجانب القمعي منها، مع أنه كان في متناول يد علي بن أبي طالب وعمر بن عبد العزيز، لكنهما اجتنباه لأنهما عالمان بدين الإسلام، لم تجرَّهما السياسة والحرص على توطيد الدولة وتمكين الحكم إلى استحلال الدم الحرام، وإن كان الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه قاتلهم فإنه لم يبدأهم القتال، وإنما قاتلهم دفعاً، ثم تابع قتالهم لوقف جرائمهم في حق المدنيين واستحلالهم دماء المسلمين والاعتداء على الآمنين، فكان قتالهم في تلك الحال واجباً شرعياً على

---

[١٧٠] مناقب أبي حنيفة وصاحبيه، للذهبي، ص١٥١.

الخليفة، أما قبل ذلك فقد أبى أن يكفّرهم حين كانوا يكفرونه، ويقول: «من الكفر فرّوا، لكنهم أخطَؤُوا السبيل»[١٧١]، وتعهد لهم عدم منعهم المسجد والفيء، وألا يقاتلهم حتى يقاتلوه، والتزم معهم أسلوب الحوار والإقناع فحسب، وهكذا هو سلوك الفقهاء العلماء الربانيين الذين يجسدون الفكر الإسلامي القائم على الحجة وليس على مصادرة الرأي أو القمع، أو حتى التهجم على مذهبهم، فالهدف هو الدعوة إلى الحق قبل مقارعة الباطل، والغاية جذب الناس إلى الصواب وثنيهم عن غيهم، وإنقاذهم من ضلالهم، فلم يقل لهم علي ولا ابن عباس ولا عمر ولا أبو حنيفة أنتم ضللتم واستحللتم الدماء وقتلتم وخرقتم وسلبتم وفعلتم كذا وكذا، ولم يكلموهم في مذهبهم، وإنما انصرفوا إلى تبيين الحق لهم جلياً، فانحاز إليه منهم من انحاز تلقائياً تاركين ما كانوا عليه. وهذا هو همّ الإسلام كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذهِ سَبيلي أدْعُو إلى اللهِ عَلى بَصِيرةٍ أنا وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾[١٧٢]، وهي حكمة بالغة، فمن يريد إعادة الناس إلى الحق لا يقبّح ما هم عليه، وإنما يبن لهم الحق ويريهم صوابه وحُسنه، ولديهم عقول تميز وتختار، فالإسلام ليس دعوة مذهبية أو حزبية أو فكرية فيكون همُّها تكثير الأتباع وتضخيم الجماعة، وإنما هو دعوة الناس إلى الله ربهم وخالقهم ومدبر أمورهم الذي سيرجعون إليه يوماً فيحاسبهم. ولذلك لم يكن الدعاة الحقيقيون الفقهاء يتناولون ديانات الآخرين ومذاهبهم بالتسفيه والتقبيح

---

[١٧١] فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، ج١٢، ص٣٠١.
[١٧٢] يوسف، ١٠٨.

وكشف ضلالتها، وإنما يبينون لهم عظمة الإسلام، فيحبونه فيتبعونه، وتبقى الغاية هي الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى لا إلى الجماعة.

# خطر غياب القمع المحمود

مر بنا قول أبي الأسود: «تعدو الذئاب على من لا كلاب له»، وقالت العرب: «من أمن العقوبة أساء الأدب»، والفساد والظلم والعدوان لا تنقطع ما لم تُخَوّف القمع، هكذا طبائع النفوس، فمن تجرأ ولم يجد من يمنع أو يقمع تمادى وزاد، وهكذا ظهرت في المجتمع الإسلامي شخصيات سُكِتَ عنها في وقتها لأسباب سياسية أو استهانة بخطرها، فتمادوا في غيهم وغرسوا بذور الشقاق في الأمة لينبت شوكها في ما بعد وتتأذى به الأجيال التالية، فخرج أمثال عبد الله بن سبأ، وحمدان قرمط، اللذين تركا جراحاً بليغة في جسد الأمة لم تشف حتى اليوم، وكلما نُكئت تألم الجسد، فصنعوا فتناً وأيقظوا أخرى نائمة، ولو قُمعوا وقتها ما ظهر لفتنتيهم نار ولا دخان، ولا بقي منها حتى رماد أو أثر، وقد يكون انتباه المسلمين في ما بعد إلى أن غياب القمع وترك المفسدين يتجولون وينشرون أوبئتهم الفكرية هو السبب الذي ضعضع الأمة وجعلها تفترق فرقاً وجماعات، وأن خطر الفكر المنحرف لا يقل عن السموم التي تغتال الجماعات، وأنها تبدأ دعوات فكرية تتحول إلى مناهج سياسية ثم خطوات عسكرية تفرض رؤيتها على العامة بحد السيف وتَلْتَهِمُ الدولة تدريجياً، ولو قُمعت في أول نشوئها لما عظم خطرها ولا استشرى بلاؤها، ولا بقيت لها فرصة تتقوى فيها

لتستخدم القمع في إجبار الناس على اعتناق فكرها والدينونة لها، فكان للمسلمين بعد ذلك تصرفات أكثر حذراً، أو ما يسمى «خطوات استباقية».

## السَّبئية

مات عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، ليخلفه رأس آخر للنفاق ظهر في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، هو اليهودي عبد الله بن سبأ بن وهب الراسبي الهمداني، الذي ادعى الإسلام، وبدأ ينفث سمومه الفكرية في المجتمع الإسلامي الذي اعتمد قول النبي ﷺ: ﴿حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّهُ كَانَتْ فِيهِمُ الْأَعَاجِيبُ﴾[١٧٣]، وقوله ﷺ: ﴿إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، فَإِنْ كَانَ حَقًّا لَمْ تُكَذِّبُوهُمْ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلاً لَمْ تُصَدِّقُوهُمْ﴾[١٧٤]، فكان الناس يقفون عند هذين الأمرين، وينتهون عند النهي الثاني فلا يكذبون شيئاً مما يقول، فاستغل هذه الثغرة عند قليلي العلم والفهم والوعي، فمضى يبث سمومه، فكان مما قاله: «إن لكل نبيٍّ وصيّاً، ومحمد خاتم الأنبياء، وعلي خاتم الأوصياء، وإن قبساً إلهياً حل في عليّ»! ومثل هذه الهرطقات التي يدخلها في أدمغة من لا عقول لهم، ويزيد فيها شيئاً فشيئاً حتى قال إن علياً سيرجع بعد موته، فلما أنكروا عليه ذلك قال: «عجبت لمن يصدق أن عيسى سيرجع ولا يصدق أن وصي محمد سيرجع»؟ حتى وصل في آخر الأمر

---

[١٧٣] مجمع الزوائد، للهيثمي، ج١، ص١٩١. وهو ضعيف.
[١٧٤] مسند أحمد بن حنبل، برقم ١٦٨٩٠.

إلى أن يزعم أن علياً رضي الله عنه هو الله! سبحان الله وتعالى عما زعم! فبدأ أثره يظهر في الجهلة والبسطاء من الناس، فاستشعر عليّ رضي الله عنه خطره، فهمَّ بقتله، فحذره عبد الله بن عباس رضي الله عنه مغبة ذلك، وقال له: يا أمير المؤمنين، ستفتح باباً لليهود، فيقولون لهم إن المسلمين يقتلون من جاءهم من اليهود مسلماً، فحاذروا أن تدخلوا دين الإسلام! ولدفع هذا السوء عن الإسلام سكت الخليفة عن هذا المارق ولم ينتبه إلى خطره إلا بعد أن استشرى، حتى إن بعض المؤرخين ينسب إليه العمل السري منذ أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه والسعي إلى إثارة الفتنة بين المسلمين، وأنه ممن حبك الفتنة لمقتل عثمان، وأنه هو وجماعته وراء مقتل طلحة رضي الله عنه بعد أن تصالح مع علي رضي الله عنه وخرج من عنده، فاغتالوه. ثم خرج في أيام عليّ بهذه الفرية، وينسبون إليه تأسيس الفكر «الرافضي» المتشدد الذي يكفِّر معظم الصحابة ويؤلّه علياً رضي الله عنه، وعلى أفكاره بنى الصفويون دينهم الذي سموه «تشيعاً» وما هو بشيعي، لأن الشيعة في الأصل كانوا من أهل السنة وفيهم عدد من الصحابة، وهم الذين شايعوا علياً رضي الله عنه وناصروه، لكن الصفويين أخرجوا هذا المسمى عن أصله، فلم يسمح لهم العلماء باستلاب الاسم، فأطلقوا عليهم مسمى «الرافضة» لرفضهم إمامة من أجمع المسلمون على إمامتهم وخلافتهم، وهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهم، ولتكفيرهم أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله

عنها، وحصرهم الإمامة في ذرية الحسين، دون ذرية الحسن، رضي الله عنهما، لأنهم من زوجته السيدة زنان بنت كسرى رحمها الله، فكان وراء دعوتهم لآل البيت نزعة قومية فارسية أخفوها تحت عباءة آل البيت. وأنتج الفكرُ السبئيُّ الصفويين الذين قامت حركتهم على خُطا القرامطة، واحتلوا فارس (إيران) وفرضوا فيها مذهبهم المنحرف بحد السيف، وأماتوا سنّة النبي ﷺ، وأنشَؤُوا دولتهم، ثم اجتاح إسماعيل الصفوي العراق، وقتل فيها مليون إنسان، كما يذكر المؤرخون، وكانت غايته التمدد في البلاد العربية كلها وفرض مذهبه المنحرف على الشعوب بحد السيف، كما فعل في فارس، فخرج لقمعه السلطان العثماني سليم، الذي غار لما لقي إخوانه المسلمون (السنة) في العراق على يد الصفويين، فلاقاه في معركة جالديران وهزمه شر هزيمة، فرَّ على إثرها إلى البرتغال ليحرضهم على غزو بلاد المسلمين. وبقيت بلادنا تشهد محاولات التمدد الإيراني الصفوي في بلادنا في العصر الحديث، حتى استولوا على الأحواز، ثم الجزر الإماراتية: طنب الكبرى، وطنب الصغرى، وأبي موسى. ولم تتوقف إيران عن إرسال البعثات لنشر المذهب الصفوي في بلادنا، وتتغلغل سياسياً وفكريا في المجتمعات والدول من طريق الجماعات الذين تزرعهم في البلاد وتدعمهم مالياً وتقويهم، كما فعلت في البحرين ولبنان واليمن، وتدخلت عسكرياً في سورية، واستطاعت بسط نفوذها على العراق بعد احتلال أمريكا له والتعاون مع القيادات الأمريكية لتسليم السلطة للجماعات

التابعة لها، وما زالت أطماعها تتضح وراء الفتن والمشكلات الداخلية في دولنا.

لقد انتبه عليّ رضي الله عنه إلى الخطر الفكري الذي يمثله ابن سبأ، ولو أنه قمعه من أول الأمر لدفع عن الأمة خطراً كبيراً عانى منه السابقون وما زلنا نعاني منه في شق الصف والعداوة المستمرة بين المسلمين والرافضة، التي يحاول الطرفان تغطيتها بالابتسامات.

## إلى أي نوعي القمع يُنمى إحراق عليٍّ الذين ألَّهوه

ذكرنا أن القمع نوعان؛ محمود ومذموم، وقد اختلفت الروايات في صحة إحراق علي بن أبي طالب رضي الله عنه من زعموه إلهاً، وذكرها ابن حجر في كتب «فتح الباري في شرح صحيح البخاري».

وربما يجد المفتش في التاريخ أن هذا الخطأ السلطوي – إن كان حدث حقاً - هو الوحيد الذي حدث في خلافة علي رضي الله عنه وسابقيه من الخلفاء الراشدين، فحين استشرى أمر ابن سبأ وكثر أتباعه من الهمج الرعاع الذين يتبعون كل ناعق، ويستلب عقولهم ذلقُ اللسان فيسيطر على فكرهم ويوجههم كما يشاء، اجتمع عدد منهم أمام المسجد، فأُخبِر بهم الخليفة، فخرج إليهم فقال لهم: ويلكم ما تقولون؟! قالوا: «أنت ربُّنا وخالقُنا ورازقنا»! فقال: «ويلكم! إنَّما أنا عبدٌ مثلُكم آكلُ الطعامَ كما تأكلون وأشرب كما تشربون، إن أطعتُ اللهَ أثابَنِي إن شاء، وإن عصيتُه خشيتُ أن يُعذِّبَني،

فاتَّقوا الله وارجعوا»، فأبَوا. فلمَّا كان الغد غدوا عليه، فجاء قنبر فقال: قد - والله - رجعوا يقولون ذلك الكلام، فقال: أدخِلهم، فقالوا كذلك، فلمَّا كان اليوم الثالث قال: «لئن قلتُم ذلك لأقتلنَّكم بأخبث قتلة»، فأبوا إلاَّ ذلك، فأمر خادمه قنبر بإحضار فَعَلةٍ (عمال) لحفر أخدود، ألقاهم فيه وأحرقهم، وقال مرتجزاً:

إنِّي إذا رأيت أمراً منكراً   أوقدتُ ناري ودعوتُ قنبرا

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل كان فعلُ عليٍّ رضي الله عنه قمعاً محموداً أم مذموماً؟ وهل الحرق تعذيب أم قمع، في ميزان قول النبي ﷺ: ﴿إن الله كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ، فإذا قَتلتُم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبَحتم فأحسنوا الذِّبحة، ولْيحدَّ أحدُكم شفرَتَهُ وليُرِحْ ذبيحتَه﴾[١٧٥]؟

ويأتينا الجواب من ابن عباس رضي الله عنهما، في تتمة القصة: فلما بلغ ابنَ عباسٍ رضي الله عنهما ما حدث أنكر عقوبة الحرق، وقال: لو كنت أنا لم أحرِّقهم؛ لنهي رسول الله ﷺ: ﴿لاَ تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ الله﴾، ولَقتَلتُهم لقوله ﷺ: ﴿مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ﴾[١٧٦]. فابن عباس أقر قمعهم ولم يقر الطريقة**!** فقمعهم بالقتل قمع محمود وضروري لما ذكره ابن عباس، ولاستئصال خطرهم على المجتمع. وسنتناول القضية من جانبين؛ شرعي وإنساني.

---

[١٧٥] سنن ابن ماجه، برقم ١٣٥٦٠.
[١٧٦] صحيح البخاري، برقم ٣٠١٧.

**الجانب الشرعي:** قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: واختلف السلف في التحريق، فكره ذلك عمر وابن عباس وغيرهما مطلقاً، وأجازه عليٌّ وخالد بن الوليد ومعاذ بن جبل وغيرهما، وقال المهلب: ليس هذا النهي فيه للتحريم، بل على سبيل التواضع [١٧٧]. **و**أخرج الطبراني عن معاذ وأبي موسى رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أمرهما أن يعلما الناس، فزار معاذٌ أبا موسى، فإذا عنده رجل موثق بالحديد، فقال: يا أخي أوَ بُعثتَ تعذب الناس؟ إنما بُعثنا نعلمهم دينهم ونأمرهم بما ينفعهم**!** فقال أبو موسى: إنه أسلم ثم كفر. فقال معاذ: والذي بعث محمداً بالحق لا أبرح حتى أحرقه بالنار. فأتى بحطب فألهب فيه النار فكتفه وطرحه فيها. ولم يعترض أبو موسى**!**[١٧٨]

**الجانب الإنساني:** لا ريب أن التعذيب بكل أشكاله لا يصح إنسانياً، وقد نهى الإسلام حتى عن التعذيب حتى لو كانت نملة، ولسنا في مقام الدفاع عن خطأ أو البحث عن عذر لمرتكبه حتى لو كان أمير المؤمنين ورابع الراشدين الذي مكانته من رسول الله ﷺ كمكانة هارون من موسى، أبا الحسنين سيدنا علي رضي الله عنه، فالخطأ خطأ أياً كان مرتكبه، ولسنا في مقام تبرير لما فعل وهو نفسه لم يبرر لنفسه، وهو أكثر علماً وأفصح لساناً وأبلغ حجة وأنصع بياناً وأغزر لفظاً وأدق معنى، والصحابة عموماً

---

[١٧٧] فتح الباري، ج٦، ص١٥٠.
[١٧٨] فتح الباري، لابن حجر، ج١٢، ص٢٧٤.

ليسوا معصومين، و﴿كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون﴾[١٧٩]. وإنما نحاول أن نعايش الظروف التي أحاطت بالحادثة، ليكون في حكمنا شيء من العدالة إلى جانب الوجدان.

لقد بويع عليٌّ رضي الله عنه بالخلافة في زمنِ تفشّي الفتن بالمدينة، وقتل في هيجانها الخليفة عثمان رضي الله عنه، فكان أول ما طولب به الخليفة المبايَع القصاص بقتل كل من تسوروا الدار على عثمان، وعَدِّهم شركاء في دمه، سواء في ذلك من ضرب بسيفه ومن لم يضرب، ومنهم محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وعلي رضي الله عنه قبل أن يصبح خليفة كان قاضياً يحكم في الحقوق والخصومات والدماء، حتى إن عمر رضي الله عنه كان إذا عضلته قضية قال: «قضية ولا أبا حسن لها»، لرسوخ عليٍّ في القضاء وتعمقه في أحكامه وسعة عقله في الفهم والإحاطة والاستنباط، وفقهه في الدين الذي هو المرجع الأول للقاضي، فأبى رضي الله عنه قتل الجميع، وحكم بقتل القتلة فقط، فعمد الذين أثاروا الفتنة على عثمان من قبل حتى قُتل رضي الله عنه، إلى إثارتها من جديد على عليٍّ رضي الله عنه، فخرج عليه أناس ومعهم عدد من الصحابة رضي الله عنهم، على رأسهم طلحة والزبير، اللذين استجرهم الناس باتهام علي بالاشتراك في دم عثمان، وبعد أن تواجه الجيشان تحاور عليٌّ وطلحة وكاد الصلح يتم، فاغتيل طلحة بسهم وهو خارج من عند علي ليرد

---

[١٧٩] مسند أحمد بن حنبل، برقم ١٣٠٧٢.

أصحابه عن الحرب، فنادى من رموه: إن علياً قتل طلحة! فهاج الناس واقتتلوا. وقيل لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: لو خرجت فأصلحت بين الفئتين فأنت أم المؤمنين والكل يقدّرك ويحفظ مكانتك ولن يخرجوا عن رأيك، فرغبت في هذا الثواب فخرجت، فرًمي جملها بسهم، فاشتبك الناس فكانت معركة الجمل. وانشق معاوية بن أبي سفيان وأعد جيشاً من أهل الشام للاقتصاص من قتلة الخليفة كونه هو وليّ دمه، وكان المتهم لديه علي رضي الله عنه، الذي أراد منع إراقة الدماء في مدينة النبي ﷺ وإبعاد الفتن عنها، فخرج إلى الكوفة، وهناك بلغه خروج جيش معاوية لقتاله، فالتقى الجيشان في «صِفّين» وأريقت دماء الصحابة والتابعين، وعلى رأسهم الشهيد بن الشهيدين عمار بن ياسر رضي الله عنه وعن والديه، ثم رفعت المصاحف للتحكيم، ثم كانت الخدعة التي تسببت في انشقاق أصحاب علي عنه، الذين كفّروه بعد ذلك وشكلوا جيشاً لمحاربته، وهم الخوارج الذين مر ذكرهم، ثم صاروا يقتلون المسلمين ويروعون الآمنين، فشغلوا الخليفة عن كل ما هو أهم من صدهم ودفع شرهم عن المسلمين، فاغتنم معاوية الظرف وانفرد بالشام فخرجت من الخلافة، ثم دعا لنفسه فصار للمسلمين خلافتان، وهو ما حذر النبي ﷺ منه، فلم يعد عليٌّ يدري إلى أين يلتفت وأي أمر يتدارك، فقد ثقل الحمل وتراكمت طبقاته، لتأتي «القشة التي قصمت ظهر الجمل»؛ أناس يزعمون أنه هو الله! والجهاد الذي جاهده النبي ﷺ وأصحابه، والدماء التي بذلوها،

والصبر، والهجرة، والأذى الذي تحملوه من أجل توحيد الله و«إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد»، والتضحيات التي قدموها، كلها تذهب بحراك همج جهلة يزعمون أنه هو الله؟! لم تكن غضبته - وهو الحليم - غضبة عادية، فهو قرأ في القرآن الكريم المساءلة التي سيوقف الله عندها عيسى بن مريم عليهما السلام، وهو روح منه سبحانه ومعجزة في الخلق ونبي من أولي العزم: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[١٨٠]، والله يعلم أنه لم يفعل، لكن الموقف موقف حساب وتحقيق، فهو يوم عصيب لمن تواجهه هيبة الألوهية وغيرتُها! هذا مع عيسى عليه السلام بكل ما له من مكانة وبراءة مما قيل فيه وافتري عليه عد رفعه، فكيف بعليٍّ رضي الله عنه، في حياته وهو ليس بنبي ولا له فضل عيسى عليه السلام ومكانته؟ فكانت هذه هي «القشة القاصمة»، وأي قاصم فوق الشرك بالله، بل أعظم منه أن يقال لك: «أنت الله»! وأي غيظ يحرق فؤادك ويشعلك غضباً أكثر من أن تقول للناس أنا عبد مثلكم فيقولون لك لا بل أنت الله ربنا؟! وأنت تقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾[١٨١]، فتعلم أن المعبود من دون الله شريك للعابد في النار، قوم يريدون إلقاءك في النار، أو على الأقل يضعونك موضع الشبهة لتوقَف في الآخرة وتُسأل

---

[١٨٠] المائدة، ١١٦.

[١٨١] الأنبياء، ٩٨.

عن أمر لا ذنب لك فيه ولا علاقة لك بمرتكبيه! ثلاثة أيام وهو يعيد عليهم فلا يزدادون إلا جهلاً وعمىً، وفي مثل هذا قيل:

أظن الحِلمَ دَلَّ عَليَّ قومي وقد يُستَجهَل الرجلُ الحليمُ[١٨٢]

فلم يعد الحلم يتسع لهذا الغباء والجحود والعنت وقلة العقل، في ظروف فاضت بالغيظ والألم والأسى، فاستثاوروا حفيظته، وحُكْمُ القتل واضحٌ في شأنهم، لكن النقمة على تأليهه، رضي الله عنه - وهو ممّن قَدَروا اللهَ حقَّ قدرِهَ - وهيبتُه من وَضْعِهِ نِداً لله تعالى في فِريةٍ كهذه، ورَفْعُ مكان العبد إلى ما لا ينبغي له، أذهب حِلمه وضاعف غيظَه غيرةً لله سبحانه، وتأكيداً لعدم رضاه بقولهم، ما دفعه إلى إحراقهم، فهم ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، أما عليٌّ وعزير وعيسى عليهم السلام، فلهم تتمة الآيات: ﴿إنّ الذينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّا الحُسْنى أولَئكَ عَنْها مُبْعَدُونَ﴾[١٨٣]. وختاماً ننقل ما قاله ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: إن الطبراني ذكر في الأوسط، من طريق سويد بن غفلة، أن عليّاً بلغه أن قوماً ارتدوا عن الإسلام، فبعث إليهم فأطعمهم ثم دعاهم إلى الإسلام فأَبَوا، فحفر حفيرة ثم أتى بهم فضرب أعناقهم ورماهم فيها، ثم ألقى عليهم الحطب فأحرقهم، ثم قال صدق الله ورسوله. فإن صحت هذه الرواية فقد أبطلت ما سبق، وعليه فلا مأثم شرعياً ولا ملام إنسانياً.

---

١٨٢ البيت لقيس بن زهير العبسي.

١٨٣ الأنبياء، ١٠١.

# القـرامـطـة

لم يغب حُلُمُ بعثِ الدولة الفارسية، من أذهان كثير من المجوس الذين حقدوا على الإسلام ورجاله الذين أنهوا عبادة النار ودعوا الناس إلى عبادة الله الواحد القهار، وزالت على يدهم الدولة الساسانية، التي يعدّ المجوس سلالة ملوكها مقدسة ذات ارتباط خاص بالآلهة التي يعبدونها، فظلت محاولاتهم بَعثَها تنهضُ بين فترة وأخرى، وبعد نكبة البرامكة ازداد حقدهم وإصرارهم على بعثها، فرأوا أن السبيل الأسلم إلى ذلك هو لف الناس حول دعاتها بمعتقد ديني منحرف عن الإسلام من جهة، ولا يثير شكوك الشعوب المسلمة من جهة أخرى، فتبنَّوا الدعوة لآل البيت عليهم السلام، مستغلين حبَّ المسلمين لهم وتعاطفهم معهم، بعد ما حصل من نكبتهم في كربلاء، فاعتنقوا مذهب السبئية، فدعوا بعد وفاة الإمام جعفر الصادق إلى إمامة ابنه إسماعيل عليهما السلام، وبالطبع كان أئمةُ آل البيتِ بريئين من هرطقاتهم وكفرهم ومن كل دعوتهم، إلا أنهم - كما قالوا لعليٍّ رضي الله عنه: «أنت ربنا» ولم يلتفتوا إلى نهيه عن ذلك - فعلوا كذلك مع ذريته، لاستغلالهم في الدعوة إليهم ظاهرياً، والعمل على بعث الدولة الساسانية باطنياً، وكان لهم في ذلك الانتقاء من آل البيت رضي الله عنهم رؤية انطلقت من أن الحسين رضي الله عنه تزوج السيدة زنان بنت كسرى رحمها الله، وكانت مسلمة تقية، فعد هؤلاء أبناءها امتداداً للسلالة الساسانية التي انتهت بموت كسرى واستمرت في أبناء ابنته زنان، وهذا هو السر

الذي يجعلهم إلى اليوم يصرون على أن تكون الإمامة في أبناء الحسين، مستثنين الحسن وذريته، عليهم السلام جميعاً، مع أن الحسن هو الأكبر، وقد بويع بالخلافة بعد استشهاد أبيه، واستمرت خلافته ستة أشهر، ثم تنازل عن الخلافة لمعاوية في عام ٤١ هـ للمّ شمل المسلمين وحقن دمائهم، وسُمّي ذلك العام «عام الجماعة». فتبنى هؤلاء المجوس الدعوة الإسماعيلية، التي تعد فرقة القرامطة فرعاً منها.

ومؤسس الفرقة حمدان بن الأشعث الأحوازي، ولُقب بقرمط لقصر ساقيه. أرسله حسين الأحوازي الإسماعيلي في مهمة دعوية إلى جنوب العراق، في خلافة المعتمد على الله أحمد بن جعفر المتوكل، عام ٢٥٨ هـ، فأقام في ضواحي الكوفة، وعمل حارساً لبساتين النخل، فكان يصوم النهار ويقوم الليل، ويأخذ أجره على الحراسة تمراً، فينزع منه النوى ويتصدق به، ويدق النوى فيبيعه علفاً ليشتري بثمنه قرص شعير يفطر به!

فرأى فيه الناس نموذجاً مثالياً للزهد والعبادة قلَّ أن يتكرر في ذلك العصر، فأحبه الناس وتوسموا فيه الخير وظنوه من الصالحين، فصاروا يأتون إليه يطلبون الدعاء أو يأخذون البركة، ثم صار بعضهم يجلس إليه يتلقى الموعظة، وكان ذكياً، لم يختره حسين الأحوازي عن عبث، فلم يظهر للناس باطنيتيه؛ الصغرى الإسماعيلية والكبرى المجوسية، وإنما كان يحث على الإكثار من العمل الصالح، وخصوصاً الصلاة والصيام والصدقات. فصار له أتباع يأخذون عنه ويسمعون له، فتغلغل في عقولهم تدريجياً حتى

تمكن من السيطرة عليها، فقال لهم: إن الله فرض على نبينا محمد ﷺ خمسين صلاة، ثم خففها إلى خمس لأن ذلك الجيل جيل جهاد ودعوة، وعصرهم عصر إيمان وتقوى، أما نحن في هذا العصر الذي قلّت فيه التقوى وكثرت المفاسد وعاش الناس حياة ترف وقلة من العمل الصالح، فلم تعد تكفينا خمس صلوات، لذا يجب العودة إلى الأصل (خمسين صلاة)! فاتبعوه في بدعته هذه وتركوا سنة النبي ﷺ، حتى كان بعد مدة عرف فيهم الإرهاق، فقال لهم إن المال كله لله، وقد كان الأشعريون يجمعون أموالهم ثم يقتسمونها بالتساوي، ومدحهم النبي ﷺ في عملهم هذا، فقال: ﴿إنَّ الأشْعَرِيِّينَ إذا أرْمَلُوا في الغَزْوِ، أوْ قَلَّ طَعامُ عِيالِهِمْ بالمَدِينَةِ جَمَعُوا ما كانَ عِنْدَهُمْ في ثَوْبٍ واحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بيْنَهُمْ في إناءٍ واحِدٍ بالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وأنا منهمْ﴾[١٨٤]. ثم قال حمدان: أفلا تحبون أن تكونوا من النبي ﷺ ويكون هو منكم كحال الأشعريين؟ فاستجابوا له في ذلك، حتى وجدهم قد أنهكوا من كثرة الصلاة وقلة المال قال لهم: الآن أدّينا ما علينا من الصلاة، ولم يبق علينا فرض، فتبعوه وتركوا الصلاة، ثم بدأ ينفث سمومه الباطنية فيهم تدريجياً، وهم قد أسلموه عقولهم، فأخرجهم من دائرة الإسلام، وهم في ذلك يظنون فيه الخير وأنهم على منهج الحق. ولم يلق قامعاً يصده أو قوة ترده فاتسع نشاطه في جنوب العراق وبدأ أتباعه يكثرون، فأرسل نائبَه الحسن بن بهرام الفارسي المعروف بأبي سعيد الجنابي إلى البحرين

---

[١٨٤] صحيح البخاري، برقم ٢٤٨٦.

(الأحساء حالياً) أما دولة البحرين الحالية فكانت تسمى في ذلك العصر «دلمون»، أرسله لنشر الدعوة هناك، فانتشرت بشكل كبير، وفي حين كان التفكك والضعف ينهشان الدولة العباسية ظهرت أعداد كبيرة من الدعاة في اليمن والعراق وشرقي شبه الجزيرة العربية والمغرب وأجزاء من بلاد فارس ينشرون المذهب الإسماعيلي، ما أثار غضب الدولة العباسية المسلمة، والشيعة الاثني عشرية، لهذا الانتشار المفاجئ، وأصبح الإسماعيلية ما بين منتصف القرن التاسع الميلادي حتى عام ٨٩٩م حركة موحدة، قيادتها المركزية في السلمية بسورية. وسار أبو سعيد الجنابي بجيش إلى البصرة فهُزم. وبعد موته آل الأمر إلى ابنه سليمان المعروف بأبي طاهر الجنابي، الذي استولى على كثير من بلاد الجزيرة العربية، وأقام دولة مناوئة للدولة العباسية استمرت ثلاثين عاماً، وفي عام ٣١٧ هـ هاجم بجيشه مكة المكرمة في موسم الحج، وأعملوا السيوف في رقاب الحجيج، واستحلوا حرمة البيت الحرام، وقتلوا زهاء ثلاثين ألفاً من أهل مكة ومن الحجاج، وسبوا النساء والذراري، وخلعوا باب الكعبة، وسلبوا كسوتها، واقتلعوا الحجر الأسود من مكانه وأخذوه إلى الأحساء، وأعملوا السلب والنهب في مكة، وبال أبو طاهر الجنابي على الكعبة المشرفة، ورفع رأسه إلى السماء ينادي: «أين الطير الأبابيل؟ أين الحجارة من سجيل؟ ووقف حذاء البيت والسيف يأخذ الناس، وهو على فرسه يضحك

ويتلو: ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾[١٨٥]، حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾[١٨٦] قال: ما آمنهم من خوفنا، ظهر الباطن، يا أهل مكة حجوا إلى البحرين، وهاجروا إلى الأحساء من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها[١٨٧]. وعادوا إلى البحرين يحملون الحجر الأسود حيث أبقوه عندهم نحو اثنتين وعشرين سنة، واعترضوا قوافل الحجيج بالقتل والنهب والسبي، وخرجت لقتالهم بعض القبائل، ثم أرسل الخليفة العباسي المقتدر بالله جيشاً للقضاء على القرامطة يزيد على ثمانين ألفاً، فهزمهم جيش القرامطة الذي لم يتجاوز ألفين وسبعمئة فارس، وجاء ذكر ذلك في رسالة أبي طاهر للخليفة المقتدر بعد هزيمة الجيش، وطلب عدد من ملوك الإسلام استرداد الحجر الأسود منهم بأي مبلغ، وبذل بعضهم فيه خمسين ألف دينار، فلم يردوه، حتى بعث الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي من بلاد المغرب إلى ابن طاهر القرمطي رسالة ملؤها التنديد واللعن، يقول له فيها: «أخفقت علينا سعينا، وأشبهت دولتنا بالكفر والإلحاد بما فعلت، وإذا لم ترد على أهل مكة ما أخذت، وتعيد الحجر الأسود إلى مكانة، وتعيد كسوة الكعبة فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة». فلما وصلت هذه الرسالة إلى القرامطة حملوا الحجر الأسود إلى الكوفة فنصبوه في المسجد الجامع حتى يراه الناس، ثم حملوه إلى مكة وردوه في مكانه بالكعبة سنة ٣٣٩هـ،

---

[١٨٥] قريش، ١.

[١٨٦] قريش، ٤.

[١٨٧] الهمذاني، تثبيت دلائل النبوة، ص٢٧٨ وما بعدها.

وقالوا: «أخذناه بأمر وردناه بأمر». وفي عام ٩٣١م سلّم أبو طاهر الجنابي زمام الدولة في البحرين إلى شاب فارسي زعم أنه المهدي المنتظر، فأظهر الفارسي حقيقة مجوسية الحركة فأعدم بعض أعيان دولة البحرين، حتى وصل الأمر إلى سب النبي محمد ﷺ والأنبياء الآخرين عليهم السلام، ما أثار المجتمع الإسلامي عموماً، فاضطر أبو طاهر إلى التّبرُّؤِ منه والاعتراف بأنه خُدِع به، وأن هذا الشخص دجال، وأمر بقتله بعد ثمانين يوماً من زعامته. ومات أبو طاهر فآلت الأمور إلى أخيه الحسن الأعصم الذي قوي أمره واستولى على دمشق سنة ٣٦٠هـ، ثم توجه إلى مصر ودارت معارك بينه وبين الدولة الفاطمية، انهزم فيها القرامطة وتراجعوا إلى الأحساء. وبحلول نهاية القرن العاشر كان قرامطة البحرين تقلّصوا إلى قوة محلية، وبحلول منتصف القرن الحادي عشر انحازت الجماعات القرمطية في العراق وفارس وما وراء النهر إلى جانب الدعوة الفاطمية، فبدأ الضعف يسري في بنيان دولة القرامطة، فاستغلت قبائل إقليم البحرين هذه الفرصة وأخذوا ينازعونهم السيادة. وذكر ابن خلدون أن الأصغر أبا الحسن الثعلبي زعيم بني ثعلب في الأحساء تحالف مع بني مكرم رؤساء عُمان لطرد القرامطة، فاستولى بنو مكرم على عمان والأصغر على الأحساء وخطب فيها للخليفة العباسي، وبذلك انتهت دولتهم التي عظم أمرها حتى صارت أقوى وأكثر فساداً وخطراً واستبداداً من الخوارج، حتى إنها فرضت الإتاوة على الخليفة العباسي، ومنعت الحج

عشرين عاماً، وكان السبب الرئيس في كل ما ارتكبوه من جرائم هو غياب القمع المحمود، الذي أهمل خطر حمدان فترك السوس ينخر في داخل المجتمع وأعطاه الفرصة كي تنمو دعوته وتتسع ويتعاظم خطرها حتى كان منهم ما كان[١٨٨].

---

١٨٨ المصدر السابق.

# حقـائق مُـغَـيَّـبـة

# صناعة الأساطير

تتأثر الشعوب بأنماط من الناس يتخذون أفرادها نماذج تحتذى أو رموزاً يفخرون بهم ويعتزّون بإنجازاتهم ومواقفهم التي خلدتهم، أو ينددون بإجرامهم، فالتاريخ الإنساني الذي خلّد هابيل المظلوم هو نفسه الذي خلد قابيل الظالم، وكل من النموذجين يُستَذكَر في الموقف الملائم لنمطه. وبالمثل خلد التاريخ العالمي شخصيات أنبياء، مثل نوح وإبراهيم وإسماعيل ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، ودعاة مثل فيميون وآريوس وزيد بن نفيل، ومناضلين من أمثال غيفارا وعمر المختار وجواهر لال نهرو وغاندي، وقادة وأبطال من أمثال أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وخالد بن الوليد وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم، وألب أرسلان والزنكيين وصلاح الدين وبيبرس ومحمد الفاتح، رحمهم الله، وكذلك خلد مجرمين أمثال فرعون ونيرون وهتلر وستالين، وخونة أمثال أبي رغال وشاور وابن العلقمي، والتاريخ يزخر بأسماء تعني لشعوبها الشيء الكثير، ويزيد الخيال الشعبي فيها أشياء، مثل الانتصار على تنين أو وحش خيالي بسبعة رؤوس، وتُضفى عليهم قدرات خارقة تصل ببعضهم إلى الصراع مع الآلهة، مثل بروميثيوس في الأسطورة اليونانية. وهكذا نشأت الأساطير.

والكلمة أُخذت من السطر، وهو التصفيف والتأليف، قال رؤبة:

إني وأسطارٍ سُطِرْنَ سَطْرا لقائلٌ يا نَصرُ نَصْرٌ نَصْرا

فالأسطورة قَصص تاريخيّ خلط حقائق بخيال، فحين نزل القرآن الكريم ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾[١٨٩]، أي ما سَطَّرَهُ الأَوَّلون، فأعلام الأساطير ليسوا شخصيات وهمية محضة متخيلة كما يُظن، وإنما هم أشخاص حقيقيون لكن الخيال الشعبي تزيد في إمكاناتهم وأضفي عليهم قدرات خارقة، وركّب لهم قصصاً لم تحدث ولا يمكن أن تحدث! وفي محاولة للوصول إلى أرضية علمية مشتركة في تفسير أصل الأسطورة يقرر توماس بوليفينشي في كتابه «ميثولوجية اليونان وروما» وجود أربع نظريات في أصل الأسطورة، هي:

١- **النظرية الدينية**، تُرجع أصولها إلى الكتاب المقدس - مع الاعتراف بأنها حرفت – فـ«هرقل» هو «شمشون»، والمارد «ديوكاليون» الذي أنقذه «زيوس» من الغرق فوق أحد الجبال هو النبي نوح عليه السلام.

٢- **النظرية التاريخية**، التي ترى أن أعلام الأساطير عاشوا فعلاً وحقّقوا أعمالاً عظيمة، ثم أضاف إليهم خيال الشّعراء ذلك الإطار الغرائبيّ الذي يتحركون خلاله في جو الأسطورة.

٣- **النظرية الرمزية**، ترى أن الأساطير مجازات فُهمت على غير وجهها الصحيح، أو فُهمت حرفياً، ومن ذلك ما يقال عن أن «سارتون» يلتهم أولاده، أي «الزمن» يأكل كل ما فيه.

---

[١٨٩] الفرقان، ٥.

٤- **النظرية الطبيعية**، وبمقتضاها يتخيل عناص الكون من ماء وهواء ونار في هيئة أشخاص أو كائنات حية، أو أنها تختفي وراء مخلوقات خاصة، وعلى هذا النحو وجد لكل ظاهرة طبيعية كائن روحي تتمثل فيه وتبنى عليه أسطورة» [١٩٠]. ومن النظريتين الدينية والتاريخية ننطلق في فهمنا لمصطلح «الأسطورة» في هذا البحث. والعرب لم يكن لديهم قصص تاريخي أو ديني، وإنما لديهم الرواية، ومجملها متعلق بالحروب والشعر، أما القصص الديني فكان تداوله ضئيلاً جداً بقدر ما يتعلق بحياتهم الدينية، مثل قصة نبع زمزم وبناء البيت الحرام وفداء إسماعيل عليه السلام. وحتى قصص أقوام لوط وصالح وهود لم تكن منتشرة بينهم. وكان معظم قصصهم واقعياً لا يجنح إلى الخيال في التصورات وإنما خيالهم في المجاز من استعارات وكنايات وتشبيهات، فإذا قالوا خالد أسد فالتشبيه واضح. أما الشعوب الأخرى فقد جعلت لأبطالهم رأس أسد كأبي الهول، وتحدثت عن خيل مجنحة وحيوانات برأس صقر ومخالب أسد وأفاعٍ بسبعة رؤوس، وعن آلهة تتعدد وتتصارع، وبشر تصارعهم آلهة وتناصرهم آلهة أخرى ضد الآلهة الأخرى، وبشر يترقّون فيصبحون آلهة، وغير ذلك مما ينتجه جموح الخيال. فلما نزل القرآن الكريم معجزاً للعرب ببلاغته، ويقص عليهم ما ليس في ثقافتهم ﴿ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[١٩١]، أما

---

[١٩٠] الأسطورة توثيق حضاريّ، ص٣٠-٣١.

[١٩١] النحل، ٢٤.

الوحي إلى النبي ﷺ فإنهم ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾[١٩٢]، ومن هنا نفهم أن الأسطورة ليس المقصود بها القصص الخيالي المحض على الأقل.
ولأن الشعوب تتكئ على تاريخها في تنشئة أجيالها ودفعهم إلى الاقتداء بالنماذج الفذة من أجدادها، أضفت عليها زيادات خيالية مغرقة في المبالغة، لجعل المثل سقفاً عالياً يظل طموح الشباب يسعى إلى الوصول إليه، ولن يصل، فيبقى الجد والعمل قائمين بنشاط وهمة لتحقيق المطابقة إلى آخر العمر دون توقف عند نقطة وصول. والخيال والرواية والتداول قد تجعل من الخامل بطلاً ومن الإنسان العادي شخصاً خارقاً ومن اللص شخصاً فذاً أو فاضلاً، ومن المجرم قديساً، وهو الدور الذي يلعبه اليوم الأدب والإعلام.

وبذلك نرى أن الأساطير لا تنتهي، فيمكن للأدب والإعلام إنتاج أساطير في شكل مستمر من خلال تلميع الشخصيات وإبراز جوانب فيها تستهوي الشعوب، كالدين والبطولة والموقف الفريد والموت في سبيل قضية عادلة، وابتداع قصص خيالية لهم تضفي على شخصياتهم ألقاً مميزاً، فيتداولها الإعلام والأقلام، وبذلك تتحول إلى أساطير، وهذا ما سعى إلى تحقيقه الغرب حين احتل بلاد المسلمين، فأبرز للشعوب شخصيات يفترض أنهم مناصرون للشعوب ومناضلون أبطال، وقد يعتقلونهم مرات متتالية وغير ذلك من ممارسات تمثيلية، حتى صنعوا منهم أساطير شعبية، ثم اتضح

---

[١٩٢] الفرقان، ٥.

في ما بعد أنهم كانوا يداً للمحتلين توجه من خلالها الشعوب الثائرة بما يخدم مصلحة المحتل.

## الانتقائية الإعلامية

درجت مقولة «التاريخ يكتبه المنتصر» أو «يكتبه القوي»، وأنا آخذ الأشمل فأقول «التاريخ يكتبه المسيطر»، فالمسيطر يكتب التاريخ من وجهة نظره، وقد يخفي حقائق ويدوّن أكاذيب تتناقلها الأجيال في الكتب فتأخذها على أنها وثائق، والمسيطر هو الذي يصوغ الفكر العام للشعوب بفرض رؤيةٍ ما قسراً، كما فعل المأمون في قضية خلق القرآن، أو بالترويج كما فعل الأمويون في تشويه سمعة عليٍّ رضي الله عنه وأنصاره بين أهل الشام، والسيطرة قد لا تكون سيطرة قوة أو ناتجة من انتصار في معركة أو صراع، لكنها تأتي مع وصول فئة ما إلى منابر الإعلام ومراكز النشر، كما نرى اليوم في هذا الفضاء الإعلامي المتسع من قنوات فضائية وطباعة وصحافة، فلم يعد وصول شخص أو فئة إلى هذه المنابر مرتبطاً بقوتهم أو سلطتهم، وإنما يرتبط برضا السلطة الحاكمة عنهم وبمقدرتهم على التسلل والصعود على الأكتاف حتى يصلوا إلى هذه المكانة ويتولوا توجيه المجتمعات، من خلال نشر وقبول ما يوافق توجهاتهم والتطبيل لأعلامه ومحركيه، وإبرازهم للمجتمع ليكونوا قدوة للكاتب أو الصحافي أو المفكر، وإغلاق أبواب النشر في وجوه المخالفين لهم والمناوئين لفكرهم وتوجههم، لتغييب هذه الفئة وفكرها من الساحة الإعلامية، وبالتالي من

المجتمع، وذلك بأسلوب قمعي لا يختلف عن قمع قوة السلاح والسلطة، لأن القلم سلاح أخطر من السيف، والكلمة قد تغير مسيرة أمة، وهنا نجد كثيراً من الكتب التي تنتمي إلى عالم الفكر والأدب تناولت شخصيات معينة لتجعلها أسطورة، واجتهدت في تسليط الضوء بشكل كبير على شخصيتين محددتين جعلت منهما رموزاً أسطورية للموت في سبيل الرأي في مواجهة المجتمع، أو الرأي المهيمن على المجتمع، وهما «غيلان الدمشقي» و«الحلاج»[١٩٣]، دون غيرهما ممن تمتلئ بأسمائهم ومواقفهم كتب التاريخ وتنقل معاناتهم وصبرهم على التنكيل والتعذيب ثم القتل، وهم ثابتون على مواقفهم حتى الموت! وسنستعرض قصص عدد من الشخصيات التي قدمت دماءها وأرواحها على مذبح الكلمة والرأي والموقف، ثم نقارن ونناقش الشخصيتين الأشهر.

## شهداء الكلمة والموقف

مرت الأمة بامتحانات وابتلاءات فردية وجماعية، واشتهرت قصص عدد من الصابرين على التعذيب والتنكيل، الثابتين على كلمة الحق، منهم من نسيهم الناس ولكن الله لم ينسهم، ومنهم من خلدتهم الأقلام، سواء ممن عانوا السجن والظلم والتنكيل والتعذيب ثابتين على فكرهم أمام أصحاب الفكر المناوئ ممن ينتمون إلى السلطة، أوتنتمي السلطة إلى فكرهم، ومنهم

---

١٩٣ سبق ذكرهما برقم ٤.

من مات في سبيل فكرته ثابتاً على مبدئه حتى آخر نفس خرج مع قطرات دمه. ولعلنا نرى أن أكثر شخصيتين عُذّبتا من أجل رأيهما ونُكِّل بهما لكي يرجعا عن فكرهما، فثبتا وتحمّلا السجن والضر لكنهما لم يقتلا، هما الأحمدان؛ أحمد بن حنبل، وأحمد بن تيمية، رحمهما الله، فكلاهما صودر رأيه وعانى من قمع السلطة السياسية المنتمية إلى تيار فكري مناوئ أو متبنية له، ولكن الغريب في الأمر أن الأيام أثبتت أن الرجلين كانا على الصواب، في حين كانت السلطة والتيار الذي تحمل الناس عليه بالقوة هو الخطأ، فتبرأ الذين ورثوا السلطة من أفعال أسلافهم، وأعادوا الاعتبار إلى العلماء الذين نكلوا بهم، وخصوصاً ابن حنبل رحمه الله، الذي اعتذر إليه الخليفة المتوكل مما لقي من سابقيه، وطلب منه المسامحة! ومع أنهما صاحبا فكرة صحيحة تواجه فكرة خاطئة، أي: نورٌ يواجه ظلمة، وحقٌّ يواجه باطلاً، ومع كثرة الأحداث التي وقف فيها الحق مواجهاً الباطل، والعدل مواجهاً الظلم، والفكر مواجهاً الاستبداد، لم تتخذ الأقلام من أي منهما رمزاً أسطورياً، فهذا جانب مهم في مناقشتنا اختيار الأنماط الذين صنعت منهم الأقلام أساطير، والأسس المعتمدة في الانتقاء. هذا إلى جانب شخصيات قُتلت على مذبح الفكرة بيد السلطة، أو التيار الفكري المناوئ الغادر، أو المتسلط المعارض، وسنذكر عدداً منهم:

## سمية بنت خباط رضي الله عنـها:

الصابرة البطلة الثابتة على المبدأ محتملة أصناف القمع والتنكيل، الصحابية الشهيدة زوجة الصحابي الشهيد ياسر بن عامر، وأم الصحابي الشهيد عمار بن ياسر رضي الله عنهم، الأسرة التي باشر الإيمان قلوب أفرادها، فكانوا من الرعيل الأول، وهم أول أسرة تُبَشَّرُ بالجنة. فكانت سمية رضي الله عنها أول من بذلوا أرواحهم لإعلاء كلمة الله عز وجل في الإسلام، وهي من المبايعات الصابرات الخيّرات اللائي احتملن الأذى في ذات الله. كانت قبل الإسلام أَمَةً لأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي، وكان ياسر بن عامر حليفاً له، فزوَّجَهُ بها، فلما بعث الله نبيه محمداً ﷺ كانت من السابقين الأولين الذين اتبّعوه، فهي سابعة سبعة ممن اعتنقوا الإسلام في أول البعثة، وحين بدأت قريش ممارسة القمع نال المستضعفين أشدُّ العذاب والأذى، فالنبي ﷺ وزوجته خديجة رضي الله عنها، وأبو بكر رضي الله عنه، بسطت عشائرهم حمايتها عليهم، أما الباقون من المستضعفين فقد ذاقوا أصناف العذاب، وأُلبسوا أدراع الحديد تحت لهيب الشمس الحارقة على الرمال في رمضاء مكة، فكان آل ياسر ممن عانوا أشد المعاناة، فالفرق كبير بين أن يُعَذب المرء وبين أن يرى أهله إلى جانبه يعذبون ولا يستطيع أن يفعل لهم شيئاً، وخصوصاً إذا كانوا على الحق ويعذبون ظلماً، وغرباء يُنَكَّل بهم استضعافاً وقهراً. كانت قصة تعذيبهم والتنكيل الذي لقوه، وطريقة قتلها هي وزوجها ياسر المفجعة، أبلغ

أثراً في النفوس من كثير مما يذكر من قصص الذين قُتلوا في سبيل كلمة الحق والثبات على الرأي، فكانت أول من استشهد في الإسلام من الرجال والنساء، بعد رحلة تعذيب تقشعر لها الأبدان، لكي تتخلى عن دينها، فتمسكت أشد التمسك، ثم تنازل القامعون فطلبوا منها أن تسب النبي ﷺ، فأبت، ثم طلبوا أن تذكر بلسانها آلهتهم، فرفضت أشد الرفض، وثبتت على كلمة الحق حتى ماتت في سبيلها، إذ طعنها أبو جهل بحربته، أمام زوجها ياسر وابنها عمار، لم يمنعه من قتلها كونها امرأة من جهة، وعجوزاً من جهة ثانية، وغريبة لا عشيرة لها من جهة أخرى، وكلها موانع تحول بين الحر الكريم وبين ارتكاب مثل هذه الجريمة البشعة، لكن المثير للدهشة أن الأقلام لم تصنع منها أسطورة!

## ياسر بن عامر رضي الله عنه:

الصابر البطل المحتسب الصحابي الشهيد، زوج الصحابية الشهيدة سمية بنت خباط، ووالد الصحابي الشهيد عمار، رضي الله عنهم. لم يكن حظه من التعذيب والتنكيل أقل من حظ زوجته سمية رضي الله عنهما، وكان شيخاً مسنا يوم بعث النبي محمد ﷺ، فاتبعته أسرته الكريمة رضي الله عنهم أجمعين، كان أكثر أفراد أسرته معاناة، فليس أشد على المرء من أن تُهان زوجته وينكَّلَ بها، ويعذبَ ابنُه أمام عينيه، ولا يقدر على رد العدوان عنهما! وكانت الطعنة التي تلقتها زوجته سمية رضي الله عنها أمام عينيه وهو مقيد مصلوب أشدَّ إيلاماً له، فجرح الكرامة أشد ألماً من جرح الجسد،

والطعنة في الرجولة أبلغ من الطعنة في الصدر، لكن السفيه المجرم لم يمهله ليعيش هذا الألم طويلاً، فبعد أن لفظت البطلة الصابرة أنفاسها ناطقة بالشهادتين، أمام عيني زوجها واحتراق قلبه ومحاولته التملص من قيوده ليدفع عنها، أسرع إليه أبو جهل فخنقه بحبل حتى لفظ أنفاسه وسبابته مفردة بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. ليكون ثاني الشهداء في الإسلام، لقد قُتل ياسر مرتين؛ مرةً حين قتلت زوجته وهو عاجز عن نصرتها يسمع ويرى المشهد الدامي بعينيه اللتين لا جمر يعدل لهيبهما ولا دمع يطفئ حرقتهما، والثانية عند قتله وخروج روحه الطاهرة بكل ألمها وأملها بحسن الجزاء، مغادرة الجسد الذي حززته السياط وكوته الرمال وأدراع الحديد والشمس الحارقة، وهدّه الجوع والعطش، مات صابراً محتسباً ثابتاً على الحق في وجه الظلم وقهر الرجال في غربة لم يرحم أهلُها شيبته ولم يرعوا جواره، فكان هو وزوجته رضي الله عنهما أسطورتين حقيقيتين لم تحتاجا إلى صناعة، لكن مع ذلك تجاهلتهما الأقلام التي تصنع أساطير غيفارا ولينين وماركس في أدبنا العربي.

## عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

الخليفة الراشد، رمز العدل في العالم، صاحب المرتبة الحادية والخمسين في كتاب «مايكل هارت» الذي صنف فيه «المئة الأوائل» في التاريخ العالمي ورتبهم بحسب ما قدموا من إنجازات للإنسانية وعظمة تلك الإنجازات وأثرها، ليس في المجتمع الإسلامي فحسب، وإنما على

المستوى العالمي، فكان في منتصف السلّم الإنساني لصناع الحضارة الإنسانية وبُناتها، عمر الذي قال: «لو تعثرت شاة على شاطئ الفرات لخشيت أن يسألني الله عنها»، والذي نَهَرَ واليه على مصر وقال له: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»، والذي كان يحمل الطعام على ظهره إلى بيوت اليتامى والأرامل، والذي يلبس الثوب المرقع وولاته يلبسون الثياب الجديدة، ويأبى على نفسه الشبع حتى تشبع عامة الأمة، والذي كان وكان، وقد مات رضي الله عنه قتلاً على يد غلام مجوسي انتقاماً من الإسلام لديانته بعد فتح فارس وإنهاء عبادة النار، وهذا وحده كافٍ ليجعل من عمر أسطورة، فإذا ما أضفنا إليها الإنجازات التي قدمها والحوادث التي تشهد بعظمة هذا الرجل وجدنا أنه حقيق بأن يكون رمزاً أسطورياً، ولكن الغريب حقاً أن مايكل هارت الأمريكي اليهودي أثبته أسطورة، ونحن لم نفعل!

## علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

الخليفة الراشد الرابع، الذي ثبت على الحق وصدع به، وخاطر بسلطانه لحقن دماء المسلمين، ونزل عن الخلافة لتحقيق الشورى (الديمقراطية) تاركاً للحكمين اختيار من يرضاه المسلمون خليفة! وقد فعل ذلك بعد انتصاره في صفين ورفع الخارجين على خلافته المصاحف، لائذين بظل الشرع في التحكيم، مخادعين لا آيبين، وكان رضاه بالتحكيم عن صدق وحسن نية ووقوفاً عند الشرع، وهو الفارس المغوار الزاهد الحكيم

المشهود له بالتقوى والصلاح والعدل، فقُتل غيلة بيد أحد أفراد التيار المعارض؛ المعارض لماذا؟ المعارض للديمقراطية التي خضع لها رضي الله عنه، حيث أخذ عليه الخوارج قبوله بالتحكيم، ونزوله عن الخلافة بعد البيعة وبعد النصر ليختار المسلمون من يرضون، الديمقراطية نفسها التي ينادي بها أصحاب الأقلام، ومع ذلك لم تُقبل عليه هذه الأقلام التي تزعم تبنّي فكرته، ولم تتخذه رمزاً أسطورياً لا لديمقراطية ولا لعدل ولا لوفاء ولا لمظلومية!

## الحسين بن عليٍّ رضي الله عنهما:

حفيد النبي ﷺ، وأحد ريحانتيه، وأحد سيدي شباب أهل الجنة، صاحب المكانة العظيمة في قلوب الصحابة، الذي خرج على الاستبداد والظلم والاستئثار المتمثل بسلطة يزيد بن معاوية، ونبذ مبدأ الشورى الشرعي، وتحويل الخلافة إلى ملك عضوض يورّث بلا استحقاق ولا أولوية، وحده النسب يجعلها إرثاً باطلاً بلا أحقية ولا تشريع، فلم يخرج الحسين رضي الله عنه أشراً ولا بطراً، وإنما خرج لإقامة العدل وإحقاق الحق وإزالة الظلم، خرج ثائراً على فسادٍ وسوءِ إدارة وقمعٍ سلطوي ومنعِ حقوقٍ ومصادرةِ آراءٍ واستئثارِ أفرادٍ بحق الأمة. وتخلى عنه مناصروه، فثبت فرداً أمام جيش، وقُتل وقطع رأسه وحُمل من كربلاء إلى دمشق، واقتيد أهل بيته أسرى إلى الشام برفقة الرأس المنبتّ عن جسده! أفلا يستحق هذا

الرجل أن يكون رمزاً أسطورياً؟ فلماذا أسقطه غربال الانتقاء، وعلى أي مبدأ تجري الانتقائية؟

## عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه:

ثاني رموز العدل في تاريخ الخلفاء المسلمين، صنفه العلماء بأنه الخليفة السادس، وعدّوه في الراشدين، متجاوزين بذلك معاوية بن أبي سفيان الذي صحب النبي ﷺ وشارك في فتح الشام، ولم يكن ذلك التجاوز لزهد عمر وتقواه وصيامه وقيامه فحسب، وإنما كان للعدل الذي أقامه والحقوق التي أعادها إلى أهلها ومستحقيها من مغتصبيها، وجرد أسرته بني أمية مما انتهبوا من مال المسلمين وما وضعوا عليه أيديهم من ضياع وقصور بغير وجه حق، سوى أنهم من العائلة الحاكمة، وسمى ذلك كله «مظالم»! ومر بنا أنه أوكل غيلاناً ببيعها في مزاد علني، فكان ينادي: «تعالوا إلى أموال الظلمة». عمر حفيد عمر رضي الله عنهما، قدر الله أن يكونا نموذجاً في العدل لمن شابههما، وحجة على من خالفهما، وأصل العدل خوف الله، وهو يأتي من العلم به، وعمر بن عبد العزيز كان فقيهاً، كما تبيّنَ في مناظرته مع الخوارج، درس العلم وتربى على الزهد ومخافة الله وبغض الظلم وأهله. كانت الخلافة بعد سليمان لأخيه هشام بن عبد الملك، ولم تكن لتصل إلى أبناء عبد العزيز بن مروان، بوجود أبناء عبد الملك، هذا نظام الأثرة الذي حل محل الشورى، فصار الملك عضوضاً يتوارثه الإخوة، ثم ينحصر في الأبناء، فلما مات مروان آل لعبد الملك، واستمر في ذريته،

حتى قيض الله المستشار التقي رجاء بن حيوة، فنصح لله وللسلطان وللأمة، فأشار على سليمان حين دنا أجله أن يلقى الله بحسنة وعذر عظيم وهو أن يختار للمسلمين الخليفة التقي، فألان الله قلبه فاستخلف ابن عمه عمر، متجاوزاً إخوته هشاماً ومسلمة وغيرهما. كانت مدة خلافة عمر سنتان، عاشهما الناس في أمن ورخاء عيش، حتى لم يعد أحد يقبل زكاة، فوُضع المال في الطرق ليأخذ الفقير دون كسر عزة نفسه، ونُثر الحَبُّ على الجبال حتى لم يعد يقال: «جاع طير في بلاد المسلمين»، وزُوج العزاب بفضل بيت المال، حتى قالوا إن الذئاب لم تعد تهاجم الأغنام، ولم يكن في السجن إلا رجل واحد أرسل ليطلقه قبل موته فوجدوه فر، فسجنُه لم يكن كسجون سابقيه. وكثير من القصص يروى عن بلهنية العيش في عصره، منها ما يكاد يكون أساطير. لكن يد الظلم يغيظها العدل وتأبى المساواة، ويستهويها الثراء الفاحش والانقسام الطبقي والتسلط على رقاب العباد وأرزاقهم، فامتدت لتضع له السم بدفع من أقاربه بني أمية، الذين جردهم من امتيازاتهم غير المشروعة وصادر أموالهم التي انتهبوها من حقوق الشعب، فمات رحمه الله شهيداً، بعد أن قدم للأمة ما لم يقدمه سابقوه من ملوك بني أمية، قُتل مظلوماً لأنه أقام العدل، واغتيل مسكيناً لأنه سوّى بين المساكين والأثرياء، مات رحمه الله وأعقب أحد عشر ولداً، ترك لهم ثمانية عشر ديناراً، كُفِّن بخمسة، واشتُري له قبر بأربعة، ووزعت تسعة دنانير على أسرته، هي كل إرثه! ولا شك أن من يقرأ سيرته يخيل إليه

أن هذا الرجل أسطورة متخيلة لا تنتمي إلى الحقيقة، ومع ذلك تغفل الأقلام هذه الشخصية العظيمة لتصنع أساطير من ورق مقوى تبرزها للأجيال.

## محمد بن نوح رحمه الله:

المحدث الفقيه محمّد بن نوح بن ميمون بن عبد الحميد بن أبي الرجال العجليّ، كان أحد المشهورين بالسُّنة وحدّث شيئاً يسيراً، وأثنى عليه أحمد ابن حنبل خيراً، وقال لمن سأله عنه: «اكتب عنه فإنه ثقة». كان رفيق الإمام أحمد بن حنبل رحمهما الله، خلال رحلة القمع والإرهاب والمشقة والتنكيل، في فتنة المعتزلة زمن المأمون، التي اعتُقل فيها العلماء وقُتل بعضهم ونُكِّل بآخرين لإجبارهم على القول بخلق القرآن وقبول تبعات تلك العقيدة، مما يعد خوضاً عميّاً في صفات الله عز وجل وإنكاراً لما أثبت لنفسه في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة، وفرض ذلك الاعتقاد على المسلمين من خلال دروس العلماء وخطبهم، فهاب كثير من العلماء، واضطروا إلى اللجوء إلى المعاريض تركاً للكذب وحرصاً على النجاة من السيف، لكن ثبت على قول الحق والتصريح به في مواجهة السلطة القمعية عدد قليل من العلماء، على رأسهم أحمد بن حنبل وأحمد بن نصر الخزاعي ومحمد بن نوح. وكان المأمون كتب وهو بالرقة إلى صاحب الشرطة ببغداد إسحاق ابن إبراهيم أن يحمل إليه أحمد بن حنبل ومحمّد بن نوح، فأخرجا من بغداد مقيدين متزاملين على بعير، وكان أحمد بن حنبل سئل في الطريق: لو عرضتَ على السيف، فهل تجيب بخلق القرآن؟ فقال:

«لا أجيب». فكأن محمد بن نوح فكّر في أنه وابن حنبل قد يُفَرَّقُ بينهما، فخشي على الإمام أحمد أن يدركه خوف أو يليّن موقفه الآخرون ويزعزعون ثباته، فلما خلوا قال له ابن نوح: «يا أبا عبد الله! الله الله، إنك لست مثلي؛ أنت رجل يُقتدى بك، وقد مد هذا الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك، فاتق الله واثبت لأمر الله». وخلال الرحلة دعا أحمد بن حنبل على المأمون، فأماته الله فجأة دون سابقة مرض، وهما في الطريق إليه، وأدرك محمّد بن نوح المرض من شدة التنكيل الذي لقياه والقمع الذي مارسه عليه جلاوزة السلطة بغياً نابعاً من أمراض نفسية ورغبة في التعذيب، هذا دين القمع والبغي وليس دين الإسلام، فمات محمد بن نوح، رحمه الله، في الطريق. مات محمد بن نوح ثابتاً على موقفه، بل إنه حين خشي الافتراق عن رفيقه في الموقف والثبات حذره مغبة الانصياع وقبول مصادرة رأيه، فشد أزره وثبّته بكلمات حفظها التاريخ، ومع ذلك لم تحفظها الأقلام التي تمجد اليوم برومثيوس الذي خلق بطولته الخيال الأسطوري فزعم أنه واجه الآلهة وسرق النار، فعوقب! حقاً إنه عالم طفولي لا يدرك الحقائق ولا يسعى إليها، ويفضل العيش في عالمه الخيالي الجامح وربما المضحك، بعيداً عن الوعي أو الدور التوعوي المناط بالأقلام وأصحابها الأطفال في غياب الكبار من ساحة الفكر والأدب.

## أحمد بن نصر الخزاعي رحمه الله:

العالم الفقيه الشهيد، الذي ثبت على رأيه ولم يَرُعْهُ بريقُ السيفِ ومَدُّ النطع تحت قدميه، جيء به إلى الواثق، فقال له بن أبي دؤاد: ما تقول في القرآن؟ قال: هو كلام الله. فقال: هذا الخليفة يسأل: أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله. وكان أحمد بن نصر قد استقل وباع نفسه، فتجهز وتحنط استعداداً للقتل. فقال له: فما تقول في ربك؛ أتراه يوم القيامة؟ قال: يا أمير المؤمنين، قد جاء القرآن والأخبار بذلك، قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، وقال النبي ﷺ: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تُضامون في رؤيته»، فنحن على الخبر! فقال الواثق: ما تقولون في هذا الرجل؟ فأكثروا القول، فقال عبد الرحمن بن إسحاق: يا أمير المؤمنين، هو حلال الدم. وقال أبو عبد الله الأرمني: اسقني دمه يا أمير المؤمنين. وقال ابن أبي دؤاد: هو كافر يُستتاب، لعل به عاهة أو نقص عقل. فنهض إليه الواثق بالصمصامة، فضربه بها على عاتقه وهو مربوط بحبل وأوقف على النِطع، ثم ضربه أخرى على رأسه، ثم طعنه في بطنه، فسقط صريعاً رحمه الله! ثم انتضى سِيما الدمشقي سيفه فضرب عنقه وحز رأسه، وحُمل فصُلب وفي رجليه قيود مضاعفة، وحُمل رأسه إلى بغداد فنُصب في الجانب الشرقي أياماً، وفي الغربي أياماً، وعنده الحرس في الليل والنهار، وفي أُذنه رُقعة مكتوب فيها: «هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر الخُزاعي، ممن قُتل على يد عبد الله هارون الواثق بالله أمير

المؤمنين، بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفي التشبيه، وعرض عليه التوبة، ومكّنه من الرجوع إلى الحق فأبى إلا المعاندة والتصريح، فالحمد لله الذي عجله إلى ناره، وأليم عقابه بالكفر، فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه، ولعنه». وبقي رأسه منصوباً ست سنوات، إلى أن جُمع بجثته ودُفن بالجانب الشرقي من بغداد بالمقبرة المعروفة بالمالكية.

## غيلان بن مسلم الدمشقي:

القبطي المصري الأصل، أسلم أبوه وكان مولى لعثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد ولد غيلان وعاش في دمشق، ودرس الفقه، وكان معروفاً بالصلاح والتقوى والورع، ويُعد من أعلام الوعاظ والخطباء والكتاب البلغاء، يضعه العلماء والمؤرخون في الطبقة الأولى من الكتاب، وأسند إليه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بيع المصادرات من بني أمية، التي سبق أن ذكرنا أنه سماها «مظالم»، وجعل أثمانها في بيت مال المسلمين، وذلك لثقته به وبأمانته. وكان دخوله في علم الكلام المزلق الذي جعله يتكلم بالقدر، فيزعم أن الخير فقط من الله، أما الشر فلم يخلقه الله ولم يقدّره على الإنسان، وإنما خلقه الإنسان الذي هو مخير. ويزعم بعض المعاصرين أن فكرة القدر من صناعة الأمويين أو القرشيين ليستأثروا بالحكم دون الناس، ويرضى الناس باستئثارهم، إذ إنه قدر من الله. وذلك خطأ وقعوا فيه، إذ إن غيلان ظهرت قدريته في زمن عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، الذي كان نموذجاً في العدل والزهد، فكان حكمه خيراً لم

يبق معه شر. والحق أن مسألة القدر مثبتة في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، والواقع أيضاً يثبتها، والقدر فيه خير وفيه شر، فالزلازل والبراكين والسيول والأعاصير وحوادث الهدم لا يختلف عاقلان في أنها شر، وهي من الله ولا علاقة للبشر في صناعتها.

فلما بلغ عمر بن عبد العزيز أن غيلان يتكلم في القدر أرسل إليه، فقال له: بلغني أنك تتكلم في القدر، وأن الإنسان هو من يصنع أفعاله، واستشهد له بعدد من الشواهد القرآنية ترد شبهته، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ۞ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[١٩٤]. ثم قال له: يا غيلان ما تقول في العلم؟ قال: نفذ العلم. قال: أنت مخصوم، اذهب الآن فقل ما شئت. يا غيلان، إنك إن أقررت بالعلم خُصِمْتَ، وإن جَحَدتَهُ كَفرْتَ، وإنك إن تقرَّ به فتخصمَ، خيرٌ لك من أن تجحد فتكفر. فقال غيلان: «تُبْتُ يا أمير المؤمنين»، فلما ذهب قال عمر: اللهم إن كان قال ذلك خداعاً فأذقه حَرَّ السلاح. وسكت غيلان عن الكلام في القدر بقية خلافة عمر، فلما مات عمر عاد إلى الكلام فيه، فبلغ خبره هشام بن عبد الملك، فاستدعاه، فقال له: أليس قد كنت عاهدت الله لعمر لا تتكلم في شيء من هذا أبداً؟ هل تقرأ فاتحة الكتاب؟ قال: نعم. قال: اقرأ. فقرأ: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

---

[١٩٤] الإنسان، ٣٠، ٣١.

۞ مَـلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۞ إياكَ نَعْبُدُ وإياكَ نَسْتَعِينُ﴾[١٩٥]. قال: قف. علامَ استعنته؟ على أمر بيده لا تستطيعه، أم على أمر في يدك أو بيدك؟ فقال: يا أمير المؤمنين ادع من شئت لمناظرتي فإن غلبته بالحجة والبيان علمتَ أني على الحق، وإن غلبني بالحجة فاقطع لساني ويدي واضرب عنقي. فسأل هشام عمن يستدعى لمناظرته، فقيل له: «الأوزاعي»، وكان مقيماً في لبنان، فأرسل إليه هشام، فحضر، وجمعه بغيلان، فقال الأوزاعي لغيلان: إن شئتَ سألتك عن واحدة، وإن شئتَ عن ثلاث، وإن شئتَ عن أربع؟ فقال: سل عما بدا لك، فقال الأوزاعي: أخبرني عن الله عز وجل؛ هل تعلم أنه قضى على ما نهى؟ قال: ليس عندي في هذا شيء، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه واحدة. ثم قال له: أخبرني هل تعلم أن الله حال دون ما أمر؟ قال: هذه أشدّ من الأولى. فقال: يا أمير المؤمنين هاتان اثنتان. ثم قال له: هل تعلم أن الله أعان على ما حرّم؟ قال: هذه أشدّ من الأولى والثانية، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه ثلاث قد حلّ بها ضرب عنقه. فأمر به هشام فضربت عنقه. ثم قال للأوزاعي: يا أبا عمرو، فسّر لنا هذه المسائل، وهي مبهمة عند هشام، لكنها عند أهل الكلام واضحة، وغيلان فهم ما سأل عنه الأوزاعي فأنكر، فقال الأوزاعي: سألته: هل يعلم أن الله قضى على ما نهى؟ نهى آدم عن أكل الشجرة ثم قضى عليه بأكلها. وسألته: هل يعلم أن الله حال دون ما أمر؟ أمر إبليس بالسجود لآدم، ثم حال بينه

---

[١٩٥] الفاتحة، ٢، ٣، ٤، ٥.

وبين السجود. وسألته: هل يعلم أن الله أعان على ما حرّم؟ حرّم الميتة والدم، ثم أعاننا على أكله في وقت الاضطرار إليه. قال هشام: والرابعة ما هي يا أبا عمرو؟ قال: كنت أقول: مشيئتك مع الله أم دون الله؟ فإن قال: مع الله فقد اتخذ مع الله شريكاً، وإن قال: دون الله فقد انفرد بالربوبية، فأيهما أجابني فقد حلّ ضرب عنقه بها، قال هشام: حياة الخلق وقوام الدين بالعلماء.

## الحسين بن منصور:

المشهور بالحلاج، الذي حاول بعضهم نسبته إلى التيارات الباطنية، وذلك خطأ اعتمد على الظن من خلال الفهم الظاهري لكلامه، والصواب أنه يحسب على التيار الصوفي من حيث المنهج على الأقل، إن لم يكن من حيث الانتماء. والتيار الصوفي - خلافاً لما يزعمه بعض المناوئين له - ليس من التيارات المنحرفة عن السنة والجماعة، وإن بدا غير ذلك في تصرفات بعض المنسوبين إليه أو مدّعيه. وهو ليس مذهبا فقهياً، وإنما هو تيار فكري، يعتمد السير إلى جناب الحق سبحانه بالإخلاص، ويسعى بالمريد إلى مرتبة «وحدة الشهود»، التي تأولها بعض الدارسين عن خطأ أو عن قصد بأنها «وحدة الوجود»، وأعلام الصوفية ومؤسسو التيار فقهاء وعلماء عرفوا بالتقوى والزهد، ولم يتكلموا بحلول أو اتحاد، فإن لُبِّس على أحد من أتباعهم شيء من ذلك أعلنوا براءتهم من عمله هذا، وقد شهد زعيم المدرسة السلفية شيخ الإسلام ابن تيمية لهم بذلك، منهم الجنيد

البغدادي، ومنهم عبد القادر الجيلاني، الذي كلما ذكره ابن تيمية رحمه الله، قال: «قدس الله روحه» وهذا دليل تزكية وحسن اعتقاد، وأفرد ابن تيمية رحمه الله في كتابه «الفتاوى» المجلد الحادي عشر للحديث عن التصوف، فذمّ منهم من ذمّه أعلامُ التصوف، وأنكر على من أنكروا عليه، ومدح زعماء المدرسة الصوفية من العلماء المحققين ووصف بعضهم بأنهم من أولياء الله الصالحين. وقد أنصف هذه المدرسة عدد من العلماء، ذكرنا منهم شيخ الإسلام ابن تيمية، ومن بعده تلميذه ووارث علمه ابن قيم الجوزية الذي شرح كتاب «منازل السائرين» للشيخ الهروي، وهو من أعلام الصوفية، وأسماه «مدارج السالكين»، وذكر فيه أنه يشرح كتاب الهروي، وكان يقول في مواضع مخالفته لرأي الهروي: وشيخ الإسلام حبيب إلينا لكن الحق أحب منه. ومنهم الداعية سعيد حوى رحمه الله في كتابه «تزكية الأنفس»، ومنهم ابن باز رحمه الله، الذي قال في محاضرات شرحه لكتاب ابن تيمية «اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أهل الجحيم» حين مر بذكر الجنيد البغدادي: «والجنيد من الصوفية المعتدلين الذين نراهم على منهج الحق». والمدرسة الصوفية تلزم المريد اتخاذ شيخ، لكي يأمن تلبيس إبليس عليه بما يشبه الكرامات وبالخواطر والظنون، أو حتى بالتلبيس عليه برؤية الحق سبحانه وتعالى، ويروون من ذلك قصصاً، منها أن الشيخ عبد القادر الجيلاني كان يذكر الله خالياً فظهر له نور مشرق وناداه: يا عبد القادر، أنا ربك، وقد أعفيتك من

التكليف. فقال له عبد القادر: خسئت يا عدو الله، أنت إبليس اللعين، فلو أن أحداً يعفى من التكليف لعفي النبي ﷺ. فلم يضيع إبليس الفرصة، وإن لم ينجح بالتلبيس، فأراد إضلاله بالعجب، فقال له: غلبتني بعلمك يا عبد القادر. فقال له: بل بفضل الله أيها الخبيث!

ومعارض تلبيس إبليس على جميع الفرق، ومنهم الصوفية، كثيرة، وقد صنف فيها ابن الجوزي كتابه «تلبيس إبليس»، لذا كان قادة الفكر الصوفي يركزون على أن يتخذ المريد شيخاً يرجع إليه في ما يعرض له من عوارض قد يظنها كرامات وفتوحاً، في حين أنها تلبيس شيطاني واستدراج، وأطلقوا مقولة: «من لا شيخ له فشيخه الشيطان»، أي أن الشيطان سيقعد له مقعد الشيخ في نفسه فيوسوس له ويدخل الخلل في عقيدته أو منهجه أو فكره. وهنا لنا أن نتساءل: من كان شيخ الحلاج؟

لم تثبت المصادر التاريخية أنه كان له شيخ، وقد زعم بعضهم أن شيخه سهل التستري، وذكر ابن الجوزي أن شيخه أبو بكر الأنصاري، في حين ذكر آخرون أن شيخه الجنيد البغدادي، إلا أن ذلك لم يصح، وإن كان الحلاج يتردد على مجالس الجنيد فلم يكن يأتي بصفة التلميذ أو المريد، وإنما كان يأتي بصفة الند، قال السلمي: بلغني أن الحلاج وقف على الجنيد، فقال: أنا الحق. فقال الجنيد: بل أنت بالحق، أي خشبة تفسد؟![١٩٦] وفسّر بعضهم كلام الجنيد بأنه يعني خشبة النفاق في قوله تعالى في المنافقين:

---

[١٩٦] سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج١٤ ص٣٣٠.

﴿كأنهم خشب مسندة﴾[١٩٧]، ورأى آخرون، منهم يوسف زيدان، أن الجنيد تنبأ للحلاج بأنه سيصلب[١٩٨]، لأن الكلام الذي قاله كُفرٌ يحل به دمه. فلم يكن الجنيد شيخَه، ولم يكن الحلاج يأخذ عن الجنيد، وقد تحقق ما ظنه الجنيد في ما بعد فصلب على خشبة.

لقد سلك الحلاج طريق التصوف منفرداً بلا جماعة ولا شيخ، فلُبِّس عليه ما لُبِّس على كثير من أضرابه، فقال: «أنا الحق»، وفي ذلك يقول الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله: «ينقلون عن الحلاج أنه قال أنا الحق! أخطأ بوهمه، لو كان على الحق ما قال أنا الحق! يذكرون له شعراً يوهم الوحدة، كل ذلك ومثله باطل، ما أراه رجلاً واصلاً أبداً، ما أراه شرب، ما أراه حضر، ما أراه سمع إلا رنة أو طنيناً، فأخذه الوهم من حال إلى حال، من ازداد قرباً ولم يزدد خوفاً فهو ممكور»[١٩٩]. فهو لم يحضر شهود عالم الروح ولم يشرب ماء اليقين، ولو كان ذلك لقَدَرَ اللهَ حقَّ قدْرِه وغابت ذاته وتلاشت فلم يبق في وجوده «أنا»، ويوضح قوله: «ما أراه سمع إلا رنة أو طنيناً» أنه وقع في التلبيس.

لم يكن الحلاج تابعاً لمدرسة، ولم يكن هو لمن بعده مدرسة، عاش في تصوفه الخاص الذي خلط بين هدى المنهج وضلال التلبيس، ووصل إلى

---

[١٩٧] المنافقون، ٤.
[١٩٨] https://youtu.be/8C5flDfZWwI
[١٩٩] البرهان المؤيد، للرفاعي، ص٣٦.

حال اختلاط لم تكن جذباً، وإنما هي ضرب من التخبط، حتى إنه دخل المسجد، كما يروي شيخ الاسلام العز بن عبد السلام: قال عبد الكريم بن عبد الواحد: دخلت على الحسين بن منصور (الحلاج) في مسجد، وحوله جماعة، فكان أول ما قاله في كلامه: «لو يُلقى مما في بطني ذرة على جبال لذابت، وإني لو كنت يوم القيامة في النار لأحرقت النار، ولو كنت في الجنة لهدمتها». ودخل يوماً جامع المنصور ببغداد، وقال: «أيها الناس، اجتمعوا واستمعوا مني حديثاً. فاجتمع عليه خلق كثير، منهم محب ومنكر، فقال: اعلموا أن الله قد أباح لكم دمي فاقتلوني». فبكى القوم، فتقدم إليه عبد الودود بن سعد الزاهد وقال: «يا شيخ، كيف نقتل رجلاً يصلي ويصوم ويقرأ القرآن»؟ فقال: «يا شيخ، المعنى الذي يحقن الدماء خارج عن الصلاة والصوم وقراءة القرآن، فاقتلوني تؤجروا وأستريح، فتكونوا أنتم مجاهدين، وأكون أنا شهيداً». ثم ذهب، فتبعته إلى داره وقلت: يا شيخ، ما معنى هذا؟! قال: يا بني، ليس للمسلمين شغل أهم من قتلي قياماً بالحدود ووقوفاً مع الشريعة، فإن من تجاوز الحدود أقيمت عليه الحدود[٢٠٠].

يقول العز: فقلت في معنى ذلك:

أباح دمي إذ باح قلبي بحبها    وحل لها في حكمها ما استحلّت

وما كنتُ ممن يظهر السّر إنما    عروسٌ هواها في ضميري تجلّت

فإن أكُ من سكري شطحتُ فإنني    حَكمتُ بتمزيقِ الفؤادِ المفتّت

---

[٢٠٠] زبد خلاصة التصوف، للعز بن عبد السلام، ص١١٦، ١١٧.

وفيها يتأول قول الحلاج الذي قتل بسببه «أنا الحق»، فيقول:

أنا الحق في عشقي كما أن سيّدي هـو الحقُّ في حُسـنٍ بغـير معيّةِ

فقد كان الحلاج يضطرب في حيرته، قلبه مؤمن ونفسه في مهب الوساوس والتلبيس، ففقد الطمأنينة وصار يطلب الموت ليستريح، هكذا بكل صراحة مفعمة بالرغبة في الخلاص «اقتلوني تؤجروا وأستريح»[٢٠١].

يقول ابن تيمية: «وقد يحصل السكر بسبب لا فعل للعبد فيه، كسماع لم يقصده يهيج قاطنه، ويحرك ساكنه، ونحو ذلك، وهذا لا ملام عليه فيه، وما صدر عنه في حال زوال عقله فهو فيه معذور، لأن القلم مرفوع عن كل من زال عقله بسبب غير محرم، كالمغمى عليه والمجنون، ونحوهما... ومن هؤلاء من يقوى عليه الوارد حتى يصير مجنوناً، ومن هؤلاء عقلاء المجانين، الذين يُعدّون في النساك، وقد يسمّون المولهين، قال فيهم بعض العلماء: هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولاً وأحوالاً، فسلب عقولهم وأسقط ما فرض بما سلب»[٢٠٢]، وبمقياس ابن تيمية هذا ندخل قول الحلاج «أنا الحق»، قال بعض الصوفية إن الحلاج عاش حال سكر غلبت عليه كما غلبت على عدد من أمثاله، لكن الله ثبتهم بوجود مشايخ يوجهونهم، ولم يكن للحلاج شيخ، حتى ذاع بين الناس أمره وانتشر خبره ولصقت به تهمة الزندقة لقوله «أنا الحق»، بين ظان به ادعاء الألوهية، وآخر يرى قوله

---

٢٠١ المصدر السابق.

٢٠٢ مجموع فتاوى ابن تيمية، المجلد ١١، ص١١، ١٢.

ادعاء اتحاد أو حلول، فلم يكن هناك بد من الحكم عليه بحكم الشرع وهو القتل بتهمة الزندقة، وقال له الجنيد: « لقد فتحت في الإسلام ثغرة لا يسدها إلا رأسك». ومعنى كلام الجنيد أنه تعامل مع فتوى قتله بظاهر الشرع وترك أمر قلبه لله سبحانه، فهو وحده العالم بما تكن القلوب، ولو أنه تُرك كما تُرك قبله عبد الله بن سبأ، وممثل دور الزاهد العابد التقي حمدان قرمط، فربما كان من أمره ما كان من أمرهما، إذ تَركا وراءهما فتنة ما تزال قائمة إلى يومنا هذا. فإن لم تكن وراءه فتنة فإنه يفتح باباً للزنادقة، فتظهر جماعات تتكلم بالهرطقات والتشبيه والحلول والاتحاد والتجسيم، فإن عورضوا قالوا قصدنا كقصد الحلاج، فتأولوا معنى كلامنا كما تأولتم معنى كلامه. ففي كل الأحوال فإنه فتح في الإسلام ثغرة لا يسدها إلا رأسه، وهنا تستحضر أذهاننا القمع المحمود الذي غاب في فتنتي السبئية والقرامطة، فكان درساً لمن بعدهم من العلماء، فاستخدموه في فتنة الحلاج ومن قبله فتنة غيلان.

ويظن كثير من الملاحدة الذين يتداولون قصة الحلاج في إسقاطاتهم الشعرية أو القصصية أنه كان ملحداً أخفى إلحاده بمقولات مبطنة، ليوهموا قرّاءهم بأنه سار في رحلة البحث عن الحقيقة الإلهية فوجدها وهماً فلا حقيقة لوجود إله، فخاف أن يصرح بما وصل إليه فقال كلاماً مبطناً يمكن تأوله بغير ظاهره، ولا يفهم حقيقته أحد سواهم، إذ يظنون أنفسهم أهل الفكر ومعرفة الحقيقة، ويكذّب ظنونهم ويفنّد أوهامهم أن الحلاج طلب من

الناس بلسانه أن يقتلوه، وقال لهم إنهم إن قتلوه يكونون قد طبقوا شرع الله، وهو سيكون شهيداً[٢٠٣]، فاعترف بشرع الله، وكيف يكون شرع من غير شارع له؟ ودليل آخر هو قصة قتله التي رواها العز بن عبد السلام، فقال: «لما أتي بالحلاج ليصلب فرأى الخشب والمسامير ضحك ضحكاً كثيراً، ثم نظر في الجماعة فرأى أبا بكر الشبلي، فقال: يا أبا بكر، أمعك سجادة (للصلاة)؟ قال: بلى. قال: فافرشها لي. ففرشها، فتقدم وصلى، فقرأ في الأولى الفاتحة وبعدها ﴿كل نفس ذائقة الموت...﴾[٢٠٤]. ثم ذكر أشياء، فكان ما حفظ عنه: «اللهم بحق قيامك بحقي وبحق قيامي بحقك، وقيامي بحقك يخالف قيامك بحقي، لأن قيامي بحقك ناسوتية، وقيامك بحقي لاهوتية، مع أن ناسوتيتي مستهلكة في لاهوتيتك غير ممازجة إياها، ولاهوتيتك مستولية على ناسوتيتي غير مماثلة لها، أسألك أن توفقني لشكر هذه النعمة التي أنعمت بها عليّ؛ حيث كشفت لي عن مطالع وجهك، وحرمت على غيري ما أبحت لي من النظر في مكنونات سرك، وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك وتقرّباً إليك، فاغفر لهم فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي ما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت، فلك الحمد في ما تفعل، ولك الحمد في ما تريد». ثم تقدم أبو الحارث السياف، فلطمه لطمة هشم وجهه وأنفه، فصاح الشبلي ومزق جبّته،

---

٢٠٣ المصدر السابق.

٢٠٤ آل عمران، ١٨٥.

وغشي عليه وعلى أبي الحسن الواسي وجماعة من المشايخ المشهورين»[٢٠٥].

والحقيقة أن الرمز الصوفي أمر لا يُحمل على ظاهر المعنى كعموم المصطلحات اللغوية، ولا المجاز فيه كالمجاز الأدبي المعروف، وإنما له خصوصية تشبه في كنهها رؤية الطفل للقمر فيمد يده ليتناوله، قال السمعاني: «كان عبد القادر من أهل جيلان إمام الحنابلة وشيخهم في عصره، فقيه صالح ديّن خيّر، كثير الذكر، دائم الفكر، سريع الدمعة، تفقّه على المخرّمي، وصحب الشيخ حماداً الدباس، وكان يسكن بباب الأزج في مدرسة بنيت له، مضينا لزيارته، فخرج وقعد بين أصحابه، وختموا القرآن، فألقى درساً ما فهمت منه شيئاً، وأعجب من ذا أن أصحابه قاموا وأعادوا الدرس، فلعلهم فهموا لإلفهم كلامه وعبارته»[٢٠٦] وهناك من حاول الدخول فيها مثل د. عبد الكريم اليافي، وآخرون حاولوا وضع معجم للمصطلحات الصوفية، لكن يبدو أنه من الصعب فهمها على من لم يعايش تلك الأحوال، أو يبلغ درجات الوجد والشهود وعين اليقين، فهذا الشيخ عبد القادر الجيلاني المشهود له بالعلم والصلاح واستقامة العقيدة يقول:

كم سائلٍ عن سرِّ ليلى رددتُه بعمياءَ من ليلى بغير يقينِ

يقولون حدّثنا فأنت أمينُها وما أنا إن حدّثتُهم بأمينِ[٢٠٧]

---

٢٠٥ زبد خلاصة التصوف، للعز بن عبد السلام، ص١١٥.

٢٠٦ سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج٢٠، ص٤٤١.

٢٠٧ التعبير الصوفي ومشكلته، عبد الكريم اليافي.

والسهروردي في رائعته التي مطلعها:

أبـــداً تحــن إلـيكـم الأرواح  ووصـالكم ريحانها والراحُ

يقول:

بالسر إن باحوا تباح دماؤهم  وكذا دماء العاشـقين تباحُ

وقضايا الوجد والكشف والسر والتجلّي، وغيرها من الرموز الصوفية، حاول كثيرون الخوض فيها وشرح معانيها، لكن الاضطراب تخلل كلامهم، فحتى في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾[٢٠٨] لم يبلغ المفسرون تجلية معناها، لأن ذلك من أمر الله، مثله مثل الروح ﴿ويسألونك عن الرّوحِ قُلِ الرّوحُ من أمرِ ربّي وما أوتيتُم من العلمِ إلا قليلاً﴾[٢٠٩]، فالتجلي ليس رؤية كما توهم بعضهم، وإنما هو نور خاص يغمر القلب ويطغى على الروح، وشهود بالبصيرة لا البصر، وإدراك بالقلب لا الحواس، فمنهم من يثبت وتستغرقه حال شهود وتوحيد مطلق، فلا يرى في الكون إلا الله، لا إله ولا مألوه، ومنهم من تأخذه حال بكاء، ومنهم من يخرج راكضاً في الشوارع، ومنهم من يتفتت تفتت الجبل، ومنهم من يصعق انصعاق موسى عليه السلام، ومنهم من يفقد عقله ويمضي في حال جذب صامتة، ومنهم من تسيطر عليه حال هذيان. وحال الجذب أو الهيام، التي ينكرها عدد من الفقهاء، وردت في حديث للنبي ﷺ ذكره المنذري في الترغيب والترهيب، والترمذي في

---

[٢٠٨] الأعراف، ١٤٣.

[٢٠٩] الإسراء، ٨٥.

سننه، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة: ﴿إنِّي أَرى ما لا ترَوْنَ، وأسمَعُ ما لا تَسمَعونَ، أطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أنْ تَئِطَّ، ما فيها مَوضِعُ أربعِ أصابعَ إلَّا عليه مَلَكٌ ساجدٌ، لو عَلِمْتم ما أعلَمُ؛ لضَحِكْتم قَليلًا، ولبَكَيْتم كَثيرًا، ولا تلَذَّذْتم بالنساءِ على الفُرُشاتِ، ولخَرَجْتم على -أو إلى- الصُّعُداتِ تَجْأَرونَ إلى اللهِ، قال: فقال أبو ذَرٍّ: واللهِ لوَدِدْتُ أنِّي شَجرةٌ تُعضَدُ﴾[٢١٠]. (الصعدات: الطرق والشوارع)، ومطلبنا الفقرة الأخيرة، فهي حال صحيحة مع أنها لم تحدث مع الصحابة، فلا يأتي أحد ويقول: «أهؤلاء أكمل إيماناً من الصحابة»؟ فنص الحديث واضح، وحدوثه مع غير الصحابة ممكن، والنبي ﷺ الذي علم ما علم ورأى ما رأى لم يخرج إلى الصعدات (الشوارع) يجأر إلى الله، لأنه يتلقى أعظم من ذلك وهو الوحي، فالله يثبته، لكنّ غيره - كما نص الحديث - لو علم لخرج يركض في الشوارع يجأر إلى الله. ولسنا في معرض مناقشة الفكر الصوفي، لكنها إضاءة لنبين أن كلام الحلاج قد يخرج إلى معان غير التي توهمها الملاحدة، وقد فهمها الصوفية كالجنيد والشبلي وغيرهما، ولكن الحرص على تطبيق الشريعة والوقوف عند الحدود وسد الذرائع هي التي دفعتهم إلى الرضا بقتله، وقد ذكرنا قول الجنيد له: «فتحت في الإسلام ثغرة لا يسدها إلا رأسك». فالحلاج مؤمن مسلم لكنه وصل إلى حال لم يحتملها، فلُبِّست عليه حاله، فاضطرب، وبلغ به الوجد والألم مبلغاً جعله يقول إنه

---

٢١٠ مسند أحمد بن حنبل، برقم ٢١٥١٦.

لو دخل النار لأحرق النار! وعرف خطأه وضاق به احتمال ما به فدعا الناس إلى قتله: «فاقتلوني تؤجروا وأستريح، فتكونوا أنتم مجاهدين، وأكون أنا شهيداً»، ولو لم يكن مؤمناً بالله لما صلى ركعتين، وهي سنة القتل، سنها خبيب رضي الله عنه حين قتله المشركون بعد أسره يوم بئر معونة؟ والكلام الذي قاله يوم صلبه كلام ينم عن إيمان عميق وتسليم مطلق، ودعاؤه الذي عذر فيه صالبيه فاستغفر لهم: «وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك وتقرّباً إليك، فاغفر لهم فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي ما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليتُ بما ابتليت»، فبلاؤه كان أعظم من صبره ولم يكن أكبر من طاقته.

كما سعى آخرون إلى أخذ الصورة على ما هي عليه دون الولوج إلى عالم الحلاج، وكل همهم أن يقنعوا الناس بأن الإسلام دين قمعي يصادر الآراء ويقتل أصحاب الرأي المخالف إن لم يتراجعوا عنه.

## ولأئمة التصوف في مقتله قولان:

**الأول:** قول الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله: لو كنت بينهم لحكمت عليه بما حكموا عليه.

**والثاني:** قول العز بن عبد السلام رحمه الله: لو كنت بينهم لتأوّلت كلامه ومنعت عنه القتل.

قُتل الحلاج في الظاهر زنديقاً، وربما يكون عند الله صديقاً، لكننا لنا الظاهر، أما البواطن فعلمها عند الله، فوقع عليه القمع المحمود ليسد برأسه ثغرة فتحها في الإسلام لو لم تُسَدَّ به فربما كنا اليوم نعاني فتنة كالفتن التي أشعلها الذين من قبله ونجوا من القمع المحمود، ويبقى صدى كلماته: «مع أن ناسوتيتي مستهلكة في لاهوتيتك غير ممازجة إياها، ولاهوتيتك مستولية على ناسوتيتي غير مماثلة لها» يرن في أفق الفكر مؤكداً أنه لم يتوهّم اتحاداً ولا حلولاً ولا وحدةَ وجودٍ ولا مماثلةً بين الخلق والخالق.

## الأساطين والأساطير

الأساطين مفردها أسطون، وهي الأعمدة التي يقوم عليها البناء، يقول الأمير شكيب أرسلان:

تَرى قِبابَ السَنا في الأُفُقِ صاعِدَةً   عَلى أَساطينِ نورِ ناثِرِ الأكر

وفي المجاز تطلق كلمة «أساطين» على الراسخين الذين يقوم بهم الأمر ويكونون عماده، فيقال: أساطين العلم، وأساطين الفكر، وأساطين البيان، وأساطين الأدب، وأساطين الحمى...

وفي ثقافات الشعوب وآدابها يتحول الأساطين إلى أساطير، فالأشخاص الذين تفخر بهم الشعوب وتعتز بإنجازاتهم ممن يؤسسون دولهم أو يحررون بلادهم أو شعوبهم أو يهزمون عدواً قوياً في ما يشبه المعجزات، أو يسهمون في إنجازات لدياناتهم أو شعوبهم، هم أساطين عصورهم، لكن

ذاكرة الشعوب التي تصنع ثقافتها وأدبها وفكرها تخلد أولئك الأشخاص، وربما تبالغ أو تتزيد في قصصهم وبطولاتهم وإنجازاتهم وتضفي عليهم هالات روحية أو سمات خارقة، لتصنع منهم أساطير تتسع دائرة انتشارها لتدخل في الثقافة الإنسانية عموماً. وفي العصور المتأخرة اتجه الأدب ليصنع أساطير خيالية، ربما يكون بطلها لصاً مثل شخصية «روبن هود» الذي أشبه عروة بن الورد، فكان يسرق الأغنياء ليعطي الفقراء، وهذه الشخصية نموذج إنساني واقعي يتكرر في كل العصور وفي كل المجتمعات، وبروزه رد فعل على الظلم الاجتماعي واستئثار طبقة من المجتمع بالثروة لتعيش حياة مغرقة في ترفها مقابل طبقة جائعة مسحوقة لا تكاد تؤمن لقمة عيشها، أو يكون البطل مجنوناً أو ذا خيال واسع، وقد لا تكون له حقيقة واقعية وإنما يصنعه خيال الكاتب، ومثلها شخصية «علي بابا» الذي أخذ مال اللصوص وصار يعطي منه الفقراء، و«السندباد»، وكذلك شخصية «الدون كيشوت»، التي صنعها الأديب الإسباني «سرفانتس»، فكان بطله هذا رجلاً يعيش في خياله عصر الفروسية بعد انقضاء زمنها، فكان يقاتل طواحين الهواء متخيلاً أنها أشرار يصدهم ويرد عدوانهم. فأصبح نموذجاً أسطورياً لكل من يناضل ضد عدو خيالي أو يقوم ببطولات وهمية، فيقال له: «دون كيشوت»، بل أصبح مصطلح «الدونكيشوتية» دارجاً في الأدب وفي علم النفس، على السواء. وتدخل في ذلك «بائعة الكبريت» التي كتبها الأديب الدنماركي هانس كريستيان

أندرسن، والتي ترجمت إلى كل لغات العالم، فهي قصة من قصص الظلم الاجتماعي، تستثير العاطفة وتوجه الفكر إلى الإحساس بالآخرين، وتحث على المساعدة والرحمة. وقد تكون القصة حقيقية أو لها صلة بالحقيقة من طرف ما، لكنها تحولت إلى أسطورة عالمية. والخلاصة فإن الشخصيات الأسطورية، سواء أكانت مبنية على حقائق أم نابعة من خيال الكاتب، تمثل طموحات شعبية وأحلاماً مأمولة في تحقيق العدالة الاجتماعية ورفع البؤس عن الشعوب ودفع الضر عنهم وتضييق مسافة الفروق الطبقية في الثروة، وإلغاء الفوارق الطبقية وتحقيق المساواة، وهي مسألة فطرية نادت بها الديانات ودعا إليها المفكرون، وحققها الإسلام في زمن الأسطورتين؛ عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز، رضي الله عنهما، فكان المجتمع في عصريهما أقرب ما يكون إلى المدينة الفاضلة التي نادى بها أفلاطون.

وبعد أن مر بنا عدد من الشخصيات التي يصلح كل منها ليكون أسطورة، نجد أن الكتّاب والأدباء اتخذوا أقل الشخصيات أحقية بأن تسطّر، وهما غيلان الدمشقي والحلاج.

## الـمـوازنــة:

لو قمنا بمقايسة منطقية بين الشخصيات المرشحة لتكون أساطير والشخصيات المنتقاة، لرأينا أن الظروف المحيطة بالمرشحين تجعلهم أجدر بالتسطير من الشخصيات المنتقاة:

## أحمد بن نصر وغيلان:

كلاهما قتله السلطان بعد مناظرة مع علمائه.

أثبتت الأيام أن أحمد بن نصر كان على الحق، ورجع الحكام بعد ذلك إلى قوله واعتذروا مما كان من أسلافهم، وسادت فكرته إلى يومنا هذا.

وفي المقابل أثبتت الأيام أن غيلان كان على الباطل، وتغيرت السلطات والدول وماتت فكرة غيلان، وبقيت الفكرة المضادة لها.

زد على ذلك النقطة الأهم، أن غيلان اشترط على نفسه القتل إن لم يثبت في المناظرة، فطُبق عليه شرطه الاختياري، فقتل بشرطه لا بقمع الحاكم! وعليه لا يعد غيلان ضحية قمع سلطوي، فهو كالمقامر الذي خسر كل ثروته، لا يُبكى عليه ولا تلقى تبعة ذهاب ماله على حوادث الدهر.

## الحلاج وسمية بنت خباط:

كلاهما قتلته السلطة الفكرية القائمة قمعاً لمصادرة رأيه.

الحلاج قتل لأنه قال: «أنا الحق»، وقد كذب، فليس هو الحق ولا كان على الحق يوم قال «أنا الحق».

وفي المقابل كانت سمية رضي الله عنها تقول: «لا إله إلا الله»، فقالت الحق، وكانت على الحق.

الحلاج قتل من أجل فكرة تسخر من العقل الإنساني وتقوده إلى الضلال فنادى لنفسه «أنا الحق».

أما فكرة سمية رضي الله عنها فكانت ذات عمق إنساني أكثر بعداً، إلى جانب بعدها الديني، فقد دعت إلى الارتقاء بالعقل الإنساني عن عبادة الحجر والخشب من أصنام وأوثان وعن اعتقاد النفع والضر فيها، وعن الخضوع لتصورات إرادتها الموهومة.

وأخيراً فإن الحلاج كانت لديه معاناته الخاصة التي جعلته يطلب الموت بلسانه قائلاً للناس: «اقتلوني لأستريح»، فقُتل راغباً، أما سمية رضي الله عنها فقُتلت راهبة مقموعة. فأي الشخصيتين أحق بأن تكون أسطورة؟

ولو قارنا بين الشخصيات جميعها من عدد من الجوانب، لوجدنا أن غيلان والحلاج أخذا أكبر من حقهما من المغالاة في أمرهما والتطبيل لمقتلهما.

## من الجانب العملي:

غيلان اشترط على نفسه القتل إذا خسر المناظرة، والشرط أملك. والحلاج طلب بلسانه أن يُقتل ليستريح! في حين قتل الآخرون غيلة أو طغياناً وتسلطاً أو غلبة، فهل من العدل أن يُبكى على غيلان والحلاج ولا يبكى على من ذكرنا من شهداء الكلمة والموقف؟ من يجيب بـ«لا» فليبرر لنا لماذا يحدث العكس؟

## من الجانب المنطقي:

ماذا قدم غيلان والحلاج للإنسانية؟ ماذا قدما للأمة؟ هل هناك غير الفتنة؟ هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدم للإنسانية ما شهد به الأعداء، ولم

يقدم لا الحلاج ولا غيلان جزءاً مما قدم. وهذا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قدم لأمته العدل والمساواة وأزال الفوارق الطبقية وأدى الحقوق الإنسانية، فلماذا لا يُبكى عليهما، في حين يُبكى على من لم يقدم لأمته شيئاً، فضلاً على أن يقدم للإنسانية؟

## من الجانب الثوري:

كل الذين ذكرناهم ممن قتلوا - سوى غيلان والحلاج - قتلوا دفاعاً عن قضية يمكن أن نسميها شعبية، فقد قتلوا وهم يدفعون باطلاً ويدعون إلى حق، وكانت الشعوب وراءهم ولم تكن وراء القامعين، أما غيلان والحلاج فكانوا يمثلون أنفسهم فقط، وآراؤهم لم تصدر عن قاعدة شعبية، ومواقفهم لم تكن دفاعاً عن حق الشعب، بل العكس، فالشعب كان وراء السلطة القامعة، فأي الفريقين أولى ببكاء الشعوب؟ ولماذا يصر الكتاب على إبكاء الشعوب على من قتل من أجل نفسه ولا يحركون مشاعرهم للبكاء على من قُتلوا من أجل قضاياهم أو حقوقهم؟

## من الجانب الإنساني:

سمية امرأة، وقلَّ أن يذكر التاريخ سلطة قتلت امرأة في مصادرة رأيها، مثل سمية بنت خباط و«جان دارك» و«ماري غوزي»، إلا وأتبَع القاتل لعنات ووَسَمه بالخسة والنذالة، ورفع اسم تلك المرأة وجعلها مقدسة، إلا عندنا، فالمرأة التي وقفت في وجه مصادرة الرأي وصمدت أمام القمع

وقدمت دمها على مذبح كلمة الحق نتناساها عمداً، ونذكّر الأمة فقط بمن اشترط على نفسه القتل، وآخر نادى بلسانه: «اقتلوني لأستريح»!

النساء لا تقتل في الحروب، وكذلك العجائز، وسمية رضي الله عنها جمعت بين المانعين، ومع ذلك استُحِل دمُها، وسكت عنها التاريخ!

والشيخ المسن لا يقتل، والغريب تُرعى ذمته، وياسر رضي الله عنه كان شيخاً مسناً غريب الدار، ومع ذلك لم يرحم طغيانُ أبي جهل شيبتَه ولم يرعَ جواره، ولم ينهض حلف الفضول لحمايته، ولا أهل مكة وسدنة الكعبة، وبعد ذلك لم تنصره أقلامُنا، فطوينا صفحته وطبّلنا لمن لا يستحق!

**وبعد كل هذا لنا أن نسأل:**

## لماذا غيلان والحلاج دون غيرهما؟

لماذا نرى دعاة «حرية الرأي»، والمتحدثين عن «القمع» وعن «مصادرة الآراء»، وكذلك الأدباء والشعراء الذين يبحثون عن أشخاص يتخذونهم «رموزاً للثورة الفكرية» ويحولونهم إلى «أساطير»، لماذا يصر كل هؤلاء على الكلام والتنويه بشخصيتين فقط لا يتجاوزونهما؛ هما غيلان الدمشقي والحلاج؟ مع أن أحمد بن تيمية وأحمد بن حنبل رحمهما الله لقيا من القمع والتنكيل لمصادرة رأيهما ما الله أعلم به، وقد ذُكر منه ما تقشعر له الأبدان! فلماذا هذا الإصرار؟ هناك إجابتان:

**الإجابة الأولى**: وهي إجابة مضللة يجيب بها المقصودون بالسؤال، وهي قولهم: «لأن ابن حنبل وابن تيمية لم يُقتلا، فلا يصلحان ليكونا رمزاً للموت في سبيل قضية، أما غيلان والحلاج فقد قتلا في سبيل فكرتيهما»!

وقد تبدو هذه الإجابة مقنعة لمن يأخذ عنهم ولا يتوسع في طلب المعلومة، ليفاجئهم بالسؤال: «فسمية بنت خياط قتلت! فلماذا لا تتخذونها نموذجاً للثبات على الرأي والموت دونه، وكونها امرأة يفيدكم في دعوتكم إلى تحرير المرأة ومنحها حق التعبير عن الرأي، وهي نموذج مثالي لثبات المرأة ومواجهتها القمع وموتها أمام فكرتها؟ ولماذا لا تتخذون زوجها ياسراً نموذجاً للثبات وعدم التراجع عن الفكرة أمام الموت الذي لم يعد تصوراً وإنما بات واقعاً مرئياً له متمثلاً بزوجته الشهيدة سمية حين رآها تُقتل أمام عينيه؟! أليس ذلك أسطورة؟ لماذا لا تتخذون محمد بن نوح رمزاً، وقد كان ثباته أعظم من ثبات غيلان الدمشقي، حيث أُخذ إلى المأمون مقيداً مع أحمد بن حنبل، ومات في الطريق تحت وطأة التنكيل والتعذيب لشدة تمسكه ومواجهته العسكر بكلمة الحق؟! ولماذا لا تتخذون أحمد بن نصر الخُزاعي رمزاً أسطورياً، وقد كانت قصته إنسانية ومبكية أكثر من قصة الحلاج، وقد جاء بالحجة الدامغة، بعكس غيلان الذي لم تكن له حجة وانهزم رأيه أمام حجج الأوزاعي؟ وكان الظلم في مقتل أحمد بن نصر أوضح منه في مقتل كل من غيلان المحجوج والحلاج الذي طلب بلسانه أن يقتلوه! لماذا لا تتخذون إمامي العدل عمر بن الخطاب وعمر

بن عبد العزيز رضي الله عنهما رموزاً، وهما حققا أهم ما تسعى إليه الثورات وهو العدل والمساواة؟ لماذا لا يكون عليٌّ وابنه الحسين رضي الله عنهما رمزين أسطوريين، وهما البطلان اللذان استشهدا وهما يناضلان، أحدهما من أجل حفظ أمن الناس وردع الشرذمة التي كانت تقطع طريق الناس وتقتلهم على الرأي، والآخر قتل في معركة واجه بها الظلم والاستبداد والاستئثار على الشعب بالسلطة والثروة؟

**الإجابة الثانية:** وهي الحقيقة التي لا تذكرها ألسنتهم في حين تكنّها قلوبهم، وهي أن كلاً من غيلان والحلاج قتل بتهمة «الكفر والزندقة» في حكم صادر عن العلماء والفقهاء وليس عن السلطة السياسية، فحكمهما أنهما كافران - ظاهراً - ثابتٌ أمام الشرع «الإسلامي» على مدى القرون، أي أنهما جاءا بأفكار مخالفة لشريعة الله ومضادة لمقتضى الإيمان به بالصورة التي رسختها شريعة الإسلام، فهما - في رأي المتباكين عليهما - مناوئان للإسلام ثائران عليه، قاما في وجهه، وماتا في مواجهته، ولذلك يسعى أعداء الإسلام إلى تمجيدهما لهذا السبب فقط، أما رأياهما فهم لا يعتقدون بصحة أي منهما ولا يعتنقون فكر أي منهما، والحقيقة أن كلاً من غيلان والحلاج كان مؤمناً ثابت الإيمان، لكن لُبِّس على كل منهما التعصب لفكرة ليست من أركان الإسلام ولا من أصول الإيمان، فتعمقا معها وقادهما التمادي في الخوض إلى متاهة ألقت بهما في حضن الضلال. في حين قُتلت سمية وزوجها ياسر في سبيل الإسلام! وقتل أحمد بن نصر

الخزاعي ومحمد بن نوح في سبيل حقيقة إسلامية صادرتها السلطة وأرادت فرضها على الناس بالطريقة الفرعونية، فالسلطة كانت ضد الإسلام وإن زعمت أنها تمثله، وقُتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه في ظرف مماثل؛ في سبيل الحقيقة التي حاول الخوارج طمسها ومصادرة آراء العامة وفرض رؤيتهم المنحرفة عليهم بالسيف، وقُتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه انتقاماً من الإسلام الذي أسقط الظلم الواقع على الشعوب وألغى الوثنية وعبادة النار، وقُتل عمر بن عبد العزيز لأنه أقام العدل وأنهى الظلم والانقسام الطبقي في المجتمع، وأعاد الحقوق إلى أصحابها والأمور إلى نصابها، وقُتل الحسين رضي الله عنه في معركة غير متكافئة وهو يطالب بالعدل والمساواة وأداء حقوق الشعوب وعدم الاستئثار بالسلطة ومقدرات الأمة. أما محمد بن نوح، وأحمد بن نصر الخزاعي، فإن من حكم عليهما بالكفر فهو السلطة السياسية وليس السلطة الدينية من العلماء الفقهاء الممثلين للشريعة الموقعين عن رب العالمين، لذلك بعد مرور سنوات اعتذر الخليفة المتوكل إلى العلماء الذين نكلت بهم السلطة، وطلب المسامحة من أُسَر الذين قُتلوا، وأصبح أحمد بن حنبل علماً وإماماً ورمزاً حقيقياً عند الخلفاء والعلماء والدعاة، بل أسطورة حقيقية لا مكذوبة ولا مصطنعة، وأصبح ابن نوح والخزاعي رمزين للشهادة في سبيل كلمة الحق والثبات على الرأي الصواب والموت دونه. فالثبات على الرأي لا يكون محموداً إذا كان الرأي خطأ، أو كان يمثل رأياً فردياً لا

صوت الشعب، حتى وإن نُكّل بصاحبه أو مات في سبيله، فإنه يسمى عناداً لا ثباتاً، لأنه مرتبط بالنفس لا بالعقل، فهو غلبة الهوى على العقل، أما إذا كان الثبات على الحق فهو الثبات المحمود ولا يذمه إلا جاهل أو ضعيف الإيمان، ولا يسمى عناداً، وقد سئل النبي ﷺ: أيُّ الجهادِ أفضلُ؟ قال: ﴿كلمةُ حقّ عند سلطانٍ جائرٍ﴾[٢١١].

إلا أن هؤلاء يريدون من يموت في مواجهة الإسلام لا من يموت لأجله، يريدون تضخيم مواقف الذين عارضوا الإسلام وأحكامه وعقائده، والتطبيل لهم ليصنعوا منهم أساطير تتلقاها الآذان والأقلام دون التمييز بين من قُتل في حق ومن قُتل لأجل الحق، معرضين عن كل الابتلاءات المكثفة والمعاناة الأليمة والصبر العظيم والموت المشرف الذي لقيه المسلمون، أو من يحلو لهم تسميتهم «الإسلاميين»، في سبيل الحق والعدل والمساواة والدفاع عن الرأي الصحيح والمطالبة بالحقوق الجماعية والارتقاء بالإنسانية فكراً وكرامة ووعياً وحياة، ليركزوا على الشخصيات التي تبعث الشك في نفوس القراء، أو تقود إلى ما يخدم أغراضهم في تأول أحوال أمثال غيلان والحلاج على أهوائهم وبما يخدم توجههم.

وبعد ما بيناه في مبحثنا هذا وأثبتناه بالأدلة أن الإسلام لم يكن قمعياً ولا مصادراً للرأي، لم يعد أمام أولئك إلا القبول بالحقيقة، إن كانوا منصفين

---

[٢١١] صحيح سنن ابن ماجه، برقم ٤٠١١.

متحررين فكرياً من أي توجّهات ذهنية ملزمة أو توجيهات عليا مفروضة عليهم بحكم التبعية، أو أن يخروا عليها صماً وعمياناً، لنرى فيهم الإشارة الإلهية الخالدة: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢١٢].

وننتهي إلى سؤال: ماذا نسمي ما يحدث للمسلمين في تركستان على يد السلطة العلمانية الليبرالية الشيوعية اللادينية، سموها ما شئتم؟ وماذا نسمي ما يحدث للمسلمين في ميانمار؟ وماذا نسمي ما يحدث لهم في فلسطين؟ ولماذا يصر الإعلام على نسبة القمع والإرهاب إلى الإسلام فحسب؟ ﴿إنّ في ذلكَ لَذِكْرى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أو أَلْقى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيْدٌ﴾[٢١٣].

---

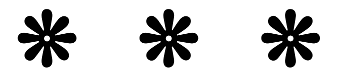
[٢١٢] المائدة، ٤١.

[٢١٣] ق، ٣٧.

# خاتمة

يقول الداعية أحمد ديدات رحمه الله: «أنا مسلم، والإسلام دين كامل، لكنني لست إنساناً كاملاً، إذا ارتكبت خطأ فلا تلوموا الإسلام، ولوموني أنا».

ونختم بحديث النبي ﷺ: ﴿إِنَّ مَثَل مَا بعَثني الله بِهِ منَ الْهُدَى والْعلْمِ كَمَثَلَ غَيْثٍ أَصَاب أَرْضاً فكَانَتْ طَائِفَةٌ طَيبَةٌ، قبِلَتِ الْمَاءَ فأَنْبَتتِ الْكلأَ والْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمسكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّه بِهَا النَّاس فَشَربُوا مِنْهَا وسَقَوْا وَزَرَعوا. وأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينَ اللَّه، وَنَفَعَه بمَا بعَثَنِي اللَّه بِهِ، فَعَلِمَ وعَلَّمَ، وَمثلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذلِكَ رَأْساً وِلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾[٢١٤].
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وصحبه الطيبين، وآخر دعوانا أن ﴿الحمد لله رب العالمين﴾[٢١٥].



[٢١٤] صحيح البخاري، برقم ٧٩.
[٢١٥] الفاتحة، ٢.

# المراجع

ابن إسحق، محمد بن إسحق بن يسار المطلبي المدني، السيرة النبوية. منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن أبي الحديد المعتزلي، عبد الحميد بن هبة الله المدائني، شرح نهج البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد الجزري الشيباني، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت.

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي القرشي التيمي، الأذكياء، تحقيق رضوان جامع رضوان، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة.

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي القرشي التيمي، تلبيس إبليس. دار القلم، بيروت.

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي القرشي التيمي، صفة الصفوة، دار صادر، بيروت.

ابن القيم، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، مدارج السالكين بين منازل «إياك نعبد وإياك نستعين»، تحقيق عماد عامر، دار الحديث، القاهرة.

ابن الملقن، عمر بن علي، البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، تحقيق مصطفى أبو الغيط عبد الحي وآخرون، دار الهجرة – السعودية، ط١، ١٤٢٥هـ.

ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني، مجموع الفتاوى، المجلد الحادي عشر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، تهذيب التهذيب، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بعناية إبراهيم الزيبق وعادل مرشد.

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، دار الحديث، القاهرة.

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة، تحقيق علي بن حسن بن عبد الحميد الحلبي، دار ابن القيم، الدمام، ط١، ١٤٢٢هـ.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار إحياء التراث العربي، لبنان.

ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري، الإمامة والسياسة، تحقيق علي شيري، دار الأصول.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي القرشي، البداية والنهاية، تحقيق محيي الدين مستو وعلي أبو زيد، دار ابن كثير، دمشق - بيروت.

ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، صحيح سنن ابن ماجه، دار الكتب العلمية، لبنان.

ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، معجم، دار صادر، بيروت.

ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري البصري، السيرة النبوية، تحقيق محمد علي القطب، ومحمد الدالي بلطة، المكتبة العصرية.

الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.

البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي، صحيح البخاري، مركز الرسالة للدراسات وتحقيق التراث، مؤسسة الرسالة ناشرون.

الحاكم، محمد بن عبد الله النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، دار المعرفة، بيروت.

الذهبي، شمس الدين بن محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة.

الذهبي، شمس الدين بن محمد بن أحمد بن عثمان، مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد بن الحسن، تحقيق محمد زاهد الكوثري، وأبي الوفاء الأفغاني، نشر لجنة إحياء المعارف النعمانية بحيدر أباد، الهند.

الرفاعي، الشيخ أحمد بن رفاعة الحسيني الواسطي، البرهان المؤيد، تحقيق محمد حسني مصطفى، دار الرفاعي للنشر، دار القلم العربي، سورية.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، من مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، جمع الجوامع الجامع الكبير في الحديث والجامع الصغير وزوائده، دار الكتب العلمية، بيروت.

الشرقاوي، د. محمد عبد الله، حوار عن وثيقة المدينة، موقع «مهارات الدعوة»: https://ar.dawahskills.com/comparative-religion/%D8%AF-

الصلابي، علي محمد، سيرة أبي بكر الصديق - شخصيته وعصره، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، مصر.
الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، دار الكتب العلمية، بيروت.
الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق إياد بن عبد اللطيف القيسي، دار ابن حزم، الرياض.
العز بن عبد السلام، سلطان العلماء عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن السُّلَمي، زبد خلاصة التصوف المسمى بحل الرموز ومفاتيح الكنوز، تحقيق محمد عبد الرحمن الشاغول، مكتبة الروضة الشريفة للبحث العلمي، الجزيرة للنشر والتوزيع، بعناية منتدى سور الأزبكية.
المبرد، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أحمد الدالي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والإرشاد بالمملكة السعودية.
المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي، الترغيب والترهيب، دار ابن كثير، بيروت، دار الكلم الطيب، دمشق.
الهمذاني، القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمذاني الأسد أبادي، تثبيت دلائل النبوة، دار الكتب العلمية، بيروت.
اليافي، د. عبد الكريم اليافي، التعبير الصوفي ومشكلته، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٩م.

إيرفينج، واشنطن، كاتب أمريكي، محمد وخلفاؤه.

Mahomet and his successors, Washington Irving

جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الأسطورة توثيق حضاري، دار كيوان للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ٢٠٠٩م

زيدان، د. يوسف، «الأولياء»، برنامج تلفزيوني:

https://youtu.be/8C5flDfZWwI

شعراوي، هدى، مذكرات هدى شعراوي، طبعة مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

صحيفة المدينة: https://www.al-madina.com/article/423745

صحيفة الوطن: https://www.alwatan.com.sa/article/1007519

صحيفة اليوم السابع: http://www.youm7.com/4065858

صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، دار الوفاء، المنصورة، دار التدمرية، الرياض.

هارت، مايكل، كاتب أمريكي، المئة شخصية الأكثر تأثيرًا في التاريخ، ويسمى «الخالدون المئة»، أو «المئة الأوائل».

# فهرس

## المؤلف في سطور

مصطفى كمال الزايد، كاتب وشاعر سوري، ولد في مدينة الميادين (الرحبة) في الجزيرة الفراتية عام ١٩٦٦م، تخصص في الأدب العربي في جامعة حلب، وعمل مدرساً في سورية والسعودية، ثم محرراً في صحيفة الحياة بالرياض، ثم في كليات الغد الدولية. له عدد من المؤلفات:

١- ترنيمات وتر، ديوان شعري صادر عن دار عكرمة بدمشق ١٩٩٣م.

٢- تطلعات في المنفى، قصيدة شعرية مطولة، صادرة عن دار الفارس بمنبج ١٩٩٥.

٣- نساء وشعراء وأمراء، كتاب أدبي صادر عن دار طويق بالرياض ٢٠٠٤م.

٤- أتمنى أن أكون صحابياً، مجموعة قصصية صادرة عن دار طويق بالرياض ٢٠٠٣م.

٥- فرص ذهبية، بالاشتراك مع أ. عبد المطلب حمد عثمان، صادر عن دار طويق بالرياض٢٠٠٦م.

٦- القمع في الإسلام – حقائق مغيبة.

٧- أخطاء النبي محمد ﷺ بين الوحي والرأي.

بريد التواصل: alzayd7@gmail.com


تم بحمد الله

غيلان الدمشقي والحلاج حالتان مفردتان لفتت الأنظار إليهما الأقلامُ المناهضة للقمع ومصادرة الرأي، وفاتها أن وراء المأساتين حقائق مغيبة يُصادر فيها تاريخ أمة كما يُصادر رأي أفرادها، فُتحت فيها الساحة للمطبّلين للباطل، وكُمِّمت أفواه الصادحين بالحق الذين قتلوا على مذابح الرأي، فتغافلت عنهم الأقلام الساعية إلى صناعة أساطير متوهَّمة تمجدّها للقراء، مُغيِّبة أساطين أجدر بأن يكونوا أساطير يُستلهم ثباتها ويُتغنى بمواقفها وتُبكى مآسيها ويُستبكى بها، فحاولنا في جهدنا المتواضع هذا إضاءة الجوانب المظلمة في تلك القضايا من مبدأ التنوير لا التسطير.